شاهد قبر

شاهد قبر

محمد مسوكر

رواية

ISBN 9789773120139

© Willows House 2021

الطبعــة الأولــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

رواية*

محمد مسوكر

شاهِد قبر

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

فصل

مـا أتمنـاه مـن هـذه المدينـة يتـوازى مـع مـا يتمنـاه المـزارع. أنـا والمـزارع خطَّـان متوازيـان ومتباعـدان. المطـر في مدينـة تعتمـد عـلى الزراعـة الموسـمية تلـك رغبـة المـزارع أو كل أمانيـه؛ فالريـح تزجـي لـه السـحاب ثقـالًا ويحتفـي بثمارهـا. أمـا أنـا فليـس هنـاك مواسـم احتفاليـة أنتظرهـا وأزجـي بهـا وقـتي وأخـرج مـن دوامـة البحـث عـن جامعـة في أرض احتشـد النـاس فيهـا قبـل قـرن ونيـف، فطـردوا بقرهـا واحرقـوا غاباتهـا وبهـا مدرسـة ثانويـة واحـدة يتبـادل فيهـا الطـلاب المقاعـد، مجموعـة تـأتي مـن الصبـاح حـتى الظهـيرة وأخـرى مسـاء.

لا أريـد أن يهطـل المطـر ليـلًا، فالسـينما بـلا سـقف، وهـي ودار الرياضـة مـن أكـثر الأماكـن أمنًـا ومـلاذًا للهـروب مـن الأمـاني، لأمثـالي الذيـن أخفقـوا في السـمر تحـت الأضـواء الخافتـة وعـلى نقـر الكـؤوس.

هـذا لسـان حـال إبراهيـم وهـو يمـارس عـادة السـير مسـاءً في الطريـقِ الـذي يقسـمُ السـوق إلى قسـمين، طقـس ثابـت في حيـاة شَـباب المدينـة. يبـدأ الطريـق مـن الغـرب مـن نهايـة شـارع المستشـفى عنـد بنـك السـودان، مـارًّا بالسـينما الوطنيـة، ثـم أكـبر محطـة للمواصـلات الداخليـة شـمال ميـدان الحريـة. ممتـدًّا إلى شـارع الدكاتـرة.

وقـت الأصيـل، هـواؤه يحـرك برفـق الأتربـة الـتي تراكمـت عـلى الأسـفلت، رائحـة المطـر جـاءت عـلى أكتـاف الريـح امتصَّـت غضـب الشـمس الحـارق، فأضحـى شـعاعها لطيفًـا وقرصهـا خجـولًا يترنـح نحـو الغـروب، الظـلال خرجـت مـن الأقبيـة ومـن تحـت الأسـوار. تراخـت أعصابهـا فتمـددت في الطرقـات. النـاس يتحركـون وإيقـاع المغـادرة يضبـط وقـع أقدامهـم. إبراهيـم يقـف متأمـلًا بائعـات الكسرة والدكـوة (زبـدة الفـول السـوداني) بعـد يـوم شـاق يحملـن عـلى رؤوسـهن أطباقًـا فارغـة إلا مـن طماطـم ورغيـف خـبز لأطفالهـن.

طقـس المسـاء بسـحائبه وبروقـه المنـذرة حملـه عـلى الـتردد في دخـول السـينما، وآثـر التريـث مقترحًـا عـلى نفسـه: (أن هنـاك متسـعًا مـن الوقـت، عـرض الفيلـم لـن يبـدأ قبـل السـابعة، وحـتى أتبـين أمـر المطـر فـلا بـأس مـن تنـاول شـاي بالحليـب مـع الحلويـات مـن حلـواني أولاد الكاملـين، الكائـن بجـوار محطـة السـكة الحديـد، وأصـلي المغـرب في الجامـع المجـاور.. ثـم أقـرر بخصـوص الفيلـم).

لـم يكـن واثقًـا مـن السـماء، ففـي هـذا الوقـت مـن العـام، مدينتـه القضـارف الواقعـة جنـوب شرق السـودان، في فضـاء قبائـل البجـا الـذي يمتـد مـن الحـدود مـع مـصر شـمالًا إلى إثيوبيـا، والسـاحل الغـربي للبحـر الأحمـر وسـهول إريتريـا.. سـماؤها سـخية، لا تحتـاج إلى وقـت وعنـاء لتجميـع السـحب وإرسـالها غيثًـا يبلـل خواطـر الأرض بعـد أن اشـتدت بهـا اليبوسـة ورسـمت عـلى سـطحها شـقوقًا.

انعطـف إبراهيـم يسـارًا والسـينما عـن يمينـه، ليتجـه ناحيـة الطريـق المـؤدي إلى الحلـواني، وعنـد فنـدق المدينـة العتيـق عـلى يسـاره لمـح رجـلًا ذا ملامـح أوروبيـة، أشـبه بموظفـي منظمـات الإغاثـة الدوليـة المنتشريـن في المدينـة أو منظمـة الصحـة العالميـة.

كان الرجـل جالسًـا تحـت شـجرة النيـم، الـتي تقـف أمـام الفنـدق منـذ أن جلبهـا المسـتعمر الإنجليـزي بـذرة أو شـتلة مـن الهنـد. بجـوار بائـع طعميـة، يتلـذذ وهـو يلتهـم مـن صحـن بيـده. توقـف إبراهيـم وأمعـن النظـر إلى ملامـح الرجـل، مـرددًا في نفسـه: الخواجـات دومًـا يفعلـون أشـياءَ غريبـة، يأتـون إلى تلـك المدينـة لمهـام مختلفـة، فتجدهـم اليـوم يأكلـون في الطرقـات، وغـدًا يجتمعـون بالمحافـظ أو مديـر الشرطـة. ولا تندهـش إن رأيتهـم يتجاذبـون أطـراف الحديـث مـع متسـول أو مذهـول.

لـم يفكـر كثـيرًا. ذهـب إلى البائـع وطلـب طعميـة بعـشرة قروش

وشـطة، ناولـه البائـع خمـس حبـات وفنجانًـا بـه شـطة حمـراء بعصـير الليمـون.

إبراهيـم أكمـل تعليمـه الثانـوي، متوسـط الطـول، والبنيـة، وجهـه مسـتطيل، لـه شـارب خفيـف، شـعره أسـود يميـل إلى النعومـة، لونـه يعكـس التمـازج الآسـيوي مـع الجماعـات البِجاويـة، يرتـدي بنطـالًا أسـود وقميصًـا سـماويًّا.

بـدأ إبراهيـم يأخـذ الطعميـة مـن الصحـن ويغمسـها في فنجـان الشـطة ويلتهمهـا، وعينـاه ترقبـان الرجـل الأبيـض، وهـو يحـدث نفسـه: لا أرى حبشـيًّا يرافقـه ولا جنوبيًّـا، فـكل الخواجـات يأنسـون برفقـة الأحبـاش وأبنـاء جنـوب السـودان، ربمـا يكـون جديـدًا لـم يسـتدل بعـد عـلى البلـدة، لمـاذا لا ألقي عليـه التحيـة؟! ربمـا أجـد معـه عمـلًا. كثـيرًا مـا سـمعت أنهـم يتعاملـون بالـدولار، وأطـور لغـتي الإنجليزيـة، و لعلـه يفتـح لي آفاقًـا جديـدة. أنـا أمـام فرصـة قلَّمـا توجـد.. لـن أخـسر شـيئًا.. فلمـاذا لا أجـرب؟

أعـاد إبراهيـم الصحـن إلى بائـع الطعميـة، وجدهـا شـهية، كانـت تلـك أول مـرة يـأكل مـن الباعـة الذيـن يتخـذون الطرقـات مكانًـا لبيـع الأطعمـة.

قـام الرجـل الأبيـض مـن مكانـه واتجـه ناحيـة الغـرب في ذات الاتجـاه الـذي قـدم منـه إبراهيـم، وعـلى بعـد مائـة متـر جلـس بجـوار رجـل آخـر يبيـع الشـاي والجبنـة (القهـوة) وطلـب شـايًا.

بـدأ يرتشـف الشـاي وجلـس عـلى بنـبر (كـرسي محـلي صغـير مـن الخشـب والحبـال).

استجمع إبراهيـم كل مـا لديـه مـن فضـول ورغبـة وهـو يقـترب مـن بائـع الشـاي، يـردد: لـن أخـسر شـيئًا.. فهـي محاولـة قـد تصيـب أو لا. ذهـب ناحيـة الرجـل، اقـترب منـه، تباطـأ قليـلًا، تظاهـر بأنـه يريـد كأسًـا مـن الشـاي.

لعـاب إبراهيـم يسـيل لفرصـة عمـل تـدر عليـه بعـض الـدولارات. والرجـل جالـس عـلى يمـين بائـع الشـاي، إبراهيـم قـادم مـن جهـة اليسـار. طلـب الشـاي، جلـس يسـار البائـع.

فجـأة امتـدت أعنـاق المـارة وبائـع الشـاي واتجهـت الأنظـار صـوب السـماء، أسراب مـن طيـور بيضـاء، قادمـة مـن إثيوبيـا في رحلـة سـنوية إلى مـصر، هكـذا يعتقـد النـاس. قـال إبراهيـم مخاطبًـا بائـع الشـاي: كنـا نعتقـد ونحـن أطفـال أنهـا تخضـب الأيـدي فنتـضرع إليهـا أن تخضـب أيدينـا وأيـدي والديْنـا. نظـر بائـع الشـاي مبتسـمًا ناحيـة إبراهيـم وفي عينيـه لغـة تنقـب في عمـق سـحيق في ذاكرتـه، قـال معلقًـا: تلـك الطيـور تذكـرني بغابـات سـاوا في إريتريـا، فـورَد أنهـا أعانـت رجـلًا بجاويًّـا أخطـأ في حـق أحـد أفـراد عشـيرته ونُفـي عقابًـا لفعلتـه، كان الرجـل يجلـس في غابـات سـاوا ويعـزف ألحانًـا شـجية، فحفظتهـا الطيـور ورددتهـا معـه، وفي المسـاء كانـت تحملهـا رسـائل إلى عشـيرته، تطـوف بهـا عـلى رؤوس الزعمـاء، إلى أن قـررت عشـيرته أن تعفـو عنـه. فذهـب إليـه الـذي تـضرر مـن فعلتـه ومعـه

نفـر، واتخـذوا موقعًـا في الغابـة يرسـلون منـه الألحـان، يعزفـون مقابـلًا لألحانـه، فتـأتي الطيـور لتنقـل رسـائلهم إليـه. ومـذَّاك عـرف البجـا لحنًـا للنـدم وآخـر للصفـح. أخـذت النشـوة لـب إبراهيـم وانـشرح للاسـتزادة حـتى كاد ينـسى أمـر الرجـل الخواجـة.

انشـغل بائـع الشـاي بخدمـة الزبائـن. تجـاسر إبراهيـم عـلى نفسـه، حملهـا عـلى الاقـتراب أكـثر مـن الرجـل الخواجـة، فأخـذ مقعـده الخشـبي وجلـس يمـين البائـع وعـلى بعـد مـتر واحـد مـن الرجـل، وبلغـة إنجليزيـة خرجـت مـن صوتـه المرتجـف كأنهـا ترتـد إلى داخلـه ولا تخـرج:

- مساء الخير.

جـاءه الـرد بلغـة عربيـة مفهومـة ولكـن واضـح أن اللسـان الـذي نطـق بهـا ليـس متمرسًـا عليهـا مسـاء النـور.

إبراهيـم مذهـولًا: هـل تفهـم العربيـة؟ ابتسـم الرجل واسـتمر إبراهيـم في الحديـث: لذلـك تسـير بـلا مرافـق مـن الأحبـاش أو الجنوبيين!

انتقلـت الدهشـة مـن وجـه إبراهيـم إلى الرجـل، لـم يفهـم الرجـل مـا يرمـي إليـه إبراهيـم، ولكنـه أبـدى اسـتعدادًا لتجـاذب أطـراف الحديـث قتـلًا للفـراغ الـذي يلفـه في تلـك البلـدة.

أخـذ إبراهيـم مقعـده واقـترب أكـثر مـن الرجـل وزاد في حديثـه:

كل الخواجات يسيرون في المدينة وبرفقتهم مترجم، ودائمًا ما يكون حبشيًّا أو من جنوب السودان، ويبدو أنك تجيد اللغة العربية فلست في حاجة إلى مترجم.

بدا إبراهيم متدفِّقًا في الحديث والرجل غارقًا في تأمل وجهه، وبهدوء من خبرَ الاندهاش ونبرات صوت يصعب تحديد موقف صاحبها نطق الرجل: أنا لست خواجيًّا بالمعنى الذي ترغب، ولا أعمل في المنظمات الدولية، أنا اسمي رمضان من تركيا، باحث في التراث، وأعكف حاليًّا على دراسة عن المدن التي أنشأها الأتراك، فلا بأس عليك أن تدعوني خواجة، فنحن في تركيا نعيش بقلبين في جوفنا قلب شرقي وآخر غربي، لذلك لا أندهش من أي نداء يوجه إليَّ، كما أعلم أيضًا أننا إمبراطورية عثمانية إسلامية لدى البعض، وأيضًا استعمار تركي لدى آخرين.

ران الصمت على إبراهيم وهو يحدق إلى الرجل القصير الأبيض الممتلئ، الذي بدا متكورًا على البنبر بشاربه الكث وكرشه التي تجمعت بين ركبتيه وهو جالس. خاب أمله في الحصول على رجل خواجة بالمعنى الذي قصده، ولا علم له ما هي الفائدة الآنية التي يمكنه جنْيها من رجل تركي جاء إلى مدينته ليتقصى أثره التاريخي!

شعر إبراهيم أنه في حاجة إلى أن يتحدث عن نفسه لعله يجد ضالته في الرجل. دلف الرجل إلى صمت إبراهيم متعمِّدًا تبديده: سمعتك تتحدث عن الطيور.

- نعـم فتلـك الطيـور وغيرهـا لديهـا مواسـم تظهـر فيهـا وتختفـي. وأعتقـد أننـا نقطـة عبـور للكثـير مـن الأنـواع بـين الشـمال والجنـوب. وأيضًـا البـشر يأتـون هنـا موسـميًّا... عفـوا لمـاذا أنـت هنـا؟

- لقـد ذكـرت لـك قبـل قليـل أنـني أعـد دراسـة عـن المـدن الـتي أنشـأها الأتـراك. ولكـن الأهـم الآن موضـوع هجـرة الطيـور مـن الشـمال إلى الجنـوب والعكـس، لأنـني كثـيرًا مـا أجـد اشـتراكًا في المسـارات بـين الطيـور والبـشر.

وأردف مبتسمًا:

ولذات الأسباب أيضًا فالقوت والأمن ماء الوجود.

لقـد ظننتـك مـن العاملـين في منظمـات الإغاثـة الدوليـة، ولكنك بـلا مرافـق مـن الأحبـاش أو مـن أبنـاء جنـوب السـودان!

ولماذا يكون المرافق جنوبيًّا أو حبشيًّا؟

أجاب إبراهيم:

أنـا في حقيقـة الأمـر لـم أسـأل نفـسي يومًـا هـذا السـؤال. ولكـن ربمـا لأنهـم أفضـل مـن يتحـدث الإنجليزيـة. لا أعـرف عـلى وجـه الدقـة لمـاذا!! ولكـن مـا علاقـة القضـارف بالأتـراك؟

أشـعل الرجـل سـيجارة ونفـث دخانهـا بهـدوء، وبـدا كأنـه يفكـر في سـذاجة سـؤال إبراهيـم، وهـو ينظـر ناحيـة الشـارع، بطريقة

جعلت إبراهيم يظنه يرصد بعض القطط الضالة، التي كانت تعبث بالمخلفات على الناحية المقابلة من الشارع. وبصوت هادئ أجابه:

إن الحكم التركي أو العثماني - سمِّه ما شئت - جاء عن طريق البحر الأحمر، وضم التاكا وسواكن ومصوع وإقليم بقوس. تحت إدارة أيالات الباب العالي. ولم تكن مدينتك خلقت بعد.. وباعتبارها في ديار البجا كانت تابعة لحكمدارية كسلا.

كان إبراهيم يستمع للرجل وهو مشتت الذهن ما بين المطر الذي زادت احتمالات هطوله، وما بين الفضول الذي أثاره الرجل في نفسه.

- جئت إلى هنا لأدون ملاحظاتي عن الوجود التركي من خلال العمران، وقضيت زهاء الأسبوعين ولم أجد غير بعض المفردات التركية كأجزاخانه، وأدب خانه، وشفخانه.

- ألم تجد شيئًا من الأثر التركي... أقصد في العمران؟ وطالما فكرة المدينة هنا تركية فقطعًا لديكم مخطوطات عنها.

- هذا صحيح جزئيًّا، ولكن الأثر هو ما تركناه، نحن نملك ما وجدنا من معلومات قبل قدومنا، ولم تكن من مناطق الاستقرار بل الرعي أكثر. ثم إن طبيعة الإجراءات هنا لا تسمح بالتعامل إلا من خلال المركز.. أي الخرطوم، سأسافر غدًا، ولا أعتقد أنني سأعود، لأن الأمر لا يستحق كل هذا العناء. ربما غيري يجد فيها معنى، أما بالنسبة إليَّ فلا أظن

ذلـك.

- إذن لقد خاب أملك .

علق التركي وعلى وجهه علامات لا تخلو من ازدراء:

وأنـا أجمـع المعلومـات عـن القضـارف قرأت أنهـا مدينـة زراعية، بـل مـن أغـنى مـدن السـودان، فتصـورت أنـني سـأجد مدينـة محظوظـة بـتراث تـركي ثـم بريطـاني وأخـيرا سـوداني، أي بعـد الاسـتقلال، ولكـن وبمنتهـى الوضـوح لـم أجـد غـير الملامـح الأفريقيـة الـتي جـاءت بهـا جيـوش المهديـة، وهـي القطيـة الـتي تبـنى مـن الحطـب والقـش، وتختلـف مـن حيـث الحجـم حسـب الوضـع المـادي للمـرء، فهـي قريـة أفريقيـة كبـيرة.

صمـت إبراهيـم وهـو يحـدق إلى وجـه الرجـل الـذي هبـط عليـه مـن كوكـب آخـر، ليحدثـه عـن مدينتـه وكأنـه لـم يسـمع بهـا مـن قبـل.

- يبـدو أنـك تعـرف الكثـير عنـا، فأنـت محـق فيمـا قلـت، وأعتقـد أن هـذا مـن سـوء طالـع المـدن الـتي تعتـبر مسـارات فيتراكـم النـاس فيهـا فتغيـب هويتهـا الحقيقيـة، فنحـن تعبرنـا الطيـور والبقـر والبـشر.

- هـذا مـن طبيعـة مـا أنـوي القيـام بـه.. ولا أعتقـد أنـني في حاجـة إلى تصريـح مـن الخرطـوم لأنـني لـن أعـود إليهـا.. كمـا واجهتـني فيهـا مشـكلة السـكن، فأنـا أقيـم في مبـنى متهالـك ولا

يتمتع بأدنى حد من أنواع الخدمات، لذلك ليس هناك ما يدعوني إلى العودة.

- ربما لأنك لم تمنحها فرصة كافية.. قليل من الصبر عليها قد يفيدك. فهل ذهبت إلى صوامع الغلال؟ سأل إبراهيم هذا السؤال وعيناه شاخصتان ناحية السماء. كأنه ليس معنيًّا بحديث الرجل الذي رد قائلًا:

- يا للأسف، نعم!! ورأيت أسواق المحاصيل.

- لماذا الأسف؟

- على الرغم من أنها من حسنات الحكم الوطني، فإن الفضاء الخلفي الذي يُسمى أسواق المحاصيل، وبكل ما به من ثروة غير مسقوف، بل عراء بلا أدنى شروط محافظة على الثروة التي توضع فيه.

- ربما في هذا البلد أمان لم تستطع أن تفطن إليه، فليس هناك ما يدعو إلى كل هذا، لسنا في حاجة إلى ما تسميه شروط سلامة.

انتبه إبراهيم إلى أن الوقت يتسرب من بين يديه، وأن الرجل يجلس بالقرب من مرقده، والسماء ازداد وعيدها بالمطر.

- الحديث معك ممتع ومفيد، ولكن كما ترى الأجواء لا تسمح لي بالاستئناس بحديثك وليتني التقيتك قبل أن تصل إلى قرارك هذا، ربما خففت عنك قليلًا، أو على الأقل لما

جعلتـك تبلـغ تلـك الدرجـة مـن الإحبـاط.

أخـرج إبراهيـم قلمًـا مـن جيبـه وقصاصـة مـن الـورق وكتـب عليهـا رقـم صنـدوق بريـد ومدهـا إلى الرجـل:

إن قـررت العـودة فأبـرق لي قبـل يومـين عـلى الأقـل مـن قدومـك، وأعـدك بأنـني سـأحل لـك مشـكلة السـكن وأجتهـد معـك في مـا تبقـى مـن الأمـر.

ودَّع إبراهيـم الرجـل الـتركي وهـو خائـب الرجـاء، فلـم يكـن خواجيًّـا كما تمـنى، وأثقلـه بما جـنى مـن تلـك الجلسـة القدريـة الـتي زادت حيرتـه حـول المدينـة. وهـو يعلـم أن مـا لا يوجـد في مقـررات المـدارس فهـو أشـبه بإذاعـات العـدو يجـب التعامـل معـه بحـذر. أسرع الخطـى ناحيـة موقـف المواصـلات بعـد أن قـضى وقتًـا لا يشـبه كل أوقاتـه منـذ أن ولـد في تلـك المدينـة الـتي لـم تعطـه غـير مزيـد مـن الأسـئلة والحـيرة. ازداد تشـعبًا، ضغطـت المصادفـة عقلـه وفـؤاده، تاريـخ وطيـور لا تعـرف الكلـل، جبـال راسـيات في جوفـه يـئن مـن وطأتهـا، يغمد الأسـئلة بـين عظامـه ويسـابق المطـر.

فصل

اتكأ إبراهيم على حائط السينما التي لا يعرف لماذا سميت بالسينما الوطنية، رائحة البول المنتشرة تمنعه التثاؤب، ويخشى إن فتح فمه عاطسًا، أو متثائبًا، أو حتى مناديًا لامتلأ فمه وحلقه بالروائح الكريهة، شاردًا بتفاصيل تلك الأمسية التي لم تكن بحسبانه، يسلي نفسه تارة بميراث الإنجليز وهو ينظر ناحية جبل الجيش، مقر القيادة الشرقية للقوات المسلحة، أو الأورطة الشرقية.

ما زال الجبل يحتفظ ببعض زينته التي خلفها الاستعمار، تظهر أكثر عندما تغرق المدينة في الظلام، بات كعروس تشهد حزنًا وسوادًا. الكهرباء لا تتجاوز حدود السوق، وحي الموظفين المجاور له، وحي البوليس والسجانة، وأحياء الميسورين المجاورين للسوق وبيوت الأقباط.

كلما غرق في مشهد الجبل وتناثر الأضواء على قمته، انتشله حديث الرجل التركي الذي قضى أسبوعين في المدينة، كاد

يفقد معهما رغبته في الحياة أو استكمال بحثه ودراسته عن المدن التي أنشأها الأتراك.

هزيم الرعد وضوء البرق المصحوبين بنسايم تنذر بهطول المطر، يتذكر معها إبراهيم أنه في انتظار البرينسة، وهي المركبات اليابانية المعروفة البيك آب من ماركة تويوتا ومازدا، التي أبدع الفقر في إضافة سقف لها ذي زوايا حادة، ليتراص الناس فيها على شكل خطين متقابلين، منتصف ظهورهم مكشوفة للعراء، وسعيدهم الذي يحظى بمقعد يجاور السائق الذي بدوره يتمنى أن تجاوره امرأة أربعينية أرملة أو مطلقة، أو شغوفة بالحياة لم تجد في بعلها رحيقًا.

انتصفت الساعة بعد الثامنة مساء، ازدادت احتمالات المطر، والخوف من الحي الإثيوبي ومرتاديه، الذي كان يعرف بالأنادي سابقًا، وتباع فيه الخمور البلدية كالمريسة، التي تعتلف البقر على مخلفات صناعتها، ويغلق نشاطه في الرابعة عصرًا على صافرة البوليس التي تلزم صاحبة الإنداية بإنزال البيرق، ولكن بعد لجوء الإثيوبيين الذين خالطوا سكانه، عرف خمورًا أفرنجية وسوقًا لتجارة الأسلحة الخفيفة، لم يعد من الممكن عبوره دون وجل.

تحرك من مكانه باتجاه ثلاثة من الرجال، أقوياء البنية، فتلك حيلة معروفة، في مثل تلك الظروف، لا مجال لادعاء الشجاعة، أقوياء المدينة وضعافها يتحدون في الظروف الليلية الماطرة، وتحديدًا أولئك المتجهين إلى غرب المدينة

لا مناص لديهم لتفادي الخور والحي الإثيوبي. بلغ إبراهيم موقع الرجال في ذات اللحظة التي ظهرت فيها البرينسة، لاحظوا أن سائقها لا يود العودة، توقف بعيدًا عن تجمعهم. هبُّوا مسرعين تسبقهم توسلاتهم للسائق، عددهم أقل من نصف عدد الركاب المسموح بهم، الأمر الذي يضعف من فرصة كسب عطف السائق. خرج السائق من مركبته تأهبًا لملاقاتهم معلنًا لهم قبل أن ينطقوا بأي جملة أنه أنهى يومه ولا ينوي العودة إلى غرب المدينة. تركهم قرب المركبة، وذهب صوب حائط السينما ليتبول. عند عودته كان عدد الركاب بلغ الثمانية، جاء أحد الأشخاص وتبعه ثلاث نساء، وطفلان لم يتجاوزا العاشرة من العمر.

هنا تقدمهم إبراهيم وتحدث باسم الجميع؛ استعطف السائق، مكررًا على سمعه احتمالات هطول المطر، ومخاطر الطريق ولم يغب عن ذهنه أن يستدر عطفه بالنسوة والأطفال.

قبل أن يعقب السائق على حديث إبراهيم عاجله آخر بسيل من الرجاءات محركًا فيه كل شرايين النخوة والشهامة والمروءة.

صمت السائق متأملًا الوجوه التي غابت كل ملامحها عدا ما يثير الشفقة في نفسه.

- إذا لم أجد ركابًا في الطريق من الذي يتحمل فرق قيمة

الرحلـة؟

أكثر من صوت أجاب نتحملها نحن.

لـم يكـن السـائق في حاجـة إلى أكـثر مـن تلـك العبـارة لتنبيـه الـركاب بأنـه عـلى عجلـة مـن أمـره، لـكي لا يتباطـؤوا في الصعـود، لأنـه يعلـم حرصهـم عـلى ذلـك أكـثر منـه.

انطلقـت المركبـة ناحيـة البنـك المركـزي، تاركـة الغرفـة التجاريـة خلفهـا لتمـر مـن أمـام فنـدق المدينـة وغرفـه المحـدودة، الـذي يؤجـر أسـطح المحـال التجاريـة الملاصقـة لـه للعمـال الذيـن يقصـدون المدينـة للعمـل في الزراعـة، قبـل بلـوغ البنـك اتجهـت يسـارًا لتمـر مـن أمـام مبـنى المجلـس البلـدي ثـم مكتـب البوسـطة. لـم تمـر دقائـق حـتى غـادرت آخـر إضـاءة كهربائيـة في المدينـة مـن الناحيـة الغربيـة.

صمـتُ الليـل، وجـومُ الـركاب، سـيرُ المركبـة في جـوف الظـلام، ضـوءُ الـبرق الخاطـف... كل ذلـك عمَّـق الإحسـاس بالوحشـة. تتوغـل المركبـة في الظـلام ،نقطـة صغـيرة مـن ضـوء وحشرجـة الموتـور. مـد السـائق يـده وشـغَّل المذيـاع، جـاء صـوت مـن إذاعـة صـوت الأمـة السـودانية، تسـلل الغنـاء إلى الـركاب عـبر السـماعة المثبتـة في الخلـف، همهـم الجميـع ثـم تهامسـوا، صـاح أحدهـم مناديًـا السـائق: لـو سـمحت.. لـو سـمحت يـا ابـن العـم أوقـف الراديـو؛ الراديـو مـع المطـر يجيـب الصاقعـة (الصاعقـة). أذعـن السـائق لرغبتهـم في الحيـاة، توقـف صـوت

الراديـو؛ عـاد الصمـت.

لـم يشـذ عـن هـذا المشـهد سـوى النسـوة الـلائي واظـبن عـلى النظـر خـارج المركبـة يتبـينَّ الطرقـات عـسى أن يجـدن ضالتهنَّ. توقفـت المركبـة أمـام نقطـة البوليـس الذيـن بـدا عليهـم الانهمـاك في حـصر البراميـل الـتي جمعـت نهـارًا مـن صاحبـات الخمـور البلديـة. نـزل بعـض الـركاب، وصعـد رجـل وامـرأة يبدو عليهمـا رهـق وغضـب يتحدثـان عـن رجـل الشرطـة الـذي يرتـاد منزلهمـا ليـلًا لـشراء العـرقي، وعندمـا يسـتبد بـه الفلـس يعيـد إخـراج مسرحيتـه الـتي ملـوا تكرارهـا، يلقـي عليهمـا القبـض، ويهددهمـا بعرضهمـا عـلى محكمـة العمـد إذا لـم يدفعـا.

لـم تتوقـف المركبـة بعد ذلـك إلا في المحطـة الأولى بعد الخور، وترجـل منهـا شـخصان انطلقـا في اتجـاه البيـوت المتراصـة عـلى يمـين الشـارع، والمـرأة والرجـل صـوب الحـي الإثيـوبي يسـار الشـارع، تنطلـق المركبـة مـن جديـد نحـو محطتهـا التاليـة ويترجـل منهـا بعـض الـركاب. إلى أن بلغـت المحطـة الأخـيرة، وهـى تخـترق صمـت الليـل الـذي يمـلأ الأرجـاء وتقـذف لـه بالـركاب ليبتلعهـم.

تسـارع الـركاب إلى مغـادرة المركبـة كل إلى وجهتـه، تناثـروا في الظـلام، تراهـم عـلى ضـوء الـبرق جنـودًا متفرقـين تأهبًـا لتنفيـذ مهمـة عـلى عجـل.

إبراهيـم أبطـأ الخطـى مرخيًـا سـمعه للحديـث الدائـر بـين

السـائق والنسـوة، لـم يفهـم سـوى مفـردات بلسـان التقـري البجـاوي تفيـد بأنهـن لا يعلمـن في أي الأحيـاء مـن المدينـة، وأن السـائق لا يفهـم مـا خطبهـن، كل الـذي يريـده أن يغـادرن المركبـة، المطـر ينـذر بالهطـول وهـو لا يأمـن الأشرار في هـذا الليـل البهيـم.

لا يسـتطيع إبراهيـم أن يوصـل العقـول ببعضهـا، فهـو إن أجـاد اللغـة العربيـة وأفهـم السـائق مـا تناهـى إلى عقلـه مـن لسـان النسـوة، يعـوزه أنـه ليـس كفـؤا في نقـل رغبـة السـائق إليهـنَّ.

توجـه ناحيـة السـائق طالبًـا منـه أن يعينـه بالصـبر عـسى أن يفـرج الأمـر عـلى يـده، أذعـن السـائق لرغبـة إبراهيـم دون أن ينـسى تذكـيره برغبـة السـماء والخـوف مـن أبنـاء الليـل الذيـن لا يردعهـم مطـر ولا وابـل مـن الرصـاص، فهـو صيـد سـمين؛ يملـك إيـراد يـوم كامـل مـن العمـل. طمـأن إبراهيـم السـائق، واسـتدار ناحيـة النسـوة، غـاص في ذاكرتـه باحثًـا عـن أي مفـردة بلسـان التقـري، حـتى إن كانـت غـير متفقـة مـع اللحظـة، فإنهـا حتمًـا سـتخلق رابطًـا وجدانيًّـا بينـه والنسـوة. اقـترب ممـن بـدا لـه أنهـا صاحبـة القـرار، امـرأة تجـاوزت العقـد السـادس مـن العمـر، تشـبه في زينتهـا جدتـه الـتي تزورهـم في مواسـم لا يعلم كيـف تختارهـا، هـل تتبـع فيهـا ضـوء القمـر أم يبـاس الأرض. تتـدلى عـلى صدرهـا تعويـذات، مغلفـة بجلـد، مربوطـة بخيـط سـميك، مشـتبكًا مـع خيـط آخـر خـاص بحافظـة النقـود الـتي تصـل إلى ردائهـا. في هيئتهـا أشـبه بمـن يرتـدي زي الإحـرام، لولا

ازدحامـه بالألـوان، كمشـهد جدتـه الـتي لا تـأتي إلا في مواسـمها الخاصـة.

النسـوة في داخـل المركبـة وإبراهيـم يقـف خارجهـا أمـام الفتحة الخاصـة بالصعـود والهبـوط ولسـان إبراهيـم كسـيف صـدئ في غمـد متهالـك.

لهج:

(هيا... هليت... أميي... بيت).

كلمـات غـادرت لسـان إبراهيـم لا ترغـب في أن تكـون جملـة تفيـد معـنى، يعلـم أنهـا عاجـزة عـن الإفـادة، لكنـه يراهـن عـلى شـعوره، يسـأل الله أن تقـع كلماتـه حيـث أراد لهـا، صمـت وهـو يرقـب حركاتهـن. بـدا لـه أن النسـاء يقلِّبن أمـرًا، السـائق ينفـث زفـيرًا، كلمـا أرعـدت السـماء. صـاح السـائق:

- يا أخي عجِّل شوية، السماء ما بتعرف هظار (مزاح).

رمـق إبراهيـم السـائق بنظـرة بهـا مناشـدة بالصـبر وتحذيـر مـن أنـه بإمكانـه أن يتـركه مـع النسـوة يتدبـر أمـره.

أتى الفـرج عندمـا التقـط منهـن كلمـة مألوفـة لأذنـه (جِـنى فـداب) تنطـق بهـا أمـه في سـاعات الرضـا، أي إنـه صاحـب مـروءة ويُعتمـد عليـه.

هـمَّ النسـوةُ بالـنزولِ مـن المركبـةِ، هيـأ إبراهيـمُ يـدهُ ليتسـلم

عنهـن الأمتعـة، والسـائقُ يبتهـلُ شـاكرًا لإبراهيـم صنيعـه، ابتلعَ الظـلامُ الجميـع، وبخطـى لا تتناسـب ونذيـر السـحب السـوداء، خطـوات النسـاء البطيئـة لا تقلـق إبراهيـم، لأن البيـت عـلى مرمـى حجـر مـن المحطـة، حافـظ عـلى تناغـم خطواتـه مـع بطئهـن.

اعتـاد إبراهيـم في الأوقـات المشـابهة، حينمـا يكـون بمفـرده أن يلقـي حجـرًا عـلى شـباك مبيـت عمـه سـليمان، الـذي يفتـح لـه البـاب بهـدوء ويسـتطلعه عـن الأوضـاع في البيـت، ومـن ثـم يذهـب ليلتقـي بقيـة أفـراد الأسرة مدعيًـا أنـه كان يجـاذب عمـه أطـراف الحديـث، لا سـيما أن الجميـع يعلـم الـود الـذي يربطهمـا.

محدثًا نفسه:

«في هـذه الليلـة يبـدو أنـني لا أملـك مـن الأمـر إلا المواجهـة، أن أطـرق البـاب، وقطعًـا أمـي قـد اسـتبدَّ بهـا القلـق، أذنهـا ملتصقـة بـكل أرجـاء البيـت تحـصي الأنفـاس. لـن أطـرق البـاب طويـلًا. حـتى لا يسـمعني مـن في الداخـل، ولكـن كيـف؟ لعلهـا تسـمع أنفـاسي الآن! ولكنهـا لـن تعاتبـني اليـوم سـأكون أسرع منهـا في الحديـث».

طـرق إبراهيـم البـاب، وكمـا توقـع صـوت أرهيـت والدتـه يأتيـه مـن الداخـل:

- من؟

- أنا إبراهيم ومعي ضيوف.

إجابة لا يحتاج إبراهيم أكثر منها ليعبر إلى داخل البيت ويقف في الحوش (صحن الدار)، دون أن يتعرض إلى تحقيق من والدته أو توبيخ أو كلمتها الثابتة (منقوقاي) أي الكثير التجوال. وقفت النساء عند عتبة الباب وتقدم هو صوب أمه ودنا منها هامسًا لها بكلمات، على إثرها نطقت أمه بعبارات بصوت حرصت أن يبلغ سمع كل أهل الدار ليس النساء فحسب:

(أرحبوا أرحبوا قدم بلو).

أي مرحبًا مرحبًا تقدمن إلى الداخل. تقدمت النساء وهنَّ يرددن عبارات الشكر والثناء. صافحتهنَّ بقبلات على ظهر أيديهن، طقس اجتماعي خاص محبب إلى نفس إبراهيم، إذ تتصافح الأيدي وتبدأ المضيفة بجذب يد الضيفة إلى شفتيها وتقبل ظهر يدها كأنها تتبرك بقدومها، وترد الضيفة بالمثل، وهكذا كررت التحية مع كل النساء وأصغرهن تحاول أن تقبل يد أم إبراهيم. ودون أن تجعل أم إبراهيم تبادلها المثل احترامًا لفارق العمر.

سارت أم إبراهيم ناحية الحوش الخاص بالنساء، عابرة الفاصل الذي يحجبهن عن (الخلوة) مجلس الرجال، ويتبعها النسوة وإبراهيم معينًا لهنَّ في حمل متاعهنَّ. أشارت إليهن بالجلوس في العرات (وهو سرير من أعواد الأشجار على

شكل مستطيل ينسج بحبال من السعف). وكما كان إبراهيم متوقعًا سيُكلَّف، وها هو صوت أمه يأتيه حاملًا اسمه فقط:

- إبراهيم.

إشارة يفهمها جيدًا تومئ أن هناك توبيخًا مؤجلًا، أما إذا كان الرضا سيد الموقف فتناديه (بأب أمو) أي يا والد أمه، فهي أرهيت بنت إبراهيم وخصَّته باسم أبيها. أما أن يأتيه اسمه مجردًا فذلك كل الوعيد والتهديد كما يعني عليه المثول أمامها فورًا.

وقف إبراهيم أمامها وهو يتحاشى النظر إليها.

وبلغة حازمة ألقت على سمعه مجموعة من المهام التي لا تحتمل التأجيل:

- أشعل الفانوس الثاني، واحمل إخوتك من المطر، وغطِّ المرايا والصور المعلقة من البرق والرعد. اذهب إلى الخلوة غطِّ صورة أبيك، وأخبره وعمك أن طعام العشاء بعد قليل، واغسل أيديهما.

لم تمضِ خمس عشرة دقيقة إلا وكان إبراهيم واقفًا أمام أمه ليحمل العشاء إلى عمه سليمان وأبيه في الخلوة، هامسًا لأمه بأن أباه قال لا داعي لتغطية الصور، لأن السحب لا تغطي ناحية القبلة. والدعاش يوحي بأنها هطلت في

الصعيـد. اكتفـت أم إبراهيـم بإشـارة مـن يدهـا إلى صحـن العصيـدة ليأخـذه إلى الخلـوة.

أم إبراهيـم والنسـوة افترشـن الأرض بالتكوبـة (سـجاد مـن السـعف)، تتوسـطهن العصيـدة وبجوارهـن أدوات الـبن (القهـوة).

- لـم تكـوني في حاجـة إلى كل هـذا التعـب، فحاجتنـا إلى الـبن أكـثر مـن رغبتنـا في تنـاول طعـام.

جـاء الحديـث بـادرة تلقفتهـا أم إبراهيـم لتتعـرَّف ضيوفهـا. بادلـت اللطـف بأفضـل منـه، عرفتهـنَّ باسـم ابنهـا الـذي كان سـببًا في هـذا اللقـاء، وأن ترتيبـه في الأسرة البكـر، وأن اسـمها أرهيـت.

تحدثـت أكبرهـنَّ سـنًّا معرِّفـة نفسـها بأنهـا زينـب، وعـلى يمينهـا عائشـة ابنتهـا وأم الطفلـين، والثالثـة خديجـة بنـت أختهـا، وأنهـنَّ قادمـات مـن ناحيـة بلـدة حواتـة. ومعروفـين بعـد عافـة ود همـد مـن بيـت رحيـب.

لـم تكـن أم إبراهيـم في حاجـة إلى مزيـد مـن التفاصيـل لتلقـي عـلى مسـامعهنَّ مـا يشـعرهنَّ بالرضـا، وأنهـن مـن عشـيرة لهـا مجـد، وجـادت ذاكرتهـا باسـم مـوسى ود حامـد، أحـد أعيـان ضيوفهـا.

دبَّـت في وجدانهـنَّ روح الكبريـاء مـن جديـد بعـد أن سـلبهنَّ

النهـار إياهـا. انهـارت أمامهـنَّ كل جبـال التكلـف في الحديـث الـذي حاصرهـنَّ منـذ دخولهـنَّ إلى الـدار، وهـذا مـا رمـت إليـه أم إبراهيـم، فالعشـيرة الـتي أمامهـا لـن تسـلم مفاتيـح قلبهـا للحديـث إلا إذا عزفـت لهـا أوتـار المجـد. خديجـة أسرعهـنَّ في التعبـير عـن انشراحهـا للمـكان، فلـم تشـأ أن تـترك حبـل التعـارف يمتـد دون أن تخـرج مـن صدرهـا سـؤالًا لازمهـا منـذ أن كحلـت عينيهـا رؤيـة إبراهيـم، وبصـوت ممتـلئ بـكل حيـاء نسـاء العالمـين ومشـوب بحـسرة حـرى عـلى الكبـد قائلـة:

- خلتـو أرهيـت (خالـتي أرهيـت) ابنـك إبراهيـم فـارس وأصيـل، ولكنـه لمـاذا لا يتحـدث بلغتنـا؟

لـم تكـن أم إبراهيـم متوقعـة هـذا السـؤال الآن، فقـد كان تقديرهـا أنهـا مـن الواجـب أيضًـا أن تعطـي تعريفًـا موجـزًا عـن أهلهـا وعشـيرتها.

لـم تسـتمر حيرتهـا طويـلًا فهـي امـرأة تعيـش في بلـدة لا تحمـل غـير الأسـئلة، كل أهلهـا وعشـيرتها في اسـتجواب دائمًـا مـن أحبائهـم ومـن الغربـاء، سـؤال الحـسرة الـذي أمامهـا، يصادفهـا كثـيرًا.

أجابت: إنه ابن مدارس لا يعلم شيئًا.

أجابـت أم إبراهيـم وهـي تشـعر بـأن النفـوس الـتي أمامهـا تدينهـا بالتقصـير وفروسـية ابنهـا ناقصـة في تقديرهـن، ولكنهـا لا تبـالي كثـيرًا، فهـي تعلـم أن بـاب الاجتهـاد مـع هـذا النـوع

مـن أسـئلة الأحبـة مغلـق، فلهـم العتـبى ولـو إلى حـين. كل الـذى تعلمـه الآن أم إبراهيـم أنهـا لـم تعـد في حاجـة إلى ذكـر عشـيرتها وأهلهـا، فالقلـوب الـتي أمامهـا حـررت لهـا شـهادة انتمـاء إلى منطقـة غائمـة رماديـة. فالأهـل يـرون فقـدان لغتهـم كارثـة وتتنصـلًا منهـم ، والحكومـة تنظـر إلى تلـك اللغـة كمعيـق.

- والسائق لماذا لا يتكلم بلغتنا؟

رغم أنه سؤال مباغت أيضًا، فإنه الأسهل فأجابت:

لأنه (حَمّد حِفُونْ).

فتدخلـت هنـا العجـوز زينـب لتعيـد الحديـث إلى مـدار يوقـف تلاحـق الأسـئلة.

فسـألت أم إبراهيـم عـن محطـة الحافـلات المتجهـة إلى مدينـة كسـلا هـل بالإمـكان أن يجـدن مقعـدًا عـلى مـتن أولى الرحـلات؟

- نحـن ذاهبـات إلى كسـلا لأننـا قضينـا يومًـا كامـلًا في مستشـفى المدينـة لمقابلـة طبيب أطفـال لحفيدي هذا، إلا أن المستشـفى لـم يكـن مـن السـهل أن نجـد فيـه معينًـا. أعتقـد أنهـم مثـل ابنـك أبنـاء مـدارس أو حَمّـدْ حِفُـونْ، ولكـن عـلى آخـر النهـار أعاننـا الله ويـسر لنـا إحـدى الأخـوات مـن بنـات أهلنـا، ويبـدو أنهـا كانـت عـلى عجـل فشـكونا لهـا أمرنـا، فنصحتنـا بالسـفر إلى كسـلا، ففيهـا مستشـفى للخواجـات فيـه عـلاج أفضـل، بـه الكثـير مـن أهلنـا يعملـون بـه. بنـات وأولاد. ولابنـتي صديقـة

متزوجـة هنـا في الحـي السـابع وددنـا أن نقـضي الليـل معهـا ونغـادر غـدًا، ولكـن يبـدو أننـا اسـتقللنا المواصـلات ولـم نسـأل عـن وجهتهـا، والحمـد لله الـذي سـخر لنـا ابنـك إبراهيـم. فقـط مـا نخشـاه أننـا لا نضمـن بلوغنـا كسـلا.

- لماذا؟

- جـراء أسـئلة الطريـق، فكلمـا توقفـت الحافلـة يصعـد إليهـا رجـل مـرة بـزي العسـاكر وأخـرى ببنطـال عـادي، ولا يسـأل غيرنـا (بطاقـة أو تصريـح) أو يتـم إنزالنـا مـن الحافلـة. ويتحـدث معنـا معظـم الوقـت ونحـن لا نفهـم مـا يقـول.

تدخلـت ابنتهـا تـروي أيضًـا كيـف أن زوجهـا في العـام المـاضي كان عائـدًا مـن كسـلا الـتي ذهـب إليهـا لأداء واجـب العـزاء، كاد يُـزجُّ بـه في السـجن لأنـه وصـف أحـد العسـاكر بالغريـب، وأنـك جئـت مـن آخـر السـودان لتهـين النـاس، وكأن الرجـل لُـدِغَ في قلبـه.. يبـدو أنـه مـن مواليـد القضـارف أو كسـلا، ولكـن أصولـه مـن النيـل.

أخذت أم إبراهيم زمام الحديث:

إن شـاء الله غـدًا لـن تحتجـن أن تسـافرنَّ إلى كسـلا. فيوجـد مستشـفى خواجـات في بلـدة خشـم القربـة، وسـوف أخـبر أبـو إبراهيـم ليوصلكـن إلى محطـة المركبـات الناقلـة إلى هنـاك.. فقـط سـوف يكـون ذلـك بعـد صـلاة الفجـر مباشرة. وإن شـاء الله (سـفر النـبي للشـام).

فصل

لا بـدَّ أن أسـتنفر كل مـا أوتيـت مـن قـدرة عـلى النطـق وأقـف في وجـه إسـماعيل. نعـم هـو رجـل خـير، وكان بالنسـبة إليَّ أكـثر مـن شـقيق أكـبر، وإنـه يعطـف عـليَّ كثـيرًا ورغـب في أن أكـون نموذجيًّـا، ولكـن كيـف أكـون مجـرد أمنيـة لشـخص آخـر مهمـا كان نبيـلًا معـي؟ لي أقـداري ولـه أيضًـا أقـداره أو الأصـح لنـا قـدر مشـترك نختلـف في التعاطـي معـه. ولكـن يجـب ألا أكـون فظًّـا معـه، لا بـدَّ أن أراعـي فـارق السـن وحبـه إيـاي. ويجـب أن يقـدر أنـني أقـدر جمالـه الإنسـاني، ولكـني لسـت مجلوبًـا مـن طمـي النيـل ليشـكل مـني شـكلًا فخاريًّـا يزيـن بـه مجلسـه أو يتنـادى بي وسـط الأهـل! أنـا سـليمان وهـو إسـماعيل، وبلغـة مـا نحـن التقينـا في هـذه الدنيـا وفـق قوانـين ليـس وفـق خياراتنـا، لذلـك اسـتمراريتنا رهـن قدرتنـا عـلى التعايـش.

أمـا أنـه منزعـج مـن لقـب سـليمان الكافـر الـذي يهمـس بـه أهـل الحـي والمعـارف، فهـذا مـا لا أسـتطيع منعـه البتـة، بـل عليـه مجادلـة الذيـن أطلقـوا اللقـب؛ فهـم أعلـم بـه مـني، ليـس ذنبي

كونهـم يختـارون التفسـير الأسـهل الـذي يـرضي أمراضهـم.

خـرج سـليمان وهـو يشـحذ نفسـه لمناقشـة أخيـه إسـماعيل، وهـو لا يعبـأ لإنـذارات المطـر المتكـررة، خطـف الـبرق، وصوت الرعـود تذكـره بطفولتـه المشركـة كمـا يسـميها. فعندمـا تـراود الأرض السـحب لتـنزل عليهـا مـن مائهـا، لحظـة حميميـة، الأرض كصبيـة شـبقة تشـدها رغبـة دفينـة لتلتصـق بالسـحب وتنـتزع منهـا مـاءً طهـورًا ينسـكب فيهـا لتنتـشي وتخـضر. كنـا أطفـالًا نعيـش رجاءاتهـا ورغباتهـا، توسـلاتها، ننحـاز إلى مناجاتهـا مرددين:

مطرة سيدي كُبي (اهطلي) وزيدي

مطرة الله كبي ويا لا أي وغادري.

كلمـا تذكـر كيـف أنهـم كانـوا يقدمـون الأسـياد عـلى الله، يبتسـم ساخرًا.

زجْـر الفـكي حسـن لنـا عندمـا نلعـب كـرة الـشراب الـتي هـي جـوارب مليئـة بالخـرق الباليـة:

- الكرة حرام يا أبنائي.

- أنتم تلعبون برأس الحسن والحسين.

كان الأمـر مسـليًا عندمـا يلاحقنـا بالسـباب والشـتائم ونحـن لا نرتـدع.

خـرج سـليمان ليلتقـي إبراهيـم ابـن أخيـه الـذي يأمنـه عـلى أسراره، كان يمـني نفسـه أن يثـير معـه هواجسـه قبل أن يناقشـها مـع أخيـه، فطـن في أثنـاء سـيره إلى أن الوقـت والطقـس ربمـا غـير مناسـبين فليعـد أدراجـه وينتظـر قدومـه بالمـنزل.

دلـف سـليمان إلى الخلـوة ولـم تمـضِ دقائـق إلا وأخـاه إسـماعيل يصـدر حشرجـات مـن حنجرتـه، وتلـك طريقتـه في إشـعار سـليمان بأنـه قـادم لتفريـغ شـحناته الخاصـة بالعمـل. تهيـأ سـليمان الأخ الأصغـر، الفـرق بينهمـا مـن ناحيـة العمـر قـدَّره الله بسـبعة أعـوام، وكذلـك البنية الجسـمانية، فإسـماعيل رجـل قصـير القامـة أقـرب إلى السـمنة منـه إلى النحافـة، ذو ملامـح تميـل إلى الجديـة الـتي تزينهـا الرحمـة، فمنـذ أن تُـوفي والدهمـا أوكل إلى نفسـه دور الأب في تعاملـه مـع أخيـه، فاختـار لـه التعليـم عـلى أن يسـعى هـو في سـوق البلـدة يرعـى تجـارة السـمن والـبن والزنجبيـل، الـتي اختارهـا أبوهمـا بعـد أن بـاع قطيـع البقـر الـذي كان مصـدر عزتهمـا وفخرهمـا بـين الأهـل، واشـترى عوضًـا عنهـا محـلًّا متواضعًـا بالسـوق.

سـليمان نهـر شـاخ فتجـزَّر، متوسـط الطـول، ضعيـف البنيـة، شـارد الذهـن منـذ أن عـاد إلى البلـد بعـد أن أكمـل تعليمـه الجامعـي في الإنسـانيات. الحـزن لا يفارقـه، يسـكن وسـامته التي كانـت سـهامه الـتي لا تخطئ حسـان الحـي، محبًّا للعزلـة، يقضي الليـل قارئًـا وكاتبًـا، لا يبـدد صمتـه سـوى شـقيقه إسـماعيل وابن أخيـه المحبـب إلى روحـه إبراهيـم.

- مساء الخير سليمان.

«مرحبا»، أجاب وهو يعتدل في جلسته متوسطًا سريره.

يتكـون مـنزل أسرة إسـماعيل مـن ثلاثـة قطيـات، واحـدة لإسـماعيل وزوجتـه أرهيـت والأطفـال، وثانيـة مسـتودع ومطبخ، وثالثـة خلـوة وراكوبـة مـن أعـواد القصـب والحطـب تتخـذ مجلسًـا في الصبـاح أو عنـد اشـتداد الحـر.

أضـاء إسـماعيل الخلـوة بالكشـاف اليـدوي الـذي يحملـه إلى أن جلـس في الكـرسي الـذي يقابـل البـاب ليكـون سـليمان عـلى يمينـه. وبـدأ مسـيرة الحديـث بملاطفـة أخيـه.

- إيه أخبارك يا راهب؟

- هـل هـذا لقـب جديـد أطلقـوه عـليَّ بـدلًا مـن الخفـاش والكافـر والشـيوعي والمتنكـر للأهـل؟

رد إسـماعيل: كـن كمـا تريـد، ولكـن لا تنـسَ أننـا نعيـش مـع النـاس! أحيانًـا نحتـاج إلى أن نعيـش بطريقـة تكـف عنـا ألسـنتهم.. وأنـا شـخصيًّا كل الـذي أتمنـاه عليـك ألا تهمـل الصـلاة ولا بـأس أن تـأتي إلى المحـل في يـوم الجمعـة، ونذهـب معًـا إلى المسـجد الكبـير ولا تتدخـل في شـؤون رب العبـاد.

فجـأة سـمعا أصواتًـا في الحـوش، مـيَّز منهـا سـليمان صـوت إبراهيـم الـذي كان يتمـنى أن يـراه قبـل أبيـه ولكـن لـم تسـعفه الظـروف.

- هذا إبراهيم.. يبدو أنه جاء يسابق المطر.

دقائـق قليلـة جاءهمـا بعدهـا وهـو يحمـل الفانـوس ووسـادة وغطـاءً لأبيـه.

بعـد أن سلَّم روى لهمـا قصـة النسـوة ومـا جـرى بينهـنَّ وسـائق المركبـة، وأنهـنَّ الآن ضيفـات عـلى الأسرة، لذلـك - موجهًـا الـكلام إلى أبيـه - يـا حـاج مبيتـك معنـا هنـا في الخلـوة.

ردَّ أبـوه: لا بـأس يـا بـني، فقـط اطلـب لنـا العشـاء. أجـاب إبراهيـم وهـو يهـم بالانـصراف: حـاضر، ولكـن أمـي تذكركمـا أيضًـا بـأن لا تنسـيا تغطيـة الـبرواز والمـرآة لأن المطـر ينـوي الهطـول.

- لا عليـك، لا توجـد أمطـار اليـوم، فـلا توجـد سـحب ناحيـة القبلـة.

اسـتغل سـليمان الفرصـة ليذهـب بالحديـث بعيـدًا عـن صـلاة الجمعـة وفكـرة الظهـور إلى النـاس في المسـجد الكبـير: إن في إبراهيـم خصـالًا مـن جـده عليـه الرحمـة، وبالـذات حبـه أهلَنـا.

إسـماعيل مؤكـدًا مـا ذهـب إليـه أخـوه ومضيفًـا أن والدهـم أيضًـا كان فطنًـا في السـوق.

- اختيـار والدنـا تجـارةَ السـمن والعسـل لـم تكـن مـن فـراغ، فإنهـا تقيـه شرور السـوق والهيمنـة والاحتـكار، لأن السـمن بيجـي السـوق مـن جماعتنـا يبيعـوا لنـا ويشـتروا بثمنـه سـكر

وبـن وزنجبيـل. ودي بضاعـة لا يمكـن أن يؤمنهـا دون أن يحتكـر هـو زبونهـا، فنحـن نحتكـر أهلنـا.

وهنا علق سليمان: توظيف رأس المال الاجتماعي في السوق.

- بمعنى؟

رد سليمان: الأهل عز وسند.

أكمـل إسـماعيل: الحمـد لله.. حـتى البضاعـة الـتي لا نمتلكهـا نشـير إليهـم بالتاجـر الـذي يجـب أن يتعاملـوا معـه، بـل أحيانًـا نذهـب معهـم إلى التاجـر المعـني لنفاصـل لهـم في الأسـعار، وكـدا نحقـق أهـداف كثـيرة، التسـهيل للأهـل، حمايتهـم مـن جشـع السـوق، وتحسـين العلاقـات مـع التجـار، حـتى نـاس قبائـل أمـبررو الرحـل يفضلـون أن يبيعـوا ويشـتروا مـن خلالنـا، ولهـذا عُـرِفَ محلنـا بمحـل الرطانـة.

دخـل إبراهيـم حاملًا صينيـة العشـاء يتوسـطها صحـن عصيـدة مـن دقيـق الـذرة، سـاخنة مسـكوبًا عليهـا حليـب رائـب، ويحـب إسـماعيل أن يطلـق عليهـا الاسـم البجـاوي مـع عبـارة تنـم عـن رضـا (أووو... إكلـت).

سـخونة الوجبـة ونسـائم الليـل الـتي داعبـت البلـدة لـم تـترك مجـالا للحديـث في أثنـاء تناولهـا، فالصمـت غطـى المـكان إلا من صـوت الحليـب الرائـب عندمـا يبلـغ الأفـواه لتسـحبه بشـهيق ولـذة. عـدا إبراهيـم كان غارقًـا في أحـداث مسـائه الـذي بـدأ

بالـتركي الباحـث في الـتراث العثمـاني، والضيـوف الذيـن تحـول لسـانهم ولغتهـم إلى إعاقـة، وألحـان النـدم والصفـح عنـد البجـا. وفجـأة قفـز سـؤال إلى ذهـن إبراهيـم كـسر بـه الصمـت:

- لماذا باع جدي البقر؟

أجـاب إسـماعيل بـلا تفكـير أو تـردد، وكأن الإجابـة كانـت ترصـد حركـة سـؤال إبراهيـم في ذهنـه: لأنـه كـبر في السـن، ونحـن كنـا صغـارًا لا حـول لنـا ولا قـوة، ولأن عمـه محمـود لـم يكـن قـادرًا عـلى متابعـة شـؤونها بمفـرده.

يعلـم سـليمان أن تلـك الإجابـة لا تحمـل مـن الحقيقـة غـير أن البقـر بيعـت، لكنهـا مريحـة لإسـماعيل. لذلـك يحفظهـا عـن ظهـر قلبـه. إبراهيـم لـن يجـادل أبـاه، وإن كان في قـرارة نفسـه سـيرعى سـؤاله حـتى يجـد لـه إجابـة منطقيـة. لا شيء يحمـل سـليمان عـلى حـب ابـن أخيـه غـير تلـك الأسـئلة المباغتـة، فمـن أسـئلته يجـد تفسـيرًا منطقيًّـا لرؤيتـه للدنيـا.

أمـر إسـماعيل ابنـه بـأن يعـود سريعًـا بعـد أن يرجـع أواني العشـاء إلى أمـه، لأنـه يـود أن يصـلي معـه صـلاة العشـاء وبعدهـا يخلـدان إلى النـوم. صـلى إبراهيـم وأبـوه وأوى كل إلى فراشـه، نـام إسـماعيل مـلء جفونـه، تـاركًا إبراهيـم يعيـد شريـط لقائـه مـع القـدر الـتركي الـذي صـبَّ غضبًـا عـلى المدينـة وكأنهـا أخلفـت معـه موعـدًا. يُحـدِّث نفسـه ربمـا غضـب الـتركي لأنـه لـم يجـد مـا يتفاخـر بـه كصاحـب فضـل عـلى السـودان، لا

بـأس إذا كان الثبـات عـلى التخلـف فيـه انتصـار عـلى المسـتعمر. إنمـا هـل الدولـة العثمانيـة اسـتعمار؟ تمـنَّى إبراهيـم أنـه لـم يـأتِ بهـؤلاء النسـوة، لأن وجـود والـده معهـم بالخلـوة أفسـد عليـه مجالسـة عمـه سـليمان الـذي يملـك مفاتيـح المعرفـة في حياتـه.

سـليمان الـذي لا يملـك غـير العيـش في سـكون الليـل، وإن بـدا أنـه في تلـك الليلـة سـيقضيها متأمـلًا لا يجـرؤ عـلى تـرك الفانـوس مضيئًـا كعادتـه الـتي تكيـف معهـا إبراهيـم وقـد لا يحتـاج إليهـا، فلديـه سـؤال إبراهيـم الـذي قـذف بـه، وصـلاة الجمعـة الـتي يلـح عليـه إسـماعيل لحضورهـا. لـن يسـتوعب معهـا إسـماعيل أي إجابـة، فهـو يعلـم أن كل مـا يحتـاج إليـه أخـوه إسـكات النـاس منـه، وبالـذات الجماعـة- وإن كان ليـس عضـوًا معهـم، لكنـه يأتمنهـم عـلى دينـه.

ظـلَّ سـليمان كعادتـه يجـادل الليـل، ويبثـه الشـكوى و يتحـسر عـلى (إيـرات) الصبيـة الـتي رأى منهـا جـذع نهدهـا مـن فتحـة في قميصهـا بـين إبطهـا ونهايـات صدرهـا. وحيائهـا الـذي تدفـق وغمـر الأرض وأزهـر، صبيـة ظهـرت في حياتـه كـبرق واعـد لا يتكـرر، لحظـة اسـتجابة سـماوية انشـغل عنهـا بـسراب الأرض. فتـاة مـن أهلـه وإن كانـت بدويـة انطبعـت في ركـن قـصي مـن ذاكرتـه، أغفلتهـا رغبـة في التعليـم والتمـدن ظلـت ذكراهـا تطـارده كاللعنـات

كان ينـازل بنهدهـا كل زملائـه في الجامعـة، في أمسـياتهم الباهجـة برحيـق الملـذات، والنشـوة تدغـدغ الشـعور وتثقـل الألسـن، يقـف ممشـوقًا بينهـم ويلـوح بيديـه الفارغتـين مناديًـا:

- إيـرات امـرأة لـن تـأتي أبـدًا لـن تتكـرر، بـرق لاح في سـمائي وغـاب، لـو رآهـا مـن قـال:

رأيت صبايا فارس

يغسلن النهد بماء الصبح

وينتفض النهد كرأس القط

أموت بنهد يحكم أكثر من كسرى في الليل

لـو رآهـا لغـيَّر مجـرى الشـعر مـن بـلاد فـارس والعـراق إلى سـهول البجـا ووديانهـا.. وأن كل الشـعراء لـن تنقذهـم بحـور الخليـل لرسـم (إيـرات) في نـص. منـا إيـرات بشـعرها الفاحـم المرسـل يغـازل خصرهـا، وأنوثتهـا المتدفقـة ونسـأل مـن نحـن؟ مـن المرحلـة الابتدائيـة وأظفارنـا ناعمـة إلى الجامعـة. نسـأل مـن نحـن؟

منادمة الليل عند سليمان متعة لا تعادلها صحبة كل الأخيار.

يحتضـن الليـل لتفسـير الحيـاة، يحسـب أن لـولا الليـل لهلـك النـاس، قيامـه في الديـن منجـاة وأجـر عظيـم. لكـن النـاس

يعبدون مشيئة السائد، الذي يحتكر النهار، يمارس جبروته وطغيانه، يرهب العقول، يوهم البسطاء بأن الله خلقه في أحسن تقويم، وأنهم مأمورون بطاعته.

يطلب لنفسه:

أما أنا وكل ما أحمل أطلب من أهل النهار يعينوني ببعدهم عني. فليذهب التقدميون إلى الجحيم. عبَّأوا حناجرهم بشعارات مثالية وألسنتهم بلغة محنطة، صادروا بها كل الحقائق. رجموا مكونات الناس بالرجعية. قسَّموا الإنسانية إلى قطيعين واختاروا لأنفسهم القطيع المتقدم وجعلوا إيرات رجعية، وكم كنت ساذجًا عندما صدقت أكاذيبهم.

الكل يطلب منك أن تقتل إيرات، الكل ضد إيرات، يزعمون أنها تعيقهم وأن النماء لا يحتمل طريقتها في الحياة، صادروا إيرات قالوا الشغف بها جاهلية لا تغتفر، لا يعلمون أن إيرات تصلي وتصوم ولا تقطع ما أمر الله به أن يوصل.

إسماعيل أخي يغرق ابنه في وهن أبي إذا سأله عن البقر التي باعها أبي. وقبض الثمن إيمانًا واحتسابًا، عندما أبلغته الحكومة أن مشاريع الزراعة الآلية ليست مكانًا تأكل منه البقر. لم يسأل ما هي الزراعة الآلية ومتى ولدت؟ لم يسأل ما هي الزراعة الآلية وما اسم قبيلتها؟ بل بادر قائلًا الله كريم وباع بقره. أخذ محمود أخوه نصيبه من البقر وانحسر في خور بركة، فحصدته وبقره قذائف الإثيوبيين، لم

يعتـذروا لـه بأنهـم كانـوا يرمـون الثـورة الإريتريـة. بـل أدانـه الباغـي بجريمـة إطعـام القبيلـة. وأنـا بعـت إيـرات في منابـر لا تملـك مـن حطـام الدنيـا غـير لغـة خشـبية تسـد بهـا رغبـات الجيـاع ضعفـت لهجـتي وغـاب نهدهـا بـين المنابـر.

صمـت... وهـدوء... يسـيطر عـلى المـنزل والفانـوس منطفـئ عـلى غـير العـادة، فمشـاركة إسـماعيل لهمـا المبيـت في الخلـوة لـم تـترك لسـليمان غـير أن يهيـم بفكـره بـين مخطوطاتـه المؤجلـة لقلـة المراجـع، وتلـك الـتي بلـغ منتصفهـا.

يتقاطـر إلى سـمعه صـوت أذان الصبـح الأول الـذي يعـرف في المدينـة بالمنبـه، أقـرب المسـاجد إلى الحـي يبعـد ثلاثـة أميـال يأتيـه الصـوت عـبر المكـبر متقطعًـا.

يتحـرك إسـماعيل في فراشـه، يسـلط ضـوء كشـافه عـلى سـاعته بعـد أن أخرجهـا مـن تحـت الوسـادة، يغفـو مجـددًا. يلتقـط سـليمان السـانحة، يغـادر فراشـه راغبًـا في الحمـام، عـلى صـوت حركتـه يسـتيقظ إسـماعيل يناولـه الكشـاف ويطلـب منـه أن يوقـظ أم إبراهيـم، حـتى يتسـنى لهـا تجهـيز مـا يسـد رمـق النسـاء، انطلـق أذان الصبـح الثـاني وهـو يـردد «الصـلاة خـير مـن النـوم.. الصـلاة خـير مـن النـوم».

قفـز إسـماعيل مـن فراشـه وهـو ينـادي إبراهيـم، أخـذ إبريـق المـاء وذهـب إلى الحمـام الـذي يقـع في ركـن الـدار، تجمَّـر وعـاد، جلـس عـلى عتبـة الخلـوة يتوضـأ ومـا زال إبراهيـم عـلى

فراشـه، صـاح مجـددًا: العـن الشـيطان يـا ولـد إبراهيـم وقـم إلى الصـلاة.

إبراهيـم: لا أسـتطيع، لا بـدَّ أن أغتسـل، والسـقَّا لـن يـأتي بالمـاء قبل السـابعة.

أذعن إسماعيل لظرف ابنه، واستقبل القبلة وكبر.

فرغ من الصلاة، وأعاد النداء: يا إبراهيم.

أجاب: نعم.

وقبـل أن يعيـد الحديـث جـاءت أم إبراهيـم بالشـاي وقطعـة مـن الخـبز المحمـص، وعليهـا مسـحة مـن السـمن البلـدي.

- (كفو اتميكم أبو إبراهيم) أي كيف أصبحتم؟

- الحمد لله، هل النساء جاهزات؟

- بعد قليل إن شاء الله، هل تريد أن تشرب بنًّا؟

- لا داعـي.. سـأتناولها في السـوق.. أخـبري النسـوة سـوف أكـون بانتظارهـن عنـد البـاب بعـد عشريـن دقيقـة.

صبحًـا غائمًـا ككل صباحـات موسـم الأمطـار، والسـماء مـا زالـت تتحـرش بهـا الأرض لتسـكب فيهـا مـن مائهـا. وقـف إسـماعيل في الشـارع أمـام بـاب المـنزل وهـو يلـف عمامتـه عـلى رأسـه، ويـرد التحايـا عـلى المـارة الذيـن بـدأوا في الخـروج إلى العمـل كل

قاصد جهته. سكان الحي يعملون بالمخابز والمطاعم، أو يصنعون الشاي والقهوة في السوق، وبعض النساء يعملن في بيوت كبار الموظفين والميسورين من سكان المدينة، وقليلون ما زال لديهم بلدات أي قطعة أرض صغيرة يزرعونها، يحملون أدوات زراعة تقليدية من منجل وسلوكة، وهي أشبه بالحربة، يغرسها في الأرض ويلقي حب الذرة الرفيعة أو لينظف بالمنجل الأرض من الحشائش الضارة. أو صبية استيقظوا باكرًا لخلق تماثيل من الطين وأحزنهم الصبح أنها لم تهطل بعد.

خرجت النسوة، اتجه الجميع ناحية محطة البرينسة، كان العدد كافيًا، إسماعيل والنساء أربعة إضافة إلى العدد الذي كان في البرينسة ليكتمل النصاب اثنى عشر راكبًا. أما الأطفال فعليهم الوقوف أمام ذويهم. انطلق السائق ناحية السوق وهو يشير إلى الواقفين في انتظار المواصلات على طول الطريق بيديه معتذرًا أن لا مكان في العربة.

المسافة من الحي إلى سوق المدينة بلا توقف بالمواصلات لا تحتاج إلى أكثر من خمس عشرة دقيقة.

نادي الإصلاح الرياضي، يجاور المحطة الأولى في السوق، المعروفة بمحطة الحفرة، قبل بلوغها بأربعمائة متر أخرج إسماعيل من جيبه عملة معدنية، وقرع بها على الممسك الذي يتوسط الركاب، إشارة تعارَف عليها الجميع ليتوقف السائق في المحطة التالية.

نـزل إسـماعيل والنسـوة، أخـرج إسـماعيل مـن جيبـه أجـرة المواصـلات وذهـب إلى السـائق ودفـع إليـه القيمـة المطلوبـة، هكـذا يكـون التعامـل بـين السـائق والـركاب في الصبـاح لعـدم وجـود المتحصـل أو المسـاعد كمـا يسـمى، الـذي يـزاول عملـه عنـد السـابعة صباحًـا.

عـبروا خـلال الكنيسـة القبطيـة والنـادي إلى موقـف دوكـة، الـذي تتجمـع فيـه اللـواري القادمـة مـن ضواحـي المدينـة والحافـلات المتجهـة إلى بلـدة خشـم القربـة والشـواك، ومدينـة كسـلا وقلـع النحـل والحواتـة وكل مـدن وقـرى شرق السـودان.

تقـف كل المركبـات بـكل أحجامهـا، وحمولاتهـا، عـلى أرض ترابيـة، مـلأى بمخلفـات الزيـوت، وكثـيرًا منهـم يـترك المحـرك في وضعيـة التشـغيل، البعـض بغـرض تسـخين ماكينـة المركبـة، والآخـر لأنـه لا يضمـن تحريكهـا مجـددًا.

الصيـاح مـن كل جانـب، الباعـة المتجولـون، وكلاء الحافـلات السـفرية ينـادون عـلى الـركاب، رجـال الأمـن والمباحـث يتعمَّـدون إظهـار مقابـض مسدسـاتهم وهـم يرمقـون النـاس بنظـرات فاحصـة.

أشـار إسـماعيل إلى النسـاء بالانتظـار في مـكان مـا في وسـط هـذا الضجيـج، وذهـب إلى نافـذة مكتـب التذاكـر وحجـز لهـم مقاعـد عـلى حافلـة عـلى أهبـة الانطـلاق، أخـذن مقاعدهـنَّ، تحـدث إلى السـائق بأنهـنَّ قاصـدات مستشـفى الخواجـات

المعـروف، وطلـب منـه بعـد وصولهـن فقـط أن يشـير إليهـنَّ باتجـاه المستشـفى.

ودَّع إسـماعيل النسـاء وانطلـق ناحيـة سـوق العياشـة، فالوقـت مـا زال باكـرًا فبمقـدوره أن يتنـاول قهوتـه قبـل أن يفتتـح يومـه، منتصـف الطريـق، تـراءى لـه أن السـحب جمعـت لهـم، وأن الأمطـار الـتي تمنعـت في الليـل يبـدو أنهـا كانـت تدخـر حمولتهـا لنهـار اليـوم، فعـدل عـن رأيـه وآثـر ارتشـافها في دكانـه.

لـم تخيـب السـماء ظـن إسـماعيل، فمـا إن وصـل إلى محلـه وفتـح الأبـواب، حـتى بـدأت السـماء ترسـل المطـر عـلى دفعـات متتابعـات، تسـتمر إلى أكـثر مـن ربـع السـاعة، تتوقـف قليـلًا، ثـم تبـدأ في الهطـول مجـددًا، تتوقـف، تعـاود الهطـول.

بعـد نحـو أربع سـاعات مـن الهطـول خرج النـاس مـن محالهم، بـدأت حركـة السـوق، وقـف إسـماعيل أمـام محلـه لينـادي بائـع الـبن، لـم يصـدق عينيـه، أرجـع البـصر مـرة أخـرى، أيقـن أن الـتي أمامـه هـي بذاتهـا، اقـترب منهـا مناديًـا:

- ولـت سـب... ولـت سـب؛ أي يـا بنـت الرجـال.. يـا بنـت الرجـال.

توقفت المرأة والتفتت ناحية الصوت.

- أنا أبو إبراهيم!

نعـم عرفتـك مـن صوتـك ولكـني لـم أصـدق أنهـا سـوف تفـرج

ثانيـة وعـلى يدكـم.

كانـت المـرأة إحـدى النسـاء الـلائي يفـترض أنهـن الآن في بلـدة خشـم القربـة في مستشـفى الخواجـات.

- لمـاذا لـم تسـافرن؟ بلغـة التقـري البجاويـة والدهشـة لـم تـترك خليـة في وجهـه إلا وارتسـمت عليهـا.

أجابـت بإحبـاط ونفـس مكسـورة: بعـد أن غادرتنـا هـذا الصباح، صعـد إلى المركبـة شـخص لا يرتـدي زيًّـا عسـكريًّا، ولكنـه يضـع في خاصرتـه سـلاحًا، وتقـدم نحونـا ولـم نفهـم مـاذا يريـد منـا، وفجـأة طلبـوا منـا الـنزول وصعـد في مقاعدنـا أنـاس آخـرون.

لـم يكـن إسـماعيل في حاجـة إلى المزيـد، ففهـم أنهـم جوبهـوا بالسـؤال السـخيف الـذي يكفـي أن تكـون رطانيًّـا ليلاحقـك.

- وأين البقية الآن؟

- تركتهـنَّ بعـد أن هطـل المطـر عـلى رؤوسـنا ولـم نجـد ملتجـأً منهـا، والأطفـال وضعهـم سـيئ جـدًّا، بالـذات المريـض، فدرجـة حرارتـه بلغـت حـدًّا لا يحتمـل.. وأنـا ذاهبـة لأشـتري بعـض الطماطـم ورغيـف خـبز نأكلـه حـتى يفرجهـا الحنَّـان المنَّـان.

تـرك إسـماعيل المـرأة واتجـه إلى دكانـه معتـذرًا لبعـض الزبائـن الذيـن كانـوا في انتظـاره، بأنـه سـيغلق الـدكان لأمـر طـارئ. أغلـق الأبـواب عـلى عجـل دون أن يجيـب عـن أسـئلة أصحـاب

المحـلات المجـاورة.

تحـرك إسـماعيل نحـو موقـف الحافـلات، لـم ينـسَ إبـلاغ مـوسى بائـع الـبن بمـا جـرى وأنـه ذاهـب لاسـتجلاء الأمـر.

كان الطفـل المريـض يرتجـف مـن هامـة رأسـه إلى أخمـص قدميـه، مبتـلًّا بالمـاء، أشـبه بمخلـوق مـائي بـدأ يلفـظ أنفاسـه عـلى اليابسـة، وكلمـا سُـقِيَ شـيئًا تقيَّـأه مجـددًا، حملـه بذراعيـه وبـدأ يركـض بـه صـوب المستشـفى الـذي يقـع شـمال غـرب السـوق. المسـافة ليسـت ببعيـدة، ولكـن الطـين والبلـل الـذي خلفتـه أمطـار الصبـاح الغزيـرة يوجـب الحـذر في أثنـاء المسـير، لذلـك كان إسـماعيل كبهلـوان السـيرك يركـض ويسـير ويمـشي كل في آن. والنسـاء مـن خلفـه تفصلـه عنهـنَّ مئـات الأمتـار، لا يقـف إلا عنـد المنعطفـات يشـير لهـنَّ إلى وجهتـه.

عنـد العيـادة الخارجيـة، حيـث يُسـتقبَل المـرضى في حالاتهـم الطارئـة، كان الجـو مثـالًا للبـؤس، فالروائـح الكريهـة وعفـن الجـروح، وعمـال المشـاريع بعضهـم يتلـوَّى ويتقيـأ مـن سـموم ثعبـان لدغـه في المـشروع، وآخـر يـئن مـن التيفويـد أو مـرض الـكالازار الـذي يـؤدي إلى انتفـاخ البطـن.

لاحـظ إسـماعيل أن الموظـف المسـؤول عـن إدخـال المـرضى غـير موجـود في مكانـه المعتـاد، وليـس هنـاك مـا يـشي بـأن مكتـب الطبيـب بـه حركـة، لا دخـول إليـه أو خـروج منـه. تلفَّـت يمنـة ويـسرة، أدرك أحـد مرافقـي المـرضى سـؤاله، فتـبرع لـه

بإجابـة:

- نحـن هنـا منـذ أكـثر مـن سـاعة ولـم نـر شـخصًا لنطـرح عليـه سؤالًا!

ذهـب إسـماعيل في كل ناحيـة كهاجـر الظمـأى ووليدهـا البـاكي، بحثًـا عـن أي شـخص يفيـده بمعـنى لهـذا الصمـت، أشـار إليـه أحدهـم بالموظـف المسـؤول عـن إدخـال المـرضى. كان يقـف مـع شـخصين يبـدو أنهمـا مـن معارفـه.

ألقـى إسـماعيل بالتحيـة السـلام عليكـم ولـم ينتظـر ردًّا موجهًـا حديثـه للموظـف: الدكتـور المنـاوب ويـن؟

أجابه باقتضاب: الدكتور المناوب في اجتماع.

اسـتهجن إسـماعيل الـرد وقـال معلقًـا: المناوبـة والاجتمـاع زي جمـع الرجـل بـين أختـين!

رد الرجل بحدة: ما قصدك؟

- أقصـد يـا ابـني أن الطبيـب المنـاوب إذا حـضر اجتماعًـا معناهـا أن المناوبـة سـقطت عنـه تكليفًـا، وإذا كُلِّـفَ بالمناوبـة لا يسـتقيم تكليفـه بالاجتمـاع.. مـش كـدا برضـه؟

هنـا أُسـقِط في يـد الموظـف وأجـاب: بصراحـة يـا عمنـا الله يعظـم الأجـر؛ الدكتـور ذهـب لأداء العـزاء في وفـاة شـقيق حـاج أحمـد التاجـر المعـروف، أظنهـم مـن بلـد واحـد.

رد إسماعيل: أتمنى أن يعزي حاج أحمد الطبيب في هؤلاء المرضى ردًّا للواجب.

انصرف إسماعيل ولا حيلة له، كلما نظر إلى الطفل وواقع كل المرضى يتمنى أن تميد الأرض بالمدينة وأهلها، حتى يرتاح الجميع من هذا العناء.

فجأة تذكر عبد الله الممرض، نهض من مكانه وأسرع إلى غرفة الممرضين، ومن محاسن الصدف كان أول شخص تلتقيه عينا إسماعيل هو عبد الله. حيَّاه بحرارة وبدأ إسماعيل مباشرة بالدخول في الموضوع.

رافقه الممرض إلى حيث الطفل، وجده ممددًا ساكنًا، جففت الحمى ثيابه، كأنه وفمه المفتوح حَمَلٌ تاه في قلب الصحراء، يسأل السماء قطرة.

تحدث الممرض إلى إسماعيل قائلًا: لا أمل لنا إلا في استراحة الأطباء، ربما نجد دكتور عبد المجيد فهو شاب على خلق.

أسرع عبد الله الخطى ناحية الاستراحة، وقبل أن يصل إليها رأى دكتور عبد المجيد قادمًا نحوه. فرح بتلك المصادفة.

لم يخذل دكتور عبد المجيد الممرض عبد الله، فهبَّ مسرعًا ناحية العيادة الخارجية التي بلغوها في زمن قياسي، ولكن يد الله كانت أسرع؛ وجدوا أن الطفل قد فارق الحياة.

حضر موسى بائع البن إلى المستشفى ومعه مجموعة من

الرجـال الذيـن بلغهـم مـا حـدث، تشـاوروا فيمـا بينهـم، أن الأرض مـا زالـت مبتلـة واللـواري إلى الحواتـة لـن تتحـرك قبـل أن تجـف الأرض قليـلًا.

تحـدث إسـماعيل بصـوت مـلأه الحـزن بـأن الممـرض عبـد الله أمَّـن لهـم موضعًـا في ثلاجـة حفـظ المـوتى حـتى صبـاح الغـد.

قـرر الجميـع أن مـوسى عليـه أخـذ النسـاء إلى بيتـه بـدلًا مـن إسـماعيل، وأن لقياهـم غـدًا في دكان إسـماعيل بعـد أن حُـدِّدَ مبلـغ مـن المـال وكُلِّـفَ عـدد الرجـال إلى الحواتـة، مـع إعفـاء إسـماعيل مـن إغـلاق دكانـه مجـددًا.

فصل

أحيانًا أسأل نفسي عن الرحمة، رحمة ربنا، هل هي واسعة لدرجة أننا نعمل أشياءَ وننـدم جـدًّا بعد ما نعملها مباشرة، لكن بعد مدة من الزمن نعيدها ثانية. أنا أشرب في الليل وأدندن، ومع صلاة الصبح أبدأ بالندم، يا ربي اغفر لي، بعد ساعة أبدأ برنامج السيجارة الخاصة، وإن كان ضميري فيها يختلف عن الشراب. اليوم الثاني أكرر البرنامج نفسه وأقول رحمة ربنا واسعة.

أنا الأمين الملقب بود بال عاي، لقبي موروث من جد بعيد، من زمن الغبار، وزمن الغبار زمن كان قبل البحار ما تنشق، زمن كانت الدنيا يابسة، فالإعصار يبدأ من الهند يصل إلى شرق إفريقيا دون عناء. وأهلنا يعتقدون أن لسان التقري جزء منه كان في الصحراء، يتحرك مع الغبار. ووقت البحر الأحمر ظهر بقي هناك وأصبح لغة عربية، ودليلهم على ذلك مفردات قرآنية كثيرة موجودة في التقري. والآشوريون قالوا نحن أبناء عمومتهم من أولاد نوح. الإذاعات في الليل تقول كلامًا كثيرًا.

اللقـب كمـا ذكـرت متصـل بجدنـا القديـم، ومعنـاه الأكـول أو السـحار أو المتوحـش أو النصـاب المحتـال. لا أعلـم أي المعاني كان جـدي. لكـن أنـا واثـق إذا جدنـا البعيـد كان نبيًّـا أو حكيمًـا كان لا بـدَّ أن أقسـم بـالله، وأتعـب عشـان أقنـع أي إنسـان، لكـن مـا دام كان واحـدة مـن الصفـات السـابقة فأنـا صـادق.

ويبـدو أن جدنـا القديـم كان مشـغولًا بأشـياء أتوقـع مـن ضمنها البقـر، فـورث الأبنـاء والأحفـاد وأحفـاد الأحفـاد وكل السـلالة، بقـرًا وهمومًـا كثـيرة، وأعتقـد عندمـا انتهـوا منهـا أو أهملوهـا، وجـدوا أن النـاس كلهـا انتسـبت إلى الأخيـار والصالحـين والأنبيـاء، ولـم يجـدوا إلا واحـدًا شـوهد قبـل الإسـلام في مكـة لـم يكـن ضمـن الأوائـل الذيـن عذَّبتهـم قريـش، ولـم يكـن أيضًـا مـن الذيـن عذبـوا الأوائـل. إذا غـاب لا يُفتقَـد وإذا حـضر لا يُستشـار. وشـوهد مـرة أخـرى بعـد الإسـلام منهمكًا في تزويـر الأحاديـث، مـن كبـار دار الـضرب. فقـرر أجدادنـا التمسـك ببـال عـاي. وناس الدنيـا ذاكرتهـم قويـة في حفـظ المسـاوئ. فبعـض الخبثـاء في سـوق المدينـة يدعونـني بالعـاي أي أنـا صاحـب المعـاني الخالـدة ليـس جـدي القديـم.

بعـد أن اتخـذت قـراري الحكيـم بـترك المدرسـة مـن الصـف السـادس الابتـدائي، بسـبب سـوط العنـج، وهـو عصـب البهائـم مدهـون بالقطـران، إذا وصلـت المدرسـة متأخـرًا تُجلَـد بالسـوط، وإذا غبـت تُجلَـد، إن كان مسـتواك الـدراسي ضعيفًـا تُجلَـد يوميًّـا. والعنـج اسـم لشـعب مملكـة سـوبا، وهـم قبائـل

البازيـن، فقـدوا سـلطانهم بعـد ظهـور مملكـة سـنار. بلادهـم سـكنتها قبائـل أخـرى وأسـموها البطانـة، والسـوط أعتقـد ظهـر مـع تجـارة الرقيـق.

بعدمـا تركـت المدرسـة والحمـد لله شـهدت حيـاتي نجاحـات متواصلـة، فأنـا موفـور الصحـة والعافيـة دائمًـا، أرتـدي جلابيـة كلينكـس بيضـاء يعـرف بهـا لـون الحليـب، وخاتـم ذهـب عيـار واحـد وعشريـن، وأغـير البيـك آب سـيارة كل سـنتين.

النـاس في المدينـة هـم أثريـاء أغبيـاء، وفقـراء أغبيـاء، يشـتركون في الاختلافـات نفسـها، هـذا هـو الفـرق بينهـم!! ولكنهـم يعتقـدون أن الفـرق في ألوانهـم وقبائلهـم. والتنـوع الـذي أراه أنواعًـا في درجـة الغبـاء. ولـكل غبـاء فـروع.

نـاس حمَّـد حِفُـون هـم الجماعـة الـتي هاجـرت مـن شـمال السـودان والجزيـرة، أو بشـكل أدق الذيـن لا يملكـون لغـة خاصـةً بهـم، ويتحدثـون العربيـة السـودانية الـتي نمـت في الوسـط والشـمال. وورثـوا البلـد مـن الاسـتعمار دون حـرب.. عـدا المـوت الـذي حـدث في مدينـة أم درمـان بعـد الاسـتقلال مبـاشرة مـن أجـل المهـدي والميرغـني.

محمـد أحمـد المهـدي رجـل مـن الشـمال هاجـر إلى غـرب السـودان، قبـل مائـة عـام، حـارب القبائـل والأجانـب، مـن وقـف معـه أَمِـنَ، لا يعـرف الحيـاد الصامـت ولا يتحـرك، فهـو مـع الأجانـب. قسَّـم البلـد حسـب خـيرات النـاس، القبائـل

المستقرة حسب موقفها من الحرب، ومناطق القبائل الرعوية غنائم، وحاليًّا الناس في الأراضي سمُّوها حيازة. زي البنقو السكران بالريحة والبنقو حيازة.

الميرغني الكبير دخل البلاد من الحجاز، بعد أن اختلف مع محمد بن عبد الوهاب. كان الأتراك في البلد، والإمام المهدي بدأ يتحرك، وقيل إن الخليفة عبد الله التعايشي حرَّض محمد أحمد حتى يدعي أنه المهدي المنتظر، وكان يتمنى أن يصل إلى مكة المكرمة.

هجرة ناس حمد حفون إلى ربوع السودان سبب كل المشكلات؛ المهاجرون ينقلون كلامًا غير صحيح لأهلهم في بلادهم ويغرونهم بالهجرة. المسؤول الحكومي يأتي من الخرطوم يلتقي أبناءَ أهله المهاجرين ويرجع. الشاعر يعمل الشيء نفسه.

أهلي البجا قبائل وألسن وهم السكان الأصليون لكل شرق السودان، من قبل ميلاد سيدنا عيسى. البلد ما كان فيه غيرهم وقبلهم كانت القبائل النيلية. والقضارف قبل أن تكون مدينة تركية كانت مناطق رعيهم. والموجودون هنا معظمنا نتحدث بلسان التقري، وبيننا من يتكلم أكثر من لغة، وتعلمنا العربية في المدارس والسوق. نحن أولاد عد، ومعناها أولاد بلد، ومعناها أيضًا أولاد أهل.

الرطانة هي الهزر غير المفهوم، ويقال إنها لغة الطير،

وأي إنسان لا يتكلم العربية ناس حمد حفون يدعونه رطاني.

حمد حفون بلسان التقري معناها الانفعالي أو العاطفي، وحمد اسم شائع وسط المهاجرين من النيل إلى بلاد البجا.

أمتلك بيتًا في مساحة ثمانمائة متر مربع، ورثته عن أبي، وقطيعًا من البقر بعتهم في أيام العزاء، بعد دفن الوالد مباشرة. لا أقدر على ملاحقته ومتابعة أكله وشربه وتعليفه بمخلفات عصر محصول السمسم الذي نطلق عليه اسم أمباز.

كان أبي محبًّا للبساتين، لذلك أستطيع القول إني ورثت روضة في بلد تعد البستنة والاهتمام بالزراعة المنزلية لغرض الزينة دعوة صريحة للبعوضة، ولكن البعوضة لديَّ أقل من الأحياء الثانية. عندما شعر أبي باقتراب الموت، استعد لملاقاة رب العباد بأن زوَّجني من بنت أخيه؛ أمسك بأيادينا، وتزوجت رغبته وأمنيته.

أنا أعيش في مدينة لا يمكن العيش فيها بالطريقة الحالية، أمامي خياران؛ غني وغبي أو فقير وغبي، لذلك لا أسأل نفسي ما مهنتي أو إلى أي فريق منهم أنتمي، أنا صاحب برنامج.

بداية اليوم تصحو أمنية وهي زوجتي، اسمها الحقيقي عبيت، وأناديها أمنية، لأنها أمنية الوالد عليه الرحمة، نصلي الصبح حاضرًا، وتبدأ هي بإعداد البن وأحيانًا بالخطأ أقول لها الجبنة، تتضايق وتقول لي أنت حمد حفون، لأن

أهلنـا يقولـون بـون.

مـع البن أكـون عملـت سـيجارة بنقـو واحـدة معجونة بالعسـل، تعـرف بسـيجارة جوبـا، وبعدهـا عصيـدة قمـح تـارة بالحليـب الرائـب ومـرة بالسـمن البلـدي والعسـل وأنا أتنقـل بـين الإذاعات أسـمع القسـم العـربي في هيئـة الإذاعـة البريطانيـة، وبعدهـا أكـون لبسـت واحـدة مـن الجلاليـب ووضعـت عطـر صنـدل خلـف أذني. وشـغلت البيـك آب ولـديَّ مـن أشرطـة الفنانـين الكبـار عـدد كبـير، والمقلديـن الجيديـن أيضًـا، وعـادة السـاعة ثمانيـة صباحًـا أكـون في السـوق.

الطبـل عنـد أهلنـا اسـمه كـبرو، ونـاس حمـد حفـون يقولـون دلوكـة. وتوجـد آلـة وتريـة هـي صحـن مغطى بجلـد، موصـول بحوافـه عـودان طـول كل واحـد ذراع، متصـلان ببعضهمـا في النهايـة الثانيـة بعـود عـرضي. مثبتـة فيـه أوتـار تنتهـي في الصحـن. أهلنـا يسـمونها مسـنقو، ونـاس حمـد حفـون يسـموها طمبـور، وفي اسـم ثالـث ربابـة، هـل هـو تابـع لنـاس حمـد حفـون؟ الله أعلـم. تابـع لأهلنـا؟ الله أعلـم.

أحيانًا نحن في المدينة نقول الله أعلم ونقصد لا.

اختـلاف اسـم الـشيء الواحـد هـو سـبب كل المصائـب، أنـا شـخصيًّا أشـيائي الخاصـة جـدًّا أحـب أسـماءها تكـون غـير منتـشرة إلا مـع الحبايـب. لأني صاحـب برنامـج.

الجماعـة الفلاتـة قبيلـة إفريقيـة كبـيرة وأنـا أعتقـد أنهـا طويلـة،

تبـدأ مـن مـكان في إفريقيـا وتنتهـي في الحجـاز. لديهـم عالـم خـاص، يصومـون في يـوم خـاص، يفطـرون في يـوم خـاص، ويحافظـون عـلى لسـانهم الخـاص. أهلنـا بيفتكـروا إنهـم عـلى اتفـاق مـع حمـد حفـون بإنهـم يتفرجـوا ويكونـوا محايديـن. وهـم أصحـاب الخـضر والفواكـه في السـوق. والحلاقـين.

أهلنـا بـين الرعـي والعمـل في المطاعـم وبيـع الشـاي والقهـوة. عـدد المتعلمـين منَّا أقـل مـن حمـد حفـون بكثـير جـدًّا، ولكنـه أكـثر مـن الفلاتـة بكثـير. في نـاس بأعـداد قليلـة مـن الهنـد واليمـن وأكـراد وصومـال عندهـم فهـم خـاص، عايشـين مـع النـاس وعايشـين مـع بعـض وبيعملـوا حسـاب لنـاس حمـد حفـون.

أحسـن شراب عـرقي بلـح في المدينـة في ديـم النـور، زي بنزيـن الطائـرات، لذلـك أنـا نظامـي معـاه كبايـة واحـدة، وإذا شربـت مـع جماعـة أفضـل أن أكـون بحقـي وكبايـتي معـي، واللحـم المشـوي عـلى الحجـر أسـاسي وبطريقـة أهلنـا سـلات.

أهلنـا فاكريـن شراب العـرقي والغنـاء ليـلًا خـاص بجماعـة حمـد حفـون، لذلـك إذا أنـت سـكرت خسـارتك كبـيرة معاهـم، أمـا إذا تخلـط شراب وبنقـو كمـا أفعـل أنـا فقضيتـك يصـدر فيهـا حكـم بالإعـدام الاجتماعـي، مـا عـدا أولاد المـدارس فهـم دنيـا مختلفـة. وأنـا كذلـك.

النـاس في المدينـة يتسـابقون ليسـكنوا في أسـوأ الأماكـن، لذلـك

تجـد التـلال خاليـة أو عليهـا سـكن عشـوائي، والنـاس تبـني في الخـيران، مـا عـدا مبـاني الجيـش مـن زمـن الاسـتعمار عـلى تـل. أنـا أعتقـد أن والـدي كان رجـلًا سـقط سـهوًا في تلـك المدينـة، وربمـا تأثـرت عيونـه بخـضرة المراعـي، لذلـك تـرك لي مسـاحة خـضراء عـلى سـطح تـل مسـجلة رسـمي ومحروسـة بالسـكن العشـوائي.

الفقـراء وجودهـم مهـم جـدًّا للأغنيـاء، وإذا أردت أن تسـتمتع بأموالـك وبيتـك، وتحديـدًا لـو كان روضـة غنَّـاء اسـكن وسـط الفقـراء. اركـب عربـة جديـدة واسـتمع لأجمـل الأغـاني، ومـر بجوارهـم وهـم واقفـون عـلى رصيـف الشـارع، وألـقِ عليهـم التحيـة بعـد أن تتجاوزهـم بخمسـين مـترًا، وانظـر إليهـم في المرايـا، يحيونـك مثـل رئيـس الجمهوريـة.

أنـا بحـب الفـن، وفي العالـم لـو كان مـا في شيء غـير الفـن كان حيكـون أفضـل، لكـن كيـف ذلـك يكـون ممكـن؟ والنـاس ليـس لديهـا برنامـج، أي واحـد يفتكـر إن الوظيفـة أهـم مـن البرنامـج مخطـئ، لذلـك أنـا صاحـب برنامـج.

فصل

جـاء إسـماعيل إلى السـوق كعادتـه باكـرًا، والنشـاط في أعـلى مسـتوياته، ففـي منتصـف شـهر أكتوبـر يبـدأ سـوق المدينـة في الانتعـاش، عمـال الزراعـة يبـدأون رحلـة العـودة إلى ديارهـم في غـرب السـودان وجنوبـه، فيقتنـون الهدايـا، مـن السـاعات والراديوهـات. وينشـط تجـار بيـع الملابـس، والأقمشـة، وبالنسـبة إلى الترزيـة لا يقـل هـذا الوقـت مـن العـام أهميـة عـن الأعيـاد، وفيـه يبـدأ سـداد الديـون. فموسـم الحصـاد عيـد تسـتمر أيامـه حـتى شـهر مـارس.

وقـف أمـام دكانـه يبحـث عـن المفاتيـح في جيوبـه، مـرت مـن أمامـه مريومـة، المـرأة الـتي لا أحـد يعـرف أصلهـا ونسـبها ومـن أيـن جـاءت إلى تلـك المدينـة، وربمـا أطلـق عليهـا هـذا الاسـم أهـل السـوق، مصابـة بالجنـون ولكنهـا لا تـؤذي أحـدًا، لا توجـد كلمـة عنـف في قاموسـها، عـلى قـدر مـن الجمـال، يظهـر مـن فتحـات الخـرق الـتي ترتديهـا، الفعـل الوحيـد الـذي يصـدر عنهـا إن انتابتهـا نوبـة الجنـون، تتجـرد مـن ملابسـها كاملـة لا

تبقي شيئًا، فيسرع أهل الحشمة في السوق بسترها بما يقع في أيديهم من ملابس، أو عمائم والفارغ من جوالات الذرة. ويشترون لها ملابس نسوية وإلزامها بارتدائها.

لاحظ إسماعيل أن مريومة تبدو عليها أعراض حمل، فبطنها بارزة، وعلى وجهها إعياء، ردَّد في نفسه هل أصابها داء الكلازار، فالمياه الملوثة في السوق متوفرة. أو ربما نامت جوار الجامع حيث يعج المكان ليلًا بالمشردين، والشحاذين، أو العياذ بالله صادفت أحد ضعاف النفوس من الذين يحسبهم الناس أسوياء وما أكثرهم.

أخرج إسماعيل المفاتيح، وأزاح الصناديق الفارغة من أمام المحل برجله وهو يردد: اللهم ارزقنا حلالًا طيبًا، وأغننا بفضلك عمن سواك. فتح أبواب الدكان ومد يده ناحية مفتاح الكهرباء وأضاء المحل وأدار مفتاح مروحة السقف.

أحصى صفائح السمن البلدي المتبقية، وبرطمان العسل، قدَّر بالنظر ما تبقى لديه من زنجبيل، وبن بأنواعه الحبشي والبرازيلي. شرع في ترتيب طلبات الزبائن الذين أبلغهم بأنه سوف يسافر إلى مدينة كسلا مدة يومين لإحضار العروس، وينوب عن العريس في إتمام العقد، فكان يتوقع حضور الزبائن في أوقات متقاربة، وحتى يسهل الأمر بدأ يومه منهمكًا، وكان كلما حضر إليه زبون أمره بالانتظار حتى ضاق بهم الدكان، كان الحديث الشاغل للجميع هو ما حدث بالأمس عقب إعلان نتيجة الانتخابات، التي شرع لها نميري

كجـزء مـن نظـام الحكـم المحـلي، لـم يكـن مؤلمًـا أن يسـقط مرشـحهم في الانتخابـات، بـل المسـيرات الهـادرة الـتي طـاف بهـا أنصـار مرشـح حمـد حفـون مرددين: (فـاز الواعـي.. وسـقط الراعـي).

أراد إسماعيل أن يخفف عنهم:

- يـا إخـوان الجماعـة مبسـوطين إنهـم فـازوا مـا تكـبروا الموضـوع.

رد عليه أحدهم:

- طبيعـي يفـوزوا مـا دامـت معهـم الغرفـة التجاريـة، والجميـع يعلـم أن المحاصيـل الـتي وُزِّعـت عـلى بعـض الأحيـاء كفيلـة بإنهـاء المجاعـة في إفريقيـا.

أردف آخـر: أنـا شـخصيًّا لـم أكـن متحمسًـا أن نقـدم عـلى تلـك الانتخابـات، وياريـت لـو اكتفينـا بكسـب الطعـن الـذي قُـدِّمَ للمحكمـة، لأن القضيـة كانـت واضحـة النـاس.

تساءل آخر:

قـد يكـون مفهومًـا إذا تقدمـوا بطعـن ونحـن في أقاليمهـم، ولكن أن يأتـوا إلى هنـا ويطعنـوا في انتمائنـا هـذا مـا يحـيرني!!

- يـا إسـماعيل، بـالله اسـتعجل شـوية.. ورانـا مصالـح، شـغل الانتخابـات، ولعـب الثـلاث ورقـات دا نحـن مـا معاهـو، وزي ما

يقولوا عد حمد حفون (شهر ما عندك فيهو نفقة ما تعد أيامو). تبسم البعض على سخرية ود بال عاي وتجاهل آخرون ما سمعوا.

إلا أن أحدهم لم يحتمل تعليق ود بال عاي، فوجَّه إليه الكلام: هو أنت هماك، الموضوع بالنسبة إليك ميدان سمسرة.

ردَّ ود بال عاي: تقصد شنو.

رد الرجل: بقصد إنك أنت إنسان ما بتخجل تتاجر في أهلك، بدل ما تسهل ليهم لو طلبوا منك أي حاجة تأخذ عمولة.

- طيب أنت عايزني أديهم إغاثة، أنت فاكرني أمريكا!

ضحك البعض، الأمر الذي زاد من غضب الرجل وصاح في وجه ود بال عاي: أنت تبيع ليهم حقوقهم، يا جعان.

رد ود بال عاي بلسان التقري وهو يعض على شفته السفلى ويقسم: والله لولا احترام لهؤلاء الرجال لجعلتك تضاجع أمك. أنت وغيرك، أنا ما مسؤول من تخلفكم، وحقوقكم التي تبكون عليها في السودان أيضًا ستبكون عليها في إريتريا. أنا بالنسبة إليَّ أنت مشروع تجاري، يعني ممكن أبيع لك مناديل تورثها أولادك عشان هم أيضًا يمسحوا بها دموعهم.

أمضى إسماعيل ما تبقى من اليوم بين مراجعة دفتر المديونيات، والتأكد من أن المواد المتبقية في الدكان يمكن

تصريفها إذا بلغت خطته منتهاها كما يأمل، وفي تلك الأثناء عاد إليه ود بال عاي موجهًا له نقدًا:

- إيه يا إسماعيل، ما تحدد أمورك دا دكان أم برلمان رطانة، نسيت إننا مفروض نلتقي الرجل حتى تتفق معه على التفاصيل.

رد إسماعيل: أنت لو نكرت انتماءك فاكر عد حمد حفون بثقوا فيك، والله أنت أولاد المدارس أحسن منك، على العموم وين الرجل الآن؟

- الرجل يا سيدي جاء وعرف أنك مشغول مع الجماعة وحتسافر إلى كسلا مدة يومين، قال إنه سيلتقيك بعد عودتك إن شاء الله.

كانت تلك فرصة لإسماعيل ليجري المزيد من التشاور مع أخيه سليمان قبل أن يتقيد بالتزام مع أي شخص، مع أنه يعلم سلفًا أن أخاه لن يقبل بفكرة إدارة الدكان، ولن يمانع. ثم إن إبراهيم ما زال يافعًا على قسوة السوق وفكرة الالتحاق بالجامعة لا يمكن أن تتم دون تنفيذ فكرة السفر إلى الخليج. وما دام أنه دفع المبلغ المطلوب للحصول على عمل في أبو ظبي، وأن الأمر الآن في الإجراءات النهائية فلا مناص من التنفيذ.

عودة إسماعيل إلى البيت باكرًا لم تكن محل اندهاش زوجه أم إبراهيم أرهيت، بل حرصت أن تعدَّ له ما يحتاج إليه

غـدًا في رحلتـه إلى كسـلا، فقـط سـليمان الـذي عـادة لا يبـارح مرقـده حـتى لـو كان مسـتيقظًا، لفـت انتباهـه صـوت أخيـه في غـير الوقـت الـذي اعتـاده، خـشي أن يكـون طـارئ غـير سـار جـاء بأخيـه باكـرًا. التحـف منشـفته مناديًـا إبراهيـم أن يعـبئ لـه السـطل بالمـاء ويضعـه بالحمـام.

ألـح إسـماعيل في الطلـب مـن أخيـه بعدمـا خـرج من الحمـام أن يجالسـه في فنـاء المـنزل، فـإن الأصيـل وقـت يحـرص الجميـع عـلى اسـتقباله بـكأس شـاي (العصريـة). اسـتجاب سـليمان متسـائلًا: خـير لمـاذا أتيـت باكـرًا؟!

هـل نسـيت أنـني وكيـل العريـس، وعـليَّ أن أغـادر إلى كسـلا صبـاح الغـد لإتمـام عقـد الـزواج، والعـودة في اليـوم التـالي ومعـي العـروس.

علـق سـليمان: بعـض مثقفـي حمـد حفـون يظنـون أن شـعورنا بالذكوريـة عـالٍ، ويصفـون بقـاء العريـس وعـدم ذهابـه إلى مـنزل العـروس فيـه تسـلط وعـدم تواضـع، بـل هيمنـة مبكـرة ورسـم للحـدود بـين الرجـل والمـرأة.

ويسـتمر سـليمان في الحديـث: لأنهـم كمـا تعلـم عندهـم العريـس يسـير إلى عروسـه.

قاطعه إسماعيل معلقًا: ليتحول من ملك إلى زوج الملكة.

أردف سـليمان: أو الرجـل الوصيـف. وهـذا أحـد الأسـباب الـتي

تجعل رجالنا لا يتزوجون منهم خوفًا من تسلط نسائهم. على الرغم من أنني في تلك النقطة تحديدًا أرى خوفنا الزائد له علاقة بالصراع معهم حول السلطة. ويعجبني في نساء حمد حفون أنهنَّ مبادرات، وليس كما نفهم نحن متسلطات.

جاء إبراهيم ومعه صديقه أحمد، وأفسح لهما في المجال. قال إسماعيل: كيف حالكم يا شباب.

- كما تعلم لا جديد يا أبي؛ ننهي المرحلة الثانوية لتبدأ سنوات الحلم بالمستحيل.

- الأرزاق بيد الله يا بني.

علق أحمد: ونِعم بالله يا عمي، ولكن الأمور تجاوزت حد المعقول، نميري حاكم البلد بالحديد والنار، ولا يريد أن يشرك الآخرين في الحكم، وآخر ما جادت به عقليته يريد أن يضمن للشعب مقعدًا في الجنة، وجاءنا بقوانين سماها شريعة إسلامية.. نحن نريد جامعات ومستشفيات وعليه أن يترك شأننا مع الله لنا.

تدخل سليمان:

- إن فكرة الدين في هذا البلد يجب ألا يُنظر إليها خارج السياق الاجتماعي، أي ليس صحيحًا أن ينظر إلى المجتمع والسلطة بإغفال الحضور الديني في حياته، ولربط الأمر علينا

أن نـدرك أن للديـن دورًا سياسـيًا، لخدمـة عقيـدة اجتماعيـة مسـيطرة وسـائدة.

وقـف إسـماعيل قائـلًا: أنـا لا أفهـم حديـث المتعلمـين ولـديَّ مـا ينتظـرني مـن همـوم، أراكـم لاحقًـا.

انجـذب إبراهيـم وصديقـه إلى حديـث العـم سـليمان مطالبـين إيـاه أن يسـتمر.

- دعـاني أبسـط لكمـا الأمـر، الأصـل في أهـل بـلاد السـودان هـو التعـدد في الألسـن، وكل جماعـة تتمتـع بجغرافيتهـا وتاريخهـا. فـأي جماعـة لا تتمتـع بتلـك الخصوصيـة تبحـث عـن مزيـة لهـا تجعلهـا تسـود عـلى الآخريـن، لذلـك الديـن واللغـة العربيـة في السـودان هـو مزيـة اجتماعيـة.

إبراهيم متسائلًا:

- هل تود أن تقول إننا نخلط بين الدين والدنيا؟!

علـق سـليمان: ليـس تمامًـا.. ولكـن أود أن أقـول إننـا لنـا وجـود نعيشـه.. فوجودنـا الـذي نعيشـه ونمارسـه هـو وجودنـا الاجتماعـي ولروابطـه الداخليـة احتياجـات ومصالـح حيـة وملموسـة. وفي حالـة السـودان القـوى الحاكمـة عقيدتهـا الاجتماعيـة أقـوى مـن عقيدتهـا الوطنيـة أو الدينيـة خوفًـا عـلى سـلطتها مـن الآخريـن.

لذلـك أي سـياسي يـا أحمـد في هـذا البلـد يتحـدث عـن الشريعـة

لأسباب اجتماعية تاريخية. والمشاريع الوطنية عليها بدايةً أن تدرك ما عليه الناس وتعترف بهم وتشرح البرنامج الذي بموجبه يمكن إيجاد الجماعة الوطنية، أو حتى الدينية، حتى نميز بين الدين كعقيدة والدين كسلطة اجتماعية.. منذ خروج الإنجليز والشارع السياسي السوداني يتحدث عن الدين، بل يعرف السودان بأنه جزء من التاريخ الإسلامي.. نتمنى ذلك.. ولكن هل هو كذلك؟ أم إنها مسألة سلطة واحتياجات اجتماعية؟

تحدث إبراهيم:

- أحد الصحفيين زار مدينة كسلا، وعندما عاد إلى العاصمة كتب بالخط العريض عنوانًا: (الجالية السودانية بكسلا)، ترى هل كان يقصد أن السودانيين في كسلا كالجالية، أمام تعداد اللاجئين من إريتريا؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نتذكر معًا ما حدث في أثناء الانتخابات التي انتهت مؤخرًا، التي لا علاقة لها بالديمقراطية، بل كانت من أدوات نميري. ماذا حدث؟ ألم يتقدم مرشح حمد حفون بدعوة للمحكمة طاعنًا في مواطنتنا؟!

- ولكننا كسبنا القضية.

- حتى إن كسبنا القضية، يظل تفكيرهم بهذه الطريقة محل تساؤل. حمد حفون دومًا يبحثون عن أنفسهم في الآخر،

فمطلـوب منـك أن تكـون مـرآة عاكسـة لهـم. انظـر كيـف يحـورون الأسـماء؟ عندمـا كنـت بالجامعـة كانـوا يـصرون عـلى أن اسـم جـدي درار نطقـه الصحيـح ضرار، كنـت أقـول لهـم إذا كان هـو جـدي فعليكـم أن تقبلـوه كما أناديـه أنـا، وأُفاجـأ بعـد مـدة في الدعـوات الـتي توجـه إليَّ يُكتـب ضرار.

هنـا علَّـق أحمـد وكأن حديـث سـليمان نـزل عليـه ليفـسر لـه أشـياءَ ظلَّـت مخزونـة في ذاكرتـه وهـو لا يعلـم عنهـا:

- والغريـب في الأمـر يـا عـم سـليمان الكـوادر المتقدمـة في الحـزب عندمـا يأتـون في زياراتهـم السريـة للمدينـة، أو يرسـلون بعـض الشـعراء والكتـاب لتفعيـل العمـل الثقـافي، لا يلتقـون إلا بأبنـاء حمـد حفـون، ويكتبـون عنهـم في صحـف الخرطـوم بلغـة تجعـل القـارئ يشـعر بأنهـم سـكان تلـك المدينـة ولا أحـد سـواهم.

أضـاف إبراهيـم: مـن يتابـع برنامـج (مـن الأقاليـم)الإذاعـي يظـن أن السـودان إقليـم واحـد.

تدخـل سـليمان: هـذا مـا عنيـت عندمـا ذكـرت العقيـدة الاجتماعيـة، فعـلاوة عـلى أنهـا تسـتخدم الديـن واللغـة مزيـة لهـا، أيضًـا تـرى ذاتهـا معيـارًا لما حولهـا. فالكاتـب أو الصحفـي يـأتي إلى كسـلا وهـو ينظـر إليهـا كمـرآة، إذا لـم تعكـس صورتـه فهـذا يعـني أنهـا ليسـت سـليمة وبهـا خلـل.. وكذلـك الـذي طعـن في مواطنتنـا لا يملـك سـببًا سـوى أننـا لا نشـبهه.

هنا عاد إسماعيل معلقًا: توزع معلومات مجانًا، يا ريت لو كان كلامك يا سليمان عندو زبائن كان وضعنا اتغير.

انصرف الشباب وأحمد يردد: عمك يا إبراهيم حديثه جميل ومشوق، ولكن يحتاج إلى شرح.

جلس إسماعيل بعدما رسم على وجهه علامات جدية موجهًا حديثه إلى سليمان:

- الظروف في السودان في تدهور مستمر، والأوضاع المعيشية صعبة، ويكفي أننا في القضارف أشهر مدن السودان بالمحاصيل نعيش على المعونة الأمريكية، وعيش ريغان ملأ الأسواق، هذا علاوة على أن بيع السمن لم يعد كما كان، وأنا لا أستطيع أن أجاري السوق، فالقانون في السوق محكوم. آخر أمل كان معقودًا في أن أجد مكانًا في سوق الطبالي الجديدة، وظللت أتابع قرار المجلس البلدي في هذا الأمر، وإذا بنا نُفاجأ أن كل المحلات وُزِّعت لجماعة حمد حفون، ومعظمهم جاءوا من أقاليم ثانية.

وأضف إلى ذلك كل الأشياء القديمة التي حدثت. لذلك قررتُ أن أسافر إلى الخليج، وكنت دفعت مبلغًا لأحد الإخوة حتى يساعدني في الحصول على إذن العمل والإقامة، ولقد تم والحمد لله.

أما بخصوص الدكان، فبعد ما أرجع من كسلا بيستلموا واحد من ناس حمد حفون مقابل إيجار شهري ودون عقد،

جـاء بواسـطة ود بـال عـاي. وفي أي وقـت أنـت عايـز الـدكان كلـم الراجـل قبـل ثلاثـة شـهور وهـو يسـلمك المفاتيـح.. إيـه رأيـك؟

رد سليمان: ما دام الدكان بعيدًا عني أنا موافق.

- وموضوع العرس؟

تظاهر سليمان بأنه لم يسمع، واستمر إسماعيل في الكلام:

- وأنـا أقـترح عليـك أن تبحـث عـن الزوجـة، العمـر مـاشي ولـك حريـة التـصرف في الإيجـار، وأعـدك بـأني في خـلال المـدة الأولى مـن شـغلي أشـتري لـك ضرورات الـزواج، حـتى لـو عـاوز تـتزوج مـن زميلتـك أيـام الجامعـة بنـت حمـد حفـون نحـن مـا عندنـا مانـع.

رد سليمان والدهشة ارتسمت على وجهه:

- محاسـن كانـت زميلـتي في الجامعـة بـلا شـك، وإنهـا فاضلـة وجميلـة، لكـن إذا سـألتني أيـن تقـع الآن محاسـن فـوالله لا أعلـم.. فأنـا أتوقـع أنهـا الآن متزوجـة ولهـا دسـتة أطفـال، المثلهـا مـا بتقعـد في البيـت، وإذا افترضنـا أنهـا موجـودة فهـي لا يصلـح لهـا غـير حمـد حفـون. إلا أتزوجهـا عشـان المـشروع الوطـني، يعـني النـاس نايمـين وأنـا أشرح لهـا تاريخنـا حـتى تشـعر بوجـودي.

هكـذا كان سـليمان يـداري خيبتـه الكـبرى في إيـرات بنـت

العشيرة، التي لم يصرح بها لأحد ويظن الجميع أن قلبه معلق بزميلة له من حمد حفون.

دنا إسماعيل من أخيه هامسًا: وأنت زي ما يقولوا الشيوعيين فصل الدين عن الدولة. افصل الزواج عن التاريخ. وأنت قلت إنها إنسانة خاصة.

- الشيوعيين كلامهم في الدين مختلف ديل العلمانيين، وفي البلد دي يا إسماعيل الأشياء ما بتتفصل. والعلمانيين حافظين كلام مجاني، ديمقراطية وعلمانية ودولة مدنية.

تعرف يا إسماعيل نحن هلاكنا بين العلمانيين والصحوانيين، العلماني ينفي الدين تمامًا، والإسلامي لا يرى فينا غير الدين.

- ونحن شنو يا سليمان؟ كلامك دا من الأسباب البتخلي الناس يتكلموا.

- نحن محليين يا إسماعيل.

- اسمع يا سليمان، أنت خليك محلي أنا مسافر، وموضوعنا إنك تتزوج، محليين ومستوردين دي شوفها مع الأولاد التلاميذ.

استمر سليمان في الحديث متظاهرًا أنه لم ينتبه لحنق أخيه، أما موضوع الخصوصية أقصد أن قلبها عامر بالرحمة والعطف على المعدمين من الزملاء. فبحكم سكناها بالعاصمة كانت تحرص دومًا على أن تأخذ عددًا من الزملاء

والزميلات إلى بيت أهلها لإكرامهم، مع العلم بأن والدها موظف بسيط.

- أنت تريد أن تكسبها حسنات مجانية، دي أشياء بيعملها أي واحد منهم، فما تقوله عنها تجده في أي واحد من حمد حفون، ما يجعلني في حيرة من أمري، فهؤلاء الناس لهم صفات لا تجدها إلا في سير الصحابة، وفي ذات الوقت لهم أشياء أخرى لا تجدها إلا في أوصاف الشياطين.

- موضوع الطبالي مثلًا.

رد إسماعيل بحدة: موضوع كل السودان.. لكن نرجع إلى فكرة الزواج من حمد حفون.

جاءت أرهيت وهي تحمل الجبنة في يدها اليمنى، وعلى اليسرى صينية عليها أربعة فناجين، ظنًّا منها أن إبراهيم وصديقه قد يعودان فجأة. وضعت الجبنة أمامهما وذهبت.

رد سليمان: لا أعتقد أن الزواج من حمد حفون فكرة سديدة، لأن الأمر في رأيي سياسي واجتماعي متداخل.

- على كل حال يا سليمان فكر في الزواج وأنا مستعد لطلباتك.

- إن شاء الله.

وأردف قائلًا: ما دمت ذاهبًا إلى كسلا لا تنسَ أن تأتينا بأخبار زيارة بوش نائب ريغان لقرية ود شريفي.

فصل

استيقظت هذا الصباح بهمتها وحيويتها المعتادة، وأنجزت كل ما ترجوه منها والدتها. تفرغت لإعداد نفسها، أمامها يوم بلا نهاية، فهي الموكل إليها مهمة الذهاب إلى بيت الحاجة نفيسة لجلب الكبرو (الطبل) لبيت العرس، الذي تحول الحي معه إلى خلية نحل، فالكل منهمك بالاحتفاء بزواج ابن الحي سعيد ومشاركة أسرته الفرحة.

سميرة فتاة في العشرين من العمر، قمحية البشرة، متناسقة في الطول والجسد، في عينيها فضاء متسع يغري بالتأمل، شفاهها كرز. إذا ما ابتسمت تكشف عن نجوم ثاقبات مطمعات يثرن الحياة، مليحة، ترتسم على محياها ابتسامة دائمة، ساحرة، تحبها المجالس من كل الأعمار، ثغرها الباسم، وجاذبيتها أكسباها قدرة فائقة على التأثير، ودودة، حيوية في حركتها، طروبة مليئة بالإيقاعات، تنساب في النفس كالموسيقى، تتنافس الفتيات في صحبتها، خدومة

طيِّعة، النساء الأمهات يتضرعن إلى المولى أن يرزقهنَّ مثلها بنتًا أو زوجة لأبنائهنَّ، بارة بوالدتها. تُوفِّي والدها وهي صبية، متضرعة إلى الله أن يتقبله قبولًا حسنًا، ترى الكمال في إبراهيم الذي ملأ خلاياها ولم يترك ثغرة تنفذ منها أماني الخلق. فهو إنسانها الحقيقي الذي يشعرها هدوؤه بالثبات، وهو القادر على امتصاص كل انفعالاتها منذ أيام طفولتهما الأولى.

يتوقع الجميع من سميرة أن تكون مصدرهم للطاقة، وهي حريصة، تتأكد من أن كل المستلزمات التي تجلب من الحي أو الأحياء المجاورة قد أُحضِرت، سواء كانت الأواني الصغيرة كالصحون ومتعلقات الشاي، أم القدور الكبيرة الخاصة بالطبخ.

لم يكن أمامها متسع من الوقت، أسرعت في غسل الأواني التي أُستعمِلت لشاي الصباح، تناولت مكنسة السعف، نظفت بها الحوش الذي يفصل بين الخلوة والراكوبة، أعادت فرش الملاءات على أسرَّة الخلوة، نظمت القطية التي تتشارك فيها مع والدتها النوم، تركت الراكوبة لوالدتها التي كانت تعدها لتتمتع بارتشاف بن الصباح.

على حجر خلف القطية وقفت سميرة وهي ما زالت بجلبابها الأخضر، الذي ترتديه في أثناء تنظيفها للبيت، غسلت وجهها بالصابون والماء، رفعت ذراع فستانها عن معصميها، ظلت ترفعه حتى كادت تكشف عن كتفيها، فرغت من غسله،

مالـت إلى أرجلهـا فغسـلت حـتى فخديهـا.

ركضـت والمـاء يتقاطـر مـن وجههـا ويديهـا ناحيـة القطيـة، واضعـة يدهـا اليمـنى عـلى صدرهـا الـذي تطايـر إليـه المـاء، نهداهـا يلتصقـان بفسـتانها. لـم تمـضِ دقائـق حـتى كانـت ترتـدي تنـورة سـوداء وبلـوزة مزركشـة بألـوان عـدَّة عـلى شـكل ورود بأحجـام مختلفـة. وقفـت أمـام والدتهـا تسـتأذنها الخـروج.

- الله يوفقك يا بنت بلغي سلامي لأم سعيد.

- إن شاء الله.

خرجـت سـميرة مـن منزلهـا، تراقـب سـاعتها اليدويـة، انعطفـت يمينًـا عنـد الشـارع الأول، وسـارت بخطـوات أقـرب إلى الهرولـة منهـا إلى المـشي، ترتـدي حـذاءً بلـون بـني يتـلاءم مـع خشـونة التربـة الـتي تسـير عليهـا. لمحـت قبـل نهايـة الشـارع نسـوة قادمـات مـن كشـك الخضـار في الحـي، يمشـين عـلى مهـل ويتجاذبـن أطـراف الحديـث، خشـيت سـميرة أن يوقفنهـا وهـي لا تملـك إلا أن تذعـن لرغبتهـنَّ، ولا تسـتطيع أن تغادرهـنَّ دون أن تتأكـد أنهـنَّ فرغـن مـن كل مـا لديهـنَّ مـن أسـئلة عـن كل مـا يـأتي عـلى البـال، هـي تسـابق الزمـن .

تأكـدت سـميرة أن النسـوة لـم يلحظـن وجودهـا في الشـارع، أسرعـت الخطـى ناحيـة شـارع فرعـي، يزيـد رحلتهـا بضـع العـشرات مـن الأمتـار، ولكنـه لـن يكلفهـا وقتًـا مثـل ذلـك الـذي

كان يمكـن أن تهـدره إن ألقـت التحيـة عـلى النسـوة.

العـاشرة صباحًـا، سـميرة تطـرق بـاب بيـت الحاجـة نفيسـة، زنـك مثبـت عـلى ألـواح مـن الخشـب، وهـي تسـمع جلبـةً لرجال ونسـاء مـن داخـل المـنزل، اعتـادت أذن الحـي أن تسـمعها مـن مـنزل الحاجـة نفيسـة. بـل هنـاك اتفـاق غـير مكتـوب بـين الحاجـة وأهـل الحـي أن تراعـي أوقـات الصـلاة فتوقـف حلقـات الـزار. وهـي تحـرص مـن جانبهـا عـلى أن تنهـي كل شيء قبـل صـلاة العـصر.

أعـادت سـميرة طـرق البـاب، ولكـن هـذه المـرة مشـفوعًا بنـداء (يـا حاجـة نفيسـة أنـا سـميرة صبـاح الخـير).. لـم تكمـل سـميرة نداءهـا حـتى فتحـت البـابَ الحاجـةُ يسـبقها أسـفها واعتذارهـا، بسرعـة سـحبت سـميرة إلى داخـل المـنزل، سـارت بهـا ناحيـة الراكوبـة. مكـررة اعتذارهـا. عائلـة حـضرت هـذا الصبـاح ومعهم فتـاة في حاجـة إلى حلقـة مسـتعجلة، ولـن يسـتغرق الأمـر كثـيرًا، فـإن شـئتِ تذهبـين وتعوديـن عنـد صـلاة الظهـر، أو تبقـين عـلى الرحـب والسـعة حـتى ننتهـى مـن الحلقـة.

إن ذهبـتِ تجرفـني الانشـغالات الأخـرى ولـن أتمكـن مـن إحضـار الكـبرو، وتلـك الريـح تسـتهويني، قـرع الطبـل وطقـس الـزار، يدوزنـان جوارحـي ومزاجـي الخـاص، سـأبقى حـتى تنتهـي الحلقـة. رحبـت بي الحاجـة نفيسـة وأشـارت إلى إحـدى معاوناتها أن تهتـم بأمـري وتصنـع لي قهـوة.

دقائـق معـدودات، صـوت الدفـوف وقـرع الطبـول مـن القطيـة المجـاورة للراكوبـة ممزوجًـا بعبـق بخـور اللبـان العـدني، تشـبع المـكان، أداء جماعـي تتداخـل فيـه أصـوات النسـاء والرجـال، حمـاس وهيجـان منتظـم، كأنهـم يحرثـون الأرضَ في نفـير، أو قبائـل تتعبـد بصخـب، تعلـو الأصـوات وتهبـط.

تبرعـت المعاونـة بـأن تـروي لسـميرة قصـة الفتـاة الـتي تُـضرَب لهـا الدفـوف (الفتـاة تشـاهد جبـل توتيـل يـأتي ليـلًا مـن مدينـة كسـلا إلى مدينـة القضـارف، ويقـف موازيًـا لجبـل الخـزان، ويتحـدث معهـا ويغادرهـا قبـل بـزوغ الفجـر، وتكـرر معهـا هـذا الأمـر مـدةً ليسـت بالقصـيرة).

لـم تعلـق سـميرة عـلى القصـة، أخفـت دهشـتها ممـا سـمعت، ظلـت صامتـة مـا تبقـى مـن الوقـت، والمعاونـة تثرثـر، تـروي عـن زوار كـثر، عـن رجـال بارعـين في قـرع الطبـول، عـن طـرق التحضـير لقتـل الجـان، تتباهـى بمـا اكتسـبت مـن خـبرة عـلى يـد الحاجـة نفيسـة، سـميرة تتمـنى أن تنشـغل المعاونـة بشـأن آخـر، فهـي في حاجـة إلى نفسـها يقتلهـا التـوق إلى رؤيـة وجـه الفتـاة، كادت تنـسى أيـن هـي الآن، ولمـاذا جـاءت.

تنخفـض أصـوات الطبـل، يتحـول القـرع إلى نقـر، زفـير جماعي، صـوت نسـوي يسـأل مـاذا تريـد؟ ماهـي طلباتك؟

مواء بشري يجيب أنينًا

صوت كرياج ويتكرر السؤال؟

مواء بشري يجيب أنينًا.

المعاونة تثرثر يبدو أن الفتاة توأم.

سميرة بدهشة لماذا؟

إنها تصدر مواءً؛ هذا صوت الجان!!

هُرِعَتْ سميرة ناحية القطية، الناس غرق في صوت الطبل المنخفض، والزفير الجماعي. امرأة بيدها كرباج، الفتاة مشدودة مصلوبة إلى أعواد، عليها جلباب شفاف ملتصق بجلدها، تتأوه، والمرأة تكرر السؤال ماذا تريد؟ ماهي طلباتك؟

الجسدُ شِبهُ العاري يُصدِر مُواءً بشريًّا، يجيبُ أنينًا.

تنحبسُ الأنفاس، تصمت الطبول، فُكَّتْ الفتاةُ من أغلالها الخرقية، خرج الرجال والنساء من حلقة الزار إلى الحوش. يتصبب منهم العرق، ملابسهم ملتصقة بأجسادهم، أجسامهم هزيلة، بلا أصداغ، وجوههم عظام يكسوها جلد، يدخنون بشراهة أو يبصقون التمباك على الأرض.

اقتربت سميرة من الفتاة، مستلقية على فراش في الأرض والعرق يتصبب منها، وجهها شاحب بلا دماء يميل إلى البياض وشفاهها يابسة، أفسحت الفتاة في مرقدها مشيرة إليها بالجلوس، جلست على أمشاطها وصدرها ملتصق بساقيها متكئة على أصابع يدها اليسرى، يدها اليمنى

تداعـب الفتـاة.

أنا اسمي سميرة أنت اسمك منو؟

أجابـت الفتـاة: أنـا شـفتك مـع الجبـل وأشـارت إلى سـميرة أن تشـاركها الجلـوس. وافقـت سـميرة.

سردت قصتهـا بوجـه لا يوحـي بعلـة أو مـرض، تـسرد الوقائـع بصـوت يجعـل السـامع مأخـوذًا بالتفاصيـل، لـم تشـعر سـميرة أنهـا أمـام هذيـان، فقلبهـا صفـي تمامًـا لصـوت الفتـاة الـذي جـاء:

(قبـل عامـين مـن الآن، كنـت وصديقـاتي عطـشى، لا نملـك في أجسـادنا سـائلًا لنتبلـل عرقًـا، نركـض خلـف موكـب المحافـظ الـذي أعلـن تطبيـق الشريعـة في مديريـة كسـلا، جـاء إلى القضـارف ليفتتـح الخـزان الـذي بُـنِيَ في التـل ليسـقي جماعـة حمـد حفـون، وددنـا أن نخـبره أننـا عطـشى، حـال الجنـود بيننـا وبـين المحافـظ، كنـا نـود أن نخـبره أن الميـاه المندفعـة نحـو الخـزان تمـر مـن أمـام بيوتنـا، كنـا نخـشى أنـه لا يعلـم، ونحـن عطـشى.

كان مسـتحيلًا أن نـدرك موكبـه، عرجنـا إلى الطرقـات الفرعيـة، بلغنـا التـل في لحظـة قـص شريـط الافتتـاح، الجمـع غفيـر؛ لـم أرَ مـن أهلنـا سـوى نفـر قليـل، اقتربـتُ مـن المحافـظ، كـدت أخـبره أني عطـشى، تملكـني ذعـر، انتابتـني رعشـة، رأيتـه يسـير جـذلًا يتوسـط رجـالًا عـلى رؤوسـهم عمائـم، اقتربـوا مـن شريـط

أحمر تقف بجواره طفلة على ظهرها ضفيرة وفي يديها إناء مغطى بمخمل أحمر موضوع عليه مقص. مد المحافظ يده ورفع المقص ملوحًا، مبتسمًا، يملأه الحبور، مد يده اليسرى، ثبت الشريط، مُدَّتْ أيادي أخرى، قص الشريط، صرخ التل، ترددت صرخته في أعماقي، بكى التل، صفق الحضور ابتسم المحافظ، رأيت شريانًا مقطوعًا في جوف التل، صرخ التل وناداني باسمي، ركضت، وندأوه يلاحقني، توقفت، نظرت صوب التل، بكيت، عاودت الجري، توقفتُّ تلفتُّ رأيتهم يتعانقون، عاودت الركض، وافيت أمي عند باب منزلنا، جذبتني إليها، أخذتني إلى الداخل، ذهبت لتحضر لي كوبًا من عصير الليمون، شعرت بأني أسمع صوتها بعيدًا بعيدًا، فنمت حتى منتصف الليل.. استيقظت على تهدج صوت جبل توتيل وهو يقف موازيًا لتل الخزان، يعاتبني ويصرُّ على أن أسمعه، كان يردِّد على سمعي لماذا تقطعون أوصال أبنائي.. لماذا تقطعون.. أوصال أبنائي.. أنا لم أفعل شيئًا... أنا عطشى. كلفني أن أطبِّب جرح التل النازف، رجوته كثيرًا أن يبحث عن غيري، أنا ضعيفة لا أقوى على تكليفه. في ليلة كان القمر فيها بدرًا رأيت الجبل وعلى صخرة في جزئه الأعلى فتاة كانت تشبهك كثيرًا.. كثيرًا.. كثيرًا.. كثيرًا.. ذابت الفتاة في ذاتها... غطاها الوسن).

غادرت سميرة، الوقت يتسلل من بين يديها، أسرعت إلى خارج القطية، التقت الحاجة نفيسة في الحوش ومعها الكبرو، أمرت صبيانها أن يأخذوا عن سميرة الحمل ويوصلوها إلى

بيـت العـرس. شـكرت الحاجـة ولـم تنـسَ أن تـترك في الحـوش والراكوبـة وقطيـة الـزار، مـن موسـيقى روحهـا ودَّعـت الجميـع بابتسـامة.

سـارت والحـر القائـظ يلفـح وجههـا، وصبيـان الحاجـة يحملـون عنهـا أحمالهـا، كانـت تسـير وصـورة الفتـاة تلاحـق خيالهـا، وهـي تـروي قصتهـا، وهـي تركـض خلـف موكـب المحافـظ، كانـت كلماتهـا تركـض مثلهـا لتسـتقر في وجـدان وعقـل سـميرة. أحسـت بأنهـا مـا زالـت تعـاني رهـق ذاك الركـض، وأن هـذا الركـض قديـم، هـذا العطـش قديـم، وأن شـفاهها منـذ الأزل تعـاني هـذا الجفـاف.

شـعرت سـميرة بـدوار، رأسـها يتثاقـل، لـم تعـد قـادرة عـلى حملـه، اسـتدارت ببـطء ناحيـة الصبيـة، طلبـت منهـم أن يكملوا السـير إلى بيـت العـرس ويسـلموا مـا بأيديهـم لأي امـرأة هنـاك.

غـيَّرت اتجـاه سـيرها قاصـدةً منزلهـا. شـعرت بخطواتهـا تطـرق في رأسـها، كادت تهـوى عـلى الأرض لـولا يـد امتـدت إليهـا تسـندها، وهـي تـردد بسـم الله.. بسـم الله.. صـوت امـرأة لـم تتبينـه سـميرة، طلبـت منهـا أن توصلهـا إلى البيـت، لـم يكـن بعيـدًا، أقـل مـن خمـس دقائـق كانـت والـدة سـميرة تجلـس قـرب ابنتهـا عـلى حافـة السريـر وهـي لا تـدري مـاذا حـلَّ بهـا.. سـألت المـرأة الـتي كانـت أم أحمـد صديـق إبراهيـم.. ولـولا الأقـدار لمـا كان لهـا أن تدخـل عـلى والـدة سـميرة.

أجابت: وجدتها في الشارع.. ما بعرف جاية من وين!

ما قالته المرأة بلغة وجهها كان أكثر من الكلمات المباشرة التي نطقت بها.

ردَّت أم سميرة: على كل حال مشكورة.

أضافت أم أحمد: بنات الزمن دا عايزين عين صاحية.

شعرت أم سميرة أن تعرجات الحديث لا تحتمل الصمت، فعلقت قائلة: سميرة من زمن ثاني ما من الزمن دا.

تحركت سميرة في فراشها على صوت الحوار الدائر على رأسها، وما إن وجدت أم أحمد أمامها كادت تصرخ بكل ما أوتيت من قوة.. الشيء الوحيد الذي لا تتمناه في حياتها أن تشهد تلك المرأة أو ابنها أحمد لحظة ضعف في حياتها.

قفزت من فراشها وكأنها لم تكن تلك التي كادت تسقط في الطريق، غسلت وجهها واستبدلت تنورتها والبلوزة بفستان وردي يغطي أيديها حتى منتصف ذراعيها، إلى منتصف الساق، تناولت طرحتها، أسرعت إلى الباب ووالدتها تركض خلفها تستفسر منها عما حدث، بلغت الباب توقفت.

خاطبت أمها: لم يحدث شيء يا أمي.. تبدو ضربة شمس خفيفة، ولكن يبدو أن المنقذ كان أقوى من ضربة الشمس.

دلفت سميرة إلى بيت العرس والنهار بحرِّه القائظ يكوي

الوجـوه، النـاس صرعـى في الظـلال القصـيرة، الـتي تجـود بهـا القطاطـي، في منتصـف الحـوش وجـدت إبراهيـم وصحبـه يعملـون بحمـاس لتركيـب الصـوان. الأعمـدة الحديديـة يحملهـا الشـباب بعـد أن تحولـت إلى قطعـة مـن جهنـم.

إبراهيـم منهمـك بإخـراج الـتراب مـن الحفـرة، مسـتخدمًا يـده ليتأكـد أن العمـق لا يتجـاوز ذراعًـا، أحـضرت سـميرة مـاءً مثلجًـا، أطفـأت ظمـأ الشـباب، عمـدت أن تسـقي روحهـا بنظـرة إلى إبراهيـم، دنـت منـه بالمـاء، مالـت حـتى تكشـف صدرهـا، تكـسرت نظـرات إبراهيـم، بـين نهديهـا، تنبهـت إلى صدرهـا، نهضـا معًـا، غمـر وجههـا الخجـل، إبراهيـم يغـرق في الـذي سُـكِبَ مـن حيائهـا، عجـز أن يـواري شـعور الفحولـة الممـتزج بحبـه لهـا، قالـت مشاكسـة ومغالبـة مـا سـال بينهمـا:

- جهزت السماديت (زي بجاوي)؟

أجاب إبراهيم: أحضرتها من الترزي ولكن...

قاطعتـه: بعدمـا تنتهـي مـن تركيـب الصيـوان أحضرها لأغسـلها. وانصرفت.

انتهـى الشـباب مـن إعـداد صوان النسـاء، الـذي غطت مسـاحته مسـاحة الحـوش.. تأكـد الجميـع أن عـدد البراميـل يكفـي لميـاه الـشرب، تبادلـوا النصـح في الاقتصـاد في صرف الميـاه. الرجـال يعتقـدون أن النصـح لا يبقـى طويـلًا في عقـول النسـاء، لذلـك تواطـؤوا عـلى ألا يعلـم النسـاء الاحتياطـي مـن المـواد التموينية

والمـاء، حـتى لا يسرفـن ويقـع الحـرج.. غـدًا اليـوم الرئيـسي في المناسـبة، فعـادة مـا يكـثر الـصرف في يـوم (المـداد) يـوم إعـداد الطحـين والذبائـح، عـلى حسـاب يـوم الوليمـة.

أحـضر إبراهيـم السـماديت وسـلمها لسـميرة.. ذكَّرتـه أن اليـوم وبعـد التاسـعة مسـاءً عندمـا ينهمـك النسـاء في العمـل والرجـال في ذبـح البهائـم عليهمـا أن يتسـللا للذهـاب لملاقـاة عمـه سـليمان، منبهـة إيـاه أن يهتـم بتبليغـه سـالفًا برغبتهـا في أن تلتقيـه اليـوم.

قال لها إبراهيم محاولًا استفزازها:

- أنـت طبعًـا فاكـرة عمـي سـليمان مشـعوذ عشـان كـدا عـاوزة تلتقيـه.

أجابته بسرعة: عاوزة أتأكد إن هو عارف...

- عاوزة تتأكدي من إيه؟!

غادرتـه وهـو منتظـر أن تكمـل، وبعـد خطوتـين التفتـت صوبـه قائلـة: امـشِ للظـل حـتى لا تحـترق مـن الشـمس.

غـادر إبراهيـم إلى البيـت المخصَّـص للضيـوف، حيـث العريـس ووزيـره وبقيـة أصدقائـه، وليتأكـد مـن وصـول صالـح عـم سـعيد العريـس، الجميـع كان يتوقـع أن ظـروف الحـرب والمعـارك الأخـيرة حـول مدينـة جوبـا في جنـوب السـودان قـد تحـول دون قدومـه. دخـل إلى بيـت الضيـوف وذهـب مبـاشرة

حيث يجلس الشباب وبادره أحمد: يا أبو خليل لقد كنَّا الآن بصدد تقسيم العمل، فحتى الآن كل الأمور تسير وفقَ ما رُسِمَ لها، وينتظرنا الكثير من العمل مساءً، لذلك من المفيد أن يخلد بعضنا الآن إلى الراحة، على أن نعود بعد مدة ليأخذ الواقفون على خدمة الضيوف قليلًا من الراحة.

أمَّن إبراهيم على الفكرة، واختار هو أن يستمر في الخدمة مع الذين يفضلون البقاء.

حتى الساعة السادسة ونصف، ومع اقتراب موعد صلاة المغرب، ظلَّ إبراهيم ورفقاؤه متنقِّلين بين النساء والرجال، حاملين من النساء طعامًا لضيوف جاءوا من مدن بعيدة، أو رادين أواني فرغ الضيوف من التهام ما بها من طعام، وتارة يختلقون المهام التي تزيد من ترددهم على أماكن الفتيات، لينعم من له شوق إلى إحداهن بما يطفئ نار الوجد. وبين الفينة والأخرى كان إبراهيم تلتقط أذناه بعضًا من أحاديث الكبار، الذين تحلقوا حول الرقيب بالقوات المسلحة؛ صالح عم العريس، وهو يحكي مرة عن أهوال المعارك، وفي أخرى عن خيرات الجنوب، وكيف أن الجنود في سيرهم وبلا أدنى مشقة يلتقطون أطيب أنواع الثمار التي تتساقط في الطرقات بعد أن أينعت في فرعها ولم تجد يدًا تتلقفها، فجادت بنفسها على الأرض.

العصر في البلدة ليس حصريًّا على رفع الأذان للصلاة، فهو كل زمن المساء إلى قبل بلوغ الغسق، عندما تتوارى الشمس

خلف صوامع الغلال، لتنهي رحلتها بمثلما ابتدأتها، فتطل على الناس من خلف التلال وتتوارى خلف مخازن الغلال، وكلما مالت عن كبد السماء ناحية الصومعة استطال الظل، إلى أن يبلغ نقطة (العصرية) أي الأصيل، وهي اللحظة الفاصلة بين النهار الطويل ودخول المساء. يطيب للناس فيها الجلوس في فناء الدار يفترشون الأسرَّة، أو على العتبات الخارجية يلتقطون الإذاعات العالمية على موجات المذياع. ثم إنه زمن النساء المفضَّل (للسالف) التواصل الاجتماعي.

اعتمر مجلس الرقيب بالقوات المسلحة صالح في فناء الدار، وأهل الحي جيئة وذهابًا مهنئين سعيد بزواجه الميمون، يتبادلون الأحاديث فيما بينهم عن لحظات مشابهة مرت بينهم عاشوها، مستطيبين ذكراها، وكثيرًا ما تكون عن أخطاء أصدقاء العريس، متندرين بالغرامات التي فُرِضَتْ عليهم من قبل صديقات العروس. لأن العرف يقضي بأن العريس زعيم، ومن أدواته السيف، وعلى أصدقائه معاونته في كل الأمور، وحمايته من أن يفقد إحدى لوازمه، التي يتصيدنها صديقات العروس، وكثيرًا ما تتربص أعينهنَّ السيف، لأن وقوعه في أيديهن يجعل أصدقاء العريس في موقع المستجدي، ولن ينجو ويسترد السيف إلا بعدما يولم لهنَّ. محذرين العريس وأصدقاءه من كيد الفتيات.

سنحت لإبراهيم فرصة اقترب من صالح الذي حياه، وسأله عن أخبار الوالدة وعمه سليمان كيف هو الآن. لم يكن

صالـح يتوقـع أن يـرى سـليمان بينهـم، فهـو وإن كان كثـير الغيـاب عـن الحـي، ولكنـه يتابـع الأخبـار ويخـص سـليمان باهتمـام خـاص. كمـا لـم ينـسَ أن يهنئـه عـلى النجـاح في الشـهادة الثانويـة.

- مبروك النجاح يا إبراهيم.

شكره إبراهيم متسائلًا: هل ستبقى بيننا طويلًا؟

أجابه صالح: نعم، فأنا في إجازتي السنوية.

- إذن ستخصص لنا بعض الوقت.

- إن شاء الله.

قالهـا صالـح الـذي اعتـاد الجلـوس مـع أهلـه مـن كل الفئـات، فهـو يـدرك أنهـم يأملـون أن ينجـز لهـم مـا يسـتطيع ومـا لا يسـتطيع. فالكبـار الذيـن يرغبـون في حـج بيـت الله الحـرام، شـكواهم الدائمـة أنهـم يخشـون الذهـاب إلى القمندانيـة، لأن المسـؤولين هنـاك يكـثرون جدالهـم وأسـئلتهم تعجيزيـة، بـل كثـيرًا مـا ينكـرون عليهـم أسـماءهم، فقـط لأنهـا لا تشـبه أسـماء حمـد حفـون، ويبالغـون في طلـب الشـهود، وشـهادة الميـلاد. فيضيـع الوقـت دون أن يحصـل أغلبهـم عـلى الجنسـية، ومـن لـه علاقـة بمسـؤول فهـو يكفيـه رهـق الأسـئلة. صالـح يتفهَّـم ذلـك، وهـو الـذي شـهد معركـة جـده الـتي تُـروى للأجيـال، فعندمـا قـرر الحـج ذهـب إلى الضابـط المسـؤول عـن التحـري

وبـدأ في اسـتجوابه بـدلًا مـن أن يسـتجوبه الضابـط بكلمـات لـم يفهـم منهـا الضابـط غـير مـن أيـن أنـت؟ ومـتى أتيـت إلى هنـا؟ حـاول الضابـط أن يـشرح لـه أن الصحيـح هـو الـذي يلقـي الأسـئلة وليـس العكـس!! الأمـر الـذي جعـل الضابـط المتحـري يسـتعين برتبـة أعـلى منـه. والأخـير لـم ينقـذه غـير ندائـه للسـاعي، إذ أمـر مسـاعده بـأن يحـضر لـه فـورًا السـاعي (الرطـاني).

السـاعي الـذي تحـدث إليـه ونقـل إليهـم أن هـذا الرجـل الطاعـن في السـن يريـد الجنسـية ليسـتخرج بهـا جـواز سـفر لأداء فريضـة الحـج، وسـيعيدها لكـم بعـد الحـج مباشرة، فهـو ليـس في حاجـة إليهـا. فأمـر المسـؤول بتسـهيل أمـره مـا أمكـن ذلـك.

خـبرة صالـح مـع أهلـه علمتـه الصـبر، ويعتقـد أن الإنصـات لهـم، هـو أقـل شيء يمكـن أن يفعلـه إزاء كل الطلبـات الـتي تـرد إليـه، فالنـاس هنـا متشـابهون، فليـس هنـاك اسـتعداد لأن يسـتمعوا، فالـكل يريـد أذنًـا مصغيـة وقلبًـا يعـي وينفـذ.

دخـل إبراهيـم إلى النسـاء باحثًـا عـن سـميرة، فالسـاعة الآن تقـترب مـن التاسـعة، تلفـت يمنـة ويـسرة فـلا يـرى غـير ابتسـامات الرضـا عـلى وجـوه النسـاء وهـن يلهجـن بالتقـري مشـفوعة باسـم سـميرة.

- إبراهيم.. إبراهيم.. إبراهيم.

جاءه صوتها من خلفه، ومع التفاتته كانت تقف وهي تشير إليه بأن يتبعها.

لم يشعر إبراهيم بأنه يسير على الأرض ولا هو سابح في الهواء، اختطفته شهقة من السماء، لم يفق منها إلا عندما سمع صوت سميرة تأمره بالجلوس على الكرسي ريثما تحضر فنجانين من الجبنة (القهوة).

بهاء سميرة بالزي التراثي، ربطة الفوطة البرتقالية على خصرها، تسريحة القداميت، الريشة على أنفها؛ عصفور سماوي جاء يبشر بالجنة.

عادت سميرة تسبقها نشوة وانشراح، تفيض أنوثة، جلست في الكرسي المجاور لإبراهيم، وضعت الجبنة على المنضدة. وهي التي لا تجد قدرتها على الحديث والاسترسال إلا في جلال هدوء إبراهيم.

سألها إبراهيم عن هذا الحبور الذي يملأ النفوس، وما السر وراء اسمها الذي تلهج له الألسن بالدعاء.

أرسلت سميرة نظرها إلى السماء، تنهدت، التفتت متأملة وجه إبراهيم، كأنها تقرأ في وجهه ما يعتمل في صدرها. أربكه وجهها الملائكي.. ماذا بك... عبثت بشعرها وبصوت خالطه الشجن قالت:

- أشعر دومًا أن أهلنا إحساسهم بالفرح غامض، في قاع

كل منهم شعور بالحزن الصارم، يحد من قدرتهم على الصراخ، يودون لو أنهم يطلقون دواخلهم من عِقالها، ينتشرون بين السماء والأرض، ترحل قلوبهم بأجنحة آمنة، لكنهم لا يستطيعون.

في قاعهم حزن يأكل رغبتهم في الفرح، تراه في أعينهم، خلف البؤبؤ. تتملكني رغبة أن أجمعهم في أرض فضاء بلا تفريق صغيرهم وكبيرهم، النساء والرجال، الصبية والخدج. الفتية والفتيات، أجلب كل طبول الأرض ليلهبوها قرعًا، ويغرقوا في أصواتهم، غناءً.. نحيبًا.. وعويلًا.

وألحُّ عليهم أن يداوموا على هذا الطقس، ما وسعهم ذلك، لا رقيب بيننا، يشيعوا هذا الحزن إلى مثواه الأخير.

تستمر سميرة في الحديث، وإبراهيم سابح في خيالها، بدا منهمكًا في تفاصيل سردها وكأنما الناس حقًّا امتلأت بهم الساحة عن آخرها.

- اختبرت اليوم أمنيتي.. حلمي يا إبراهيم.

سألها وهو مستغرق في ساحة خيالها: كيف؟

- لقد أرسلت من جهاز التسجيل عزفًا منفردًا على آلة المسنقو الوترية لحامد عبد الله، غير مصحوب بغناء لمدة قاربت خمس عشرة دقيقة، انبعث كالسحر، عم المكان الهدوء، وصمت الكبار والأطفال، كل من في الدار حبسوا

الأنفـاس، الحيـاة توقفـت، خفقـان القلـوب يتـسرب مـن بـين الصـدور يمـتزج بالنغمـات الوتريـة. شـعرت أننـا في البادية، بـين وقـع حوافـر الماشـية، وخـوار البقـر وهـي تعتلـف مـن خشـاش الأرض. سـمعت الأصـوات وكأن الوتـر يصـدر نغمًـا والبقـر يـضرب الظلـف لتنهـي وصلـة لحنيـة.

كنـت قـد جمعـت بعـض النسـوة، واتفقـت معهـنَّ عنـد إشـارة بعينهـا سـأوقف الجهـاز ويبـدأن الـضرب عـلى إيقاع سيسـعيت، ويتقدمـن إلى وسـط الـدار وأنـا ومعـي بعـض البنـات دخلنـا بصحبتهـن.

لـم تمـر ثـوانٍ حـتى تحولـت الـدار إلى سـاحة مصغـرة كالـتي تمنيتهـا، الـكل يغـني، اهـتزت الأجسـاد، كانـوا ظمـأى، ومـا زالوا، رأيـت الدمـوع تخـرج مـن مسـامهم، لـم يكـن ذلـك عرقًـا، فخلاياهـم تكتـنز الحـزن. تلـك الأرداف الـتي تراهـا، والأثـداء وكل مـا تتوهـم أنـه جسـد، هـو مسـتودع للحـزن.

انتبـه إبراهيـم، انسـياب الكحـل عـلى خديهـا كاد يشـاركها البكاء، تمـنى إبراهيـم أن يضمهـا إليـه، خـاف الأعـين، أسرعـت بعـض صديقـات سـميرة الخطـى نحوهمـا، حجبوهـن عـن الأنظـار وتنادين عـلى إحضـار مـاء، غسـلت سـميرة وجههـا، ربَّـت إبراهيـم كتفهـا وهـو يـواري غصـة في حلقـه، هـمَّ بالمغـادرة، ولكـن سـميرة أشـارت إليـه بالبقـاء.

نظـرت سـميرة إلى الجميـع بوجههـا الصـافي المبلـل بالمـاء وهـي

تبتسم أمام دهشة وحيرة صديقاتها، اللائي لم يطل بهنَّ المقام بعدها، فذهبن وشأنهنَّ.

التفتت صوب إبراهيم مداعبة عباراته:

- هل أعجبتك الفوطة التي أرتديها؟ غدًا سوف ألبس أخرى.. حرصت أن يكون لونها بلون صدريتك... إيه رأيك؟ لم تنتظر أن يجيب عن أسئلتها، فذهبت وعادت بجبنة أخرى ساخنة وصبت له في فنجانه، وهي تؤكد له أنها بزنجبيل زيادة كما يحب.

بدأت أسارير وجه إبراهيم بالانفراج، قال بصوت خافت: من أي السموات أنت؟ تأملته وهي تبتسم قائلة: بعد عشر دقائق من الآن علينا بالتحرك لعمك سليمان، فقط أمهلني لأتأكد أنه لن يفتقدني أحد.

اختارا العبور من خلال البيوت، فالمسافة بين بيت العرس وحيث سليمان قابع في قطيته لا تحتاج إلى عبور الشارع العام، فالبيت يقع في آخر المربوع، الذي يضم ستة بيوت لها أبواب يسمونها قدا أو باب نص.

دقائق معدودات وقفا بعدها بمقربة من شباك سليمان، تركها وذهب إلى إخطار عمه بوجودها.. دخلت إلى القطية كمن يدخل معبدًا.. وينوي الجلوس أمام صور القديسين، لا تسمع صوتًا لوقع أقدامها.

ألقت التحية.

وقف سليمان ورد لها التحية مرحبًا بها.

- هـذا هـو عمـي وتلـك سـميرة يـا عمـي. جملـة نطـق بهـا إبراهيـم.

جلسـت في مقعـد وعـلى مقربـة منهـا طاولـة يتخذهـا سـليمان مكانًـا للكتابـة مليئـة بـالأوراق، وبهـا الفانـوس الـذي يـضيء المـكان، وعليهـا كتـاب مـشرع. جالـت بعينيهـا في أرجـاء المكان.. لـم تجـد شـيئًا غـير أسرَّة للنـوم عددهـا ثلاثـة، وشـماعة بهـا ملابـس، وخزانـة نـاءت بحملهـا مـن الكتـب فأعاقـت بابهـا عـن الإغـلاق. وصناديـق مغلقـة وأخـرى مفتوحـة، كلمـا اتجهـت ببصرهـا إلى ناحيـة وجـدت كتبًـا في الأدب في السياسـة، التاريـخ، العلـوم، وفي الأديـان.

تعلـم أنهـا طلبـت رؤيـة العـم سـليمان وينتظـر منهـا أن تبـادر بالحديـث، لكنهـا تسـتمد شرعيـة صمتهـا مـن حضـور إبراهيـم. وفجـأة أنهـت الصمـت بالقـول إنهـا تعتـذر بدايـة عـن هـذا الاخـتراق لأجوائـه الخاصـة، ولكـن الذنـب يتحملـه إبراهيـم الـذي لا يتحـدث عـن أي شيء باسترسـال ممتـع مثلمـا يتحـدث عنـك.

اكتفـى سـليمان بابتسـامة تنـم عـن رضـا ورغبـة منـه ألا يقاطعها وهـي تتحدث.

- طبعًـا لا أسـتطيع أن أحدثـك عـن الكتـب والثقافـة، فتلـك أشـياء لا نملـك لهـا عقـولًا، فنحـن بكـد واجتهـاد وعـرق كنـا نسـتوعب المقـررات المدرسـية، وربمـا ثقـل دمهـا وتناقضهـا مع الواقـع لـم يـترك لنـا مجـالًا للتفكـير في أن ترافقنـا في حياتنـا مـا بعـد الدراسـة. وأحـد دواعـي حضـوري هـو الفضـول الـذي أثاره في نفـسي إبراهيـم بأنـك صديـق شـخصي للكتـب. فاندهشـت؛ كيـف لإنسـان في هـذا الزمـن اللاهـي يجالـس الكتـب!

تدخل إبراهيم: وما رأيك الآن ألم أكن صادقًا؟

أجابته بالنفي: طبعًا لا.

وأكملت: لأن الذي أراه الآن بين عمك والكتب مودة ورحمة.

ضحـك سـليمان بطريقـة لـم يألفهـا إبراهيـم في عمـه أبـدًا. وبـدا في لحظـة كمـن فـك مـن أسر طـال أمـده.

وقـال لهـا: أنـت أيضًـا مجتهـدة، وإبراهيـم دائمـا يخـبرني عـن ملاحظاتـك. وأخـشى أن لا يكـون ظلمـك ووصفـك بأقـل ممـا تسـتحقين.

هنـا تدخـل إبراهيـم محتجًّـا أنـه لا يسـتطيع تحمـل التقصـير مرتـين.

تحدثت:

- نحـن جيـل يبحـث عـن الرايـة، لا نعلـم أيـن هـي؟ هـل

تسـلمناها وضاعـت مـن أيدينـا؟ أم لـم نتسـلمها بعـد؟ أم إن الرايـة لـم تُحَـكْ ولـم تحـدد ألوانهـا؟!

دارت منهـا التفاتـة ناحيـة الكتـب الـتي عـلى المنضـدة، تأملـت عناوينهـا.

باغتها صوت سليمان:

- المعرفـة عمومًـا تجعـل الحيـاة أكـثر وضوحًـا مـن حيـث حركتهـا ومحمولهـا، وبهـا نتحـول مـن شـحنة عاطفيـة تائهـة إلى حالـة عقلانيـة، ولكـن الواقـع ومكابداتـه تجعـل منهـا حالـة اغـتراب. فأوصيـك بهـا.

كانـت تسـتمع لسـليمان وعيناهـا تجـول في القطيـة، أغشـتها رائحـة الكتـب، وأسـماؤها، قـرأت بصـوت مسـموع مـن ورقـة ملقـاة بجـوار كتـاب منسـوب إلى أبي حيـان التوحيـدي (إن الإنسـان أشـكل عليـه الإنسـان.. إن اللفـظ للعامـة والمعـنى للخاصـة). صمـت سـليمان وهـو ينظـر إليهـا ومـا غمرهـا مـن شرود. شـعرت سـميرة أنهـا في دار نسـك. أرخـى ذهولهـا عـلى جـو المـكان. انتبهـت فجـأة لمـا حولهـا وألقـت بسـؤال:

- طبعًا إبراهيم تكلم معك بلقائه الغريب مع الرجل التركي؟

أجابها سليمان نعم.

- يبـدو أنـك أعطيـت إبراهيـم معلومـات تاريخيـة أيضًـا، أنـا لـن أطلـب الآن معلومـات إضافيـة أو مزيـدًا مـن الـشرح مـع

أني محتاجـة.. ولكـن أود أن أحـكي مشـهدًا صادفـني في دائـرة حكوميـة، وأشـعر أن لـه علاقـة بمعلومـات تاريخيـة.

شـاهدت خارطـة قبائـل المدينـة الرسـمية معلقـة عـلى مكتـب مسـؤول كبـير، وبهـا قبائـل ليسـت مـن المنطقـة. وأهلنـا لا ذكـر لهـم فيهـا!! ويبـدو أن الأمـر ليـس عابـرًا.. هـل تعتقـد أن هنـاك قصـدًا مـن وراء ذلـك؟

تحـدث إبراهيـم مقاطعًـا سـميرة: أنـا تعبـت يـا عمـي وكلنـا تعبنـا وزهجنـا.... عايزيـن نفهـم.

تحدثت سميرة: ربما ليس الآن، ولكن ضروري قريب.

- أكيـد قريـب... وقريـب جـدًّا، وكما ذكرت لـك لا بـدَّ أن نتحول إلى حالـة عقلانيـة مـن خـلال المعرفـة. فالأمـر شـائك ومعقـد. أمـا عـن سـؤالك فـلا شيء عفـوي في هـذا الكـون.. وربمـا في ظـروف أخـرى يكـون هنـاك متسـع مـن الوقـت نسـتطيع معًـا أن نفهـم مـا يجـري.

ابتسـمت ووقفـت لتغـادر معتـذرة أنهـا تخـشى أن تغيـب كثـيرًا عـن بيـت العـرس، وطلبـت مـن سـليمان أن يلتقـوا مـرة في الأسـبوع عـلى الأقـل في حلقـة ثلاثيـة، ليـتزودا مـن علمـه ومكتبتـه. أبـدى سـليمان ارتياحًـا عظيمًـا للفكـرة.

عـادت هـي وإبراهيـم مـن ذات المنافـذ وهـي تـردد: الإنسـان أشـكل عليـه الإنسـان، تعـرف يـا إبراهيـم هـذه العبـارة بهـا

قـوة. إن عمـك سـليمان يملـك إجابـات عـن كثـير مـن الأسـئلة ومكتبـة غنيـة، فمنادمتـه سـتعود علينـا بفائـدة عظيمـة.

هـذا اللقـاء وعـلى عجالتـه، إلا أنـه زاد مـن حماسـها في الاقـتراب أكـثر مـن عالـم المعرفـة.

عـاد إبراهيـم إلى عمـه سـليمان بعـد أن اطمـأن أن سـميرة بلغـت بيـت العـرس، جلـس صامتًـا في انتظـار أن يعلـق عمـه عـلى اللقـاء.

لم يخيِّب العم أملَ ابن أخيه:

- ردود أفعالكما تجـاه حمـد حفـون مختلفـة، كل الأحاديـث الـتي كلمتـني عنهـا ونسـبتها إليهـا، ومـا تحتفـظ بـه في عينيهـا وقدرتهـا عـلى رسـم علاقاتهـا في الحيـاة تلـك صفـات ليسـت بـلا معـنى، بـل ذلـك في عمـق الشـخصية. لـم يسـتوعب إبراهيـم مرامـي حديـث عمـه، فـزاد طالبًـا الإيضـاح. فـأردف العـم سـليمان: من الناحيـة العامـة تشـتركان في الهمـوم، فهـي وأنـت تبحثـان عـن فرصـة للدراسـة الجامعيـة. وتتبـادلان همـوم أهلنـا، وبينكمـا عاطفـة قويـة وسـامية منـذ أن كنتمـا في الطفولـة والصبـا. ولكنـك لا تنظـر إليهـا في جانبهـا العقـلي كمـا يجـب، وهـذا يظهـر في غيرتـك الزائـدة عليهـا. حسـب قولـك لي إنـك تختلـف معهـا دومًـا في أن تزورهـا صديقتهـا برفقـة أخيهـا، والسـبب لأنهـم حمـد حفـون.

- نعـم يـا عمـي، لكـن أنـت عـارف نـاس حمـد حفـون نظرتهـم

للنـاس بهـا مشـكلة، ولا أعتقـد أنهـم صادقـين في علاقاتهـم بالآخريـن. ردَّ سـليمان وكأنـه فشـل في إيصـال فكرتـه إلى ابـن أخيـه، واكتفـى بالقـول المهـم: يـا إبراهيـم أعـد النظـر في فهمـك لسـميرة.

كان سـليمان واثقًـا كثـيرًا مـن صحـة مـا ذهـب إليـه، فتجربتـه في الحيـاة وضيـاع (إيـرات) الفتـاة الـتي أضاعهـا مـن يـده كمـا يعتقـد، جعلتـه يخـشى عـلى ابـن أخيـه مـن أن يضيـع سـميرة ويـشرب مـن الجـدول ذاتـه الـذي لا يـروي. كمـا يعلـم أن إعصـار الحيـاة الـتي لا تكشـف عـن غدهـا، ومفاجآتهـا الـتي جعلـت منـه مختبئًـا مـن ضـوء الشـمس، يبلـغ بـه الأمـر أحيانًـا أن يتمـنى لـو أن التاريـخ لـم يغـادر مرويـات الأجـداد، وتغـرق الحيـاة في المشـافهة، قبـل ميـلاد الأسـئلة. يعلـم أن مـا قالتـه عـن الخارطـة لـه خلفيـة تاريخيـة.

ويعلـم أنهـم لا يعلمـون أن القائـد فتحـي في القيـادة الشرقيـة بعـد خـروج الإنجليـز مـن السـودان جمـع لهـم، ونـادى المنادي أن أولاد عـد إريتريـون، لأن الإرتريـين أولاد عـد عليـه، لا بـدَّ مـن إجلائهـم مـن القيـادة الشرقيـة للقـوات المسـلحة، ولا مـكان لهـم بـين القـوات النظاميـة، وبعدهـا ظهـرت فصيلـة توريـت، أو مـا تسـميه الإذاعـة تمـرد توريـت، في جنـوب السـودان، عندها أسرع القائـد منادِيًـا أولاد عـد سـودانيون، فـلا بـدَّ أن يلبـوا نـداء الوطن.

حتمًـا إنهـم تعرضـوا لأسـئلة الزائـر الـذي يـأتي إلى مـدارس

الأطفـال، وكنـا نعتقـد أنـه مفتـش تربـوي ليسـأل الأطفـال مـن أنتـم؟ هـل أنتـم لاجئـون؟ كنـا نتلعثـم لـم نكـن نعلـم أنـه سـؤال مهـين، ولكـن يحمـد أن بعضنـا كان يكـره أن يهـان اللاجـئ فيقـف قائـلًا: أنـا لاجـئ. حـتى أضحـى الـتردد مذلـة، بـل تحـول الأمـر إلى ميـدان للفروسـية، مـا إن يـأتي الموظـف المكلـف بالسـؤال حـتى تجدنـا متحمسـين للوقـوف، والويـل كل الويـل مـن يدعـي أنـه حمـد حفـون. نعـم نحـن لاجئـون مـن إريتريـا، إجابـة تريـح المفتـش، وتجعلنـا نشـعر بأننـا أبطـال، نختـار شرف الانتمـاء إلى الثـورة الإريتريـة الـتي أطلـق شرارتهـا أهلنـا، عشـائرنا، ولا نرتكـب مـا يجلـب الـذل لنـا. بعضنـا هجـر السـودان ميممًـا وجهـه صـوب القتـال السـاحة الإريتريـة. لـم نكـن نعلـم أن الأمـر عميـق وبـه تجريـد مـن التاريـخ والجغرافيا.

انتبـه سـليمان إلى أن إبراهيـم غـادر في صمـت دون أن يقطـع عليـه حبـل أفـكاره، شـعر أنـه في حاجـة إلى قـراءة الشـعر، إلا أنـه عـدل عـن ذلـك، تنـاول مقالتـه عـن مجتمـع الدولـة ودولـة المجتمـع.

تجـاوزت السـاعة منتصـف الليـل، والاسـتعدادات في بيـت العـرس تجـري عـلى قـدم وسـاق، بعـض النسـوة منهمـكات في خـبز العجـين. والفتيـات تتقدمهـنَّ سـميرة جيئـة وذهابًـا يقدمـن يـد العـون لمـن ترغـب أو يعـددن الشـاي والجبنـة، وأم سـعيد والـدة العريـس تتجـول بينهـنَّ راسـمة عـلى محياهـا علامـات الشـكر مـع التمنيـات أن تغمـر الأفـراح بيـوت الجميـع، ومـا إن

تشاهد إحدى الفتيات إلا وتخصها بالدعاء (عقبالك يا بنتي).

أمام الباب، وعلى الشارع الفاصل بين البيت المخصص للضيوف من الرجال وبيت الزواج، حلقات من الشباب بعضهم يجلس على الأرض، وآخرون على كراسي من تلك التي اُستئجِرت خصوصًا للمناسبة. تنادي أحمد وإبراهيم وبقية الشباب لحمل السكاكين والأواني التي يحتاج إليها الرجال لتقطيع اللحم بعدما أجهزوا على الثور وبعض الخراف.

كانت سميرة ترقب الباب لعل إبراهيم يأتي لأخذ شيء يحتاج إليه الرجال، ولكنه لم يأتِ، ظل الشباب يتكرر مجيئهم عداه، الأمر الذي جعلها تستسلم لوسواس أنه وفي أثناء عودته من عند عمه سليمان عقب زيارتهما معًا إياه، ربما لم يعد بالممر نفسه عبر البيوت، وأراد العودة من الباب الرئيسي وتعرض لمكروه ما، أو ترى أنه من فرط التعب غلبه النعاس فنام، ليته ينام قليلًا، فما زال اليوم طويلًا، همت سميرة بمناداة أحمد لتسأله عن مكان إبراهيم، استعصى عليها الأمر كعادتها، فهي لا تميل كثيرًا إلى مخاطبة الشباب عدا إبراهيم، وتكون أكثر حذرًا مع أحمد، فعيناه كثيرًا ما ترسل إليها إشارات، تلحظ دومًا رغبته في الحديث إليها، وكثيرًا ما تراودها فكرة التحدث إليه لتخبره أنها تملك سببًا آخر غير إبراهيم للبعد عنه، إنه لا يروق لها كرجل لا يستهويها، لكنها سرعان ما تمنع نفسها

من الوقوع في هذا النوع من الأخطاء؛ تكره أن تؤلم إنسانًا.

قطع عليها حبل تفكيرها دخول إبراهيم حاملًا قدرًا مليئًا باللحوم، رماها بنظرة كانت كافية لتنبئها برغبته أيضًا في الوقوف قليلًا معها، اتجهت صوب المياه المعبأة في البراميل مدعية أنها تود إغلاقها حتى لا تلوثها الأتربة، أسرع إبراهيم حيث تقف وكعادته يقف دومًا مندهشًا وناظرًا إليها سابحًا في عينيها، وتنفعل بعد أن يغمر وجنتيها خفر، وتمسك بطرف أناملها حواف طرحتها الملقاة على كتفها بإهمال متعمد.

- قل ما شاء الله يا سحار.

يرد مبتسمًا: أتخافين من عيني كيلا تصيبك!

تفتعل صوتًا جادًّا وهي تلقي على سمعه التعليمات:

- عليك الذهاب إلى البيت وتأخذ قسطًا من الراحة، وتعود إلى الخدمة وقت الغداء، ولا تنسَ السماديت، وأنا أيضًا سآخذ قسطًا من الراحة، وعلي الحضور هنا مجددًا قبل الغداء بساعتين على الأقل، لأن العروس ستصل من كسلا نحو الثانية عشرة.

- إذن عليَّ الحضور في ذات الموعد.

سألته: لماذا؟

- لأن والـدي ذهـب مـع الوفـد الـذي غـادر إلى كسـلا، وإذا لـم يلحـظْ وجـودي بـين المسـتقبلين، سـيظن أنـني لـم أفعـل الواجـب كمـا ينبغـي.

- لا أعتقد أن والدك يسيء الظن بك إلى هذا الحد.

عاجلهـا بالقـول: إذن أتظنـين أنـني أود أن أرى بنـات كسـلا القادمـات مـع العـروس!

صمتـت قليـلًا وتبسـمت بثقـة قائلـة: لا تنـسَ وعـدي لـك دومًـا، عندمـا تـودُّ أن تتخـلى عـني لـن ألاحقـك، لـن أفعـل أبـدًا.

وهمَّت بالذهاب من أمامه.

ناداهـا بصـوت منخفـض مـليء بالتوسـلات: لحظـة مـن فضلـك.. تعـالي.

أجابت بجدية مصطنعة: نعم.

- لن أعود قبل موعد الغداء.

- أنت حر عد وقتما تشاء.

- لست حرًّا.. ولا أرغب في التحرر.

- ولكن عديني بأن نلتقي مساءً.

- هـذا يعـود إلى قدرتـك عـلى الالـتزام. ثـم قالـت مسـتدركة:

ثـم إننـا سـنكون معًـا هنـا أيـن تريدنـا أن نلتقـي؟! أم إنـك تريـد أن تقلـد صديقـك الـذي... لا داعـي، اذهـب الآن وخـذ قسـطًا مـن الراحـة ولنـا حسـاب.

لا يحتـاج أهـل الحـي إلى منسـق أو شـخص يوجِّـه، فهـي قواعـد ثابتـة متبعـة في كل المناسـبات.. مـا إن تـشرق الشـمس حـتى تجـد أن الـلائي قضـين الليـل مـن النسـوة في الإعـداد والتجهـيز، أو مـن الرجـال أولئـك الذيـن ذبحـوا للوليمـة، غـادروا إلى بيوتهم وتسـلم الأمـر آخـرون.

صبـاح مشـمس أطـلَّ من خلـف التـلال، والحدآت يجبن السـماء، يتحلقـن حـول بيـت العـرس، يتحـينَّ الفرصـة للانقضـاض عـلى اللحـم، النسـاء يعملـن بهمَّـة، القـدور متراصـة عـلى النـيران عـلى مواقـد كبـيرة وبعضهـا عـلى الأرض.

كلمـا اتجهـت الشـمس إلى كبـد السـماء، ازداد توقـع وصـول العـروس وموكبهـا، لا بـدَّ مـن إعـداد المشروبـات لصديقاتهـا، ووجبـة اسـتقبال خفيفـة لا تمنـع مـن تنـاول الوجبـة الرئيسـية للفـرح.

الأطفـال يقفـون عـلى رأس الطريـق القـادم مـن ناحيـة السـوق، يترقبـون المركبـات حـتى يزفـوا نبـأ وصـول موكـب العـروس، سـعيد يناديـه الجميـع بكنتيبـاي؛ أي الملـك والسـيد، هكـذا يقـضي العـرف.

يحمـل العريـس سـيفه بعـد أن يسـمد؛ أي يرتدي هـو وأصدقاؤه

جلبابًا أبيض قصيرًا عند حدود الساقين، وصدرية سوداء، وسروالًا أبيض يصل إلى نهاية الساق، ويكون أشبه بالشراع الصغير في المنطقة من نهاية الجلباب، ويزين عنقه بعقد من أصداف، وثوب أبيض يصل طوله إلى ستة أمتار، أشبه بالعمامة، ولكنه يؤتى به من الخلف، ويمرر لسان الثوب من تحت الإبط الأيمن ويعلق بالكتف اليسرى، أما اللسان الذي يمرر تحت الإبط الأيسر فيعلق على الكتف اليمنى، على أن يتقاطع في منطقة الصدر. فتظهر الصدرية السوداء على خلفية بيضاء وتقاطع الثوب في الصدر.

بلغت الاستعدادات ذروتها عندما تسابق الأطفال نحو النساء زافِّين نبأ بلوغ موكب العروس مدخل الحي، تداعى النساء عند الباب الرئيسي تسبقهم الزغاريد، اقتربت الحافلة من الباب وغناء صديقات العروس ينبعث منها ممجدًا أهل العروس ذاكرين محاسنها ونسبها وشرفها.

توقفت الحافلة تمامًا وترجَّل منها إسماعيل أبو إبراهيم، ومعه الوفد الذي سافر لإحضار العروس وإتمام العقد عند منزل ذويها، وبقيت الفتيات والنسوة اللائي أتين معها.

تبدأ طقوس التفاوض في إنزال العروس، صعدت امرأة مسنة إلى النساء في الحافلة، يتوقف الغناء فترحب بهنَّ، وتعدد لهنَّ شرف الزواج منهم وأن مقدمهنَّ بالعروس لهو فرح آخر، وتعدهنَّ بذبيحة تكريمًا، لهم ليسمحوا للعروس بالنزول ويسمى ذلك الكِرِيات.

تـم الاتفـاق، ومـن علاماتـه أن أطلَّـت المـرأة المفاوضـة قائلة ود حيمـة، أي طفـل مـن أم غـير مطلقـة وليسـت أرملـة. ويصعـد طفـل ويُعطـى رشـفة مـن الحليـب تمـلأ فمـه ويـرش بهـا وجـه العـروس تفـاؤلًا.

نزلـن مـن الحافلـة والغنـاء يمـلأ المـكان وهـنَّ عـلى شـكل دائـرة، متدثـرات بثـوب يحجبهـن والعـروس حفظًـا لهـا مـن العـين، يتبعـن خطـوات الدليـل إلى أن يبلغـن القطيـة الخاصـة بالعـروس، لتبـدأ رحلـة أخـرى مـن التفـاوض تسـمى السِـتِيات، فأهـل العـروس يمتنعـن عـن الـشرب حـتى تُلـبى لهـم بعـض الطلبـات يتـم لهـن ذلـك أيضًـا.

اسـتقر الضيـوف، بعـد أن أشـاروا إلى مسـتقبليهم بأنـه لا داعـي لأي وجبـة الآن، فـلا بـأس مـن انتظـار الوجبـة الرئيسـية. غابـت عـن هـذا المشـهد سـميرة الـتي نـال منهـا التعـب والإرهـاق وأضـاع منهـا لحظـة وصـول العـروس، فغرقـت في النـوم.

جـاءت في كامـل حلتهـا تتقدمهـا ابتسـامتها، سـارت مبـاشرة إلى أم العريـس معتـذرة بـأن النـوم غلبهـا. طمأنتهـا أم العريـس:

- لا عليكِ يا سميرة، فأنت كنت في حاجة إلى الراحة.

فـردَّت سـميرة: طالمـا تمنيـت أن لا أغيـب عـن تلـك اللحظـة، حـتى لا أعطـي فرصـة لبنـات كسـلا، فهـنَّ في التفـاوض في الكِريـات والسِـتِيات يبالغـن في طلباتهـنَّ.

ردت أم العريس: ما زال هناك أمران السِكِبات (أي وقت دخول العريس على عروسِه) وسيف العريس احذروهنَّ في ذلك.

ردت سميرة: إن شاء الله.

وانطلقت لتشارك الأخريات.

أغلق الصوان الذي نُصِبَ للرجال الشارع، وبدأ الرجال يتقاطرون، فرادى وجماعات، لم تأت ساعة صلاة العصر حتى كان الجميع قد فرغ من تناول الوليمة وتراصوا لأداء الصلاة جماعةً، وفي ذات المكان الذي أدوا فيه الصلاة نودي بالعريس الذي جلس بينهم وبدأوا له بالدعاء بالذرية الصالحة، وكان إسماعيل هو الشخص المناسب ليعشل* العريس، فهو رجل له زوجة واحدة ودحور؛ أي نال رضا والديه.

تقدم إسماعيل من العريس قائلًا: العشل يا إخوانًا.

التف الناس حول العريس وبدأ العشل:

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم ارزقه الطيبات، واملأ بيته مودة ورحمة. وتناول ثوبًا أبيض شفافًا أسدله على سعيد العريس الذي كان جالسًا كمن قام من وضعية السجود وبيده المصحف، وأمر بأن يفتح المصحف ويقرأ من أي سورة تصادفه ما تيسر. قرأ جهرًا سورة الإسراء من الآية

رقم ٢٠ التي تذكر بأن الله فضَّل الناس بعضهم على بعض في الحياة الدنيا وأن التفضيل في الآخرة بالتقوى.

قال إسماعيل «أحسنت»، وجيء بماء في إناء وبه من أوراق الشجر وسكب على رأس العريس من مائه، ووضعت على رأسه من أوراق الشجر لتكتمل به طقوس العشل ويبارك الحضور للعريس.

انفضَّت الجموع، لم يبقَ سوى نفر قليل، الفتيات والنساء ذهبن لإعداد أنفسهن للأمسية الكبيرة، الشباب وبعض الضيوف الذين أتوا من مدن بعيدة والقرى المجاورة تحلَّقوا حول العريس وأصدقائه.

عمار وأحمد أصدقاء إبراهيم ظلَّا في نقاش محموم مع بعض الفتيات، جيئة وذهابًا، يتساءلون عمن بحوزته أحدث الكاسيت للفنان زيدان إبراهيم أو صديق سرحان، حتى تُشغَّل في الليلة الكبيرة، أي بعد ساعات فقط من انتهاء مراسم العشل.

الهاجس الوحيد الذي يشغل أذهانهم أولئك الذين يعشقون قرع الطبول والرقص التراثي.

قال عمار مخاطبًا أحمد: لا أعتقد أننا في حاجة إلى تداول الأمر مع إبراهيم أو سميرة، لأننا لن نكسب تعاطفهما معنا، قد لا يعترضان على رغبتنا في أن تكون السهرة على أغنيات زيدان أو غيره، ولكن أيضًا لن يسعيا معنا في إقناع الآخرين.

- دعنا نجلس مع العريس لنكسبه إلى صفنا.

اقترب الاثنان من العريس سعيد الذي أفسح لهما مرحبًا بهما: أهلًا يا شباب.

بادره عمار: نحن في حاجة إلى مساعدتك.

- أبشرا أنا حاضر.

تحدث أحمد قائلًا: كما تعلم نحن نود أن تكتمل فرحتنا بزواجك ونبتهج اليوم على أنغام عدد من الفنانين، ولدينا الجهاز والشباب والشابات يعدون أنفسهم لذلك.

- هذا شيء رائع فأين المشكلة؟

- بعض أهلنا ما زالوا ينتمون إلى البادية لا يعرفون موسيقى ولا فنًّا، وكأننا لا نعيش في المدينة، يكرهون الاستماع للفن الحديث الراقي، فالمتوقع أنهم بعد صلاة الغرب مباشرة سوف تقرع الكبرو ولن نجد من يوقفها، فنحن في حاجة إلى تدخلك لصالحنا.

تبسَّم العريس: الجميع سيرقص ويطرب، وأعتقد يا شباب من الصعب أيضًا أن نحرج الآخرين، ولكن أعدكم بأن الكبرو تنتهي بعد صلاة العشاء بساعتين، ولكم ما تبقى من الليل .

حاول أحمد أن يضعف من أمل العريس قائلًا:

- يـا عريسـنا، الجماعـة ديـل إذا بـدأت الكـبرو يفقـدوا السـمع والبـصر وسـتتحول الـدار إلى سـاحة مولـد؛ لـن تجـد بينهـم مـن يسـمع، وبالـذات إذا شرعـوا في لعبـة سـومية.

هنـا انقلـب مـزاج عمـار قائـلًا: مـع أنهـا لعبـة جميلة. مسـتطردًا: عندمـا كنـا أطفـالًا نحـرص عـلى الاسـتيقاظ مـع أول خيـوط الفجـر لنبحـث عـن عمـلات معدنيـة سـقطت ليـلًا مـن جيـوب الرجـال.

- علـق العريـس موجهًـا حديثـه إلى أحمـد: أنـا عـلى اسـتعداد لأسـعى في الأمـر، لكـن يبـدو أن صـوت الكـبرو سـيجذبكم إلى سـاحته وينتـصر عليكـم.

نفى أحمد أن يحدث ذلك وترك الأمر للعريس.

كان إبراهيـم يراقـب الموقـف وهـو يبتسـم، ومـا إن رأى أحمـد وعمـار يبتعـدان مـن العريـس حـتى أسرع الخطـى نحوهمـا مناديًـا:

- أحمد.. يا عمار.

التفتا إليه وتواصيا على قضاء الأمر بالكتمان.

- إلى أين؟

أجـاب عمـار: كنـا نتسـاءل عـن جـدوى تواجدنـا الآن، فلمـاذا لا نذهـب لأخـذ قليـل مـن الراحـة، ونعـود لإدخـال العريـس إلى

عروسه ونقدم العشاء للضيوف ثم نعود إلى بيوتنا.

ضحك إبراهيم قائلًا: هل أفهم من ذلك أنكم قنعتو من الغنيمة بالإياب!

سأل أحمد:

- ماذا تقصد؟

- لديَّ أخبار اعتقدت أنها تهمكما، ولكن يبدو الأمر مختلفًا عن ظني.

لان أحمد في الحديث: يا أبو خليل، الخبث ليس من طباع الأكرمين؛ هات ما عندك.

- أريدكما أن تعترفا أولًا.. ما أمركما؟

رد عمار: المعركة المعروفة نحن والكبرو!

- إذن أحمل ما يهمكما، ولن أطيل، فقط أودُّ أن أفيدكما بأن بنات كسلا اللائي جِئن مع العروس، أكثرهنَّ من خريجات وطالبات مدارس اليونسكو بكسلا، ومعهنَّ جهاز تسجيل ضخم وعشرات الأغنيات الغربية.. البوني إم على رأس القائمة.

عمار: ماذا تعني؟

- أعني أن معركتكما تغيرت.. بدل أغنيات الخرطوم والكبرو

تدخـل طـرف دولي في الموضـوع؛ يعـني الفنـان زيـدان ذاتـو أصبـح كـبرو. أراكـم لاحقًـا مـع تمنيـاتي لكمـا.

فصل

دكان إسماعيل الرطاني لم يعد كما ذاع صيته، مأمون ود الطيب بدَّل في تجارته فلم يعد جاذبًا للرطانة. إسماعيل غادره في رحلة مفتوحة، فبعدما كان مركزًا لتجمع الرعاة به يحددون الاتجاهات الأربعة، ويستمعون إلى عذوبة ألحان حامد عبد الله وود أبلاي وأشعار ود جعيف وود عوال من أشرطة الكاسيت، جعله ود الطيب مركزًا لتجارة المحاصيل. وجلب ابن أخته الزبير لمعاونته، الذي لم تكن الفكرة محببة إلى قلبه، فالهجرة الداخلية في بقاع السودان لم تعد طموحًا لجيله بعد ظهور النفط في دول الخليج، ولكن برًّا بوالدته قَبِلَ على مضض المجيء والعمل مع خاله، وهو يعلم أن طموح والدته لا يقف عند حدود التجارة، بل رغبتها الأصيلة أن يتزوج من شامة بنت خاله مأمون، المشهور بود الطيب.

محل ود الطيب لا يختلف عن بقية المحلات بالسوق، فتعدد الأنشطة التجارية في المتجر الواحد أمر شائع، فهو

بائـع للخـردوات داخـل المحـل، وتاجـر محاصيـل بالفرنـدة، حيـث يعلـق الزبـير المذيـاع ليبـدأ يومـه بـرش الأرضيـة الخارجية للمحـل وهـو يسـتمع إلى أجمـل الأغـاني مـن برنامـج نفحـات الصبـاح.

كان الزبير يصدح مع المذياع:

نار البعد والغربة ... شوق لأهلي والصحبة

لـم يفـق إلا عـلى صـوت خالـه الـذي ترجَّـل مـن سـيارته البيـك آب الجديـدة، وهـو يلقـي بالتحيـة عـلى ابـن أختـه وهـو سـاخر منـه: يـا ابـن أختـي أنـت، غربـة داخـل السـودان جعلـت منـك شـاعرًا ومغنيًـا، فكيـف إذا سـافرت إلى الخليـج؟!

لـم يسـتجب الزبـير إلى منـاورات خالـه الكلاميـة، ووقـف عنـد مدخـل المحـل مناديًـا: يـا ولـد يـا ولـد.

حتى أتاه أحد صبية السوق.

- نعم يا عمنا؟

- امـشي جيـب اثنـين جبنـة مـن مـوسى الرطـاني وقُـل ليهـو (أخـبره) بـدون دوا (زنجبيـل) وبعديـن غَسِّـل العربيـة (السـيارة).

هـرول الصـبي ودخـل الزبـير إلى المحـل موجهًـا حديثـه إلى خالـه:

- أنـت كنـت في القـوات النظاميـة تتنقـل في مـدن السـودان

المختلفة منذ كان عمرك عشرين عامًا، وآخر محطة كانت القضارف، عملت فيها خمس سنين وتقاعدت، وزرعت أنا بمشي مسقط راسك بربر أكثر منك، والناس هناك بيعرفوك قصة، أما أنا أول مرة أغيب من قريتنا في الجزيرة أكثر من أسبوع، قبل ما أجيك هنا كان في وفاة جدي في بربر، فلا داعي للمقارنة.

جلس ود الطيب يرتشف من الجبنة وهو يعطي إشارات عامة عن حركة السوق وفقًا لما توفر لديه من معلومات، لا تتصرف في السكر حتى نضمن أن السوق مستقر، وأي تصديق جازولين مؤرخ قبل الموسمِ البلديةُ قررت عدم صرفه، لذلك لا تتعامل معه، وأنا متوقع حضور ود الماحي؛ اسأله أن ينتظر عودتي. الآن أنا عائد إلى المنزل وبعدها سوف أمر على البلدية وأعود إليك.

غادر ود الطيب السوق باتجاه بيته وهو لا ينوي العودة إلى المحل مثلما وعد الزبير، فقد درج على إخفاء الصدقات التي يوزِّعها على الفقراء بنفسه، بعيدًا من أقربائه وأصدقائه، يؤمن أن العين والحسد لا يردعهما غير التصدق، وتلك وسيلته المفضلة ليقارع بها أولئك الذين يتحدثون دومًا عن نجاحاته التجارية المستمرة، ودهشتهم المستمرة في أن محصول السمسم بكل ما في زراعته من مجازفة، وما يحتاج إليه من دقة في توقيت الحصاد، أو ضعفه أمام الرياح والآفات، غير أنه ميدان ود الطيب المفضل، كثيرًا ما يلعن

في سره أولئك الذين لا يُرفقون ذكر الله عندما يأتون على ذكر نجاحاته. بل لديه رحلات موسمية ثابتة إلى الإقليم الأوسط وشرق النيل لأخذ البركة والدعاء من الأولياء الصالحين.

تزامن مجيء موسى ليجمع أواني الجبنة من دكان ود الطيب مع انتهاء الزبير وأصحاب المحال المجاورة من تناول وجبة الإفطار، التي تتنوع أصنافها بين الفول المصري مضافًا إليه زيت السمسم، وجبنة مالحة، والبصل، ووجبة بالفرن المعروفة في المطاعم وأم رقيقة.

نادى الجميع موسى كل على حدةٍ: يا موسى الشاي.

عدا الزبير الذي أكد لموسى عدد اثنين شاي، أحدهما دون سكر لضابط المجلس ود الماحي الذي تناول معهم الإفطار.

اعتدل ود الماحي في جلسته وهو ينظر إلى ساعته السيكو.

- ود الطيب دا ما اتأخر يا الزبير؟

- نعم اتأخر لكن بيجي بعد شوية.

- على العموم أنا ماشي عندنا اجتماع في المجلس بخصوص سوق الطبالي والأكشاك الجديدة، وممكن ألاقيهو في النادي بعدين.

- طبعًا أنت وعدتني بثلاثة تراخيص.

- وأنـا عـلى وعـدي، وكمـان ود الطيـب حاجـز لجماعـة مـن أقاربـه.. عـلى كل حـال اليـوم في النـادي سـوف نضـع الكشـف النهـائي للاعتمـاد غـدًا.

تكتـم الزبـير عـلى المعلومـات الـتي وافـاه بهـا ود الماحـي، وهـو يـردد في داخلـه «القضـارف ابتسـمت»، فخطتـه تقـضي أن يجلب بعـض أقربائـه مـن الجزيـرة ليعملـوا في السـنة الأولى لحسـابه بالكامـل، وهـو بعلاقتـه الـتي نماهـا في السـوق سـيكتفي بإحضار البضائـع بأسـعار منافسـة وتسـديد مريـح، ومـن أربـاح العـام الأول مضافًـا إليهـا قـرض البنـك الزراعـي يـشرع في تنفيـذ حلمـه؛ زراعـة السمسـم. وتدريجيًّـا يتنـازل لأقربائـه عـن الطبـالي كليًّـا.

لـم ينـس ود الطيـب رغـم انشـغاله بتوزيـع الصدقـات أن اليـوم وليمـة شـيخ العـرب، الـتي لا يسـتطيع أن يتخلـف عـن حضورهـا، وكثـيرًا مـا تنعقـد في صـورة اجتماعيـة، ولكنهـا تحمـل الكثـير مـن الرسـائل الـتي ينتظـر منـه التقاطهـا، لذلـك حـرص عـلى أن يصـلي الظهـر في بيتـه حـتى يجـدد اسـتحمامه، ويرتـدي جلبابـه الـذي اشـترى قماشـه مـن أسـواق سـعد قـشرة بالخرطـوم بحـري، وحـذاء مركـوب مـن جلـد النمـر الأصـلي، عمامتـه عـلى طريقـة الفنـان ترباس، كالشـعلة.

لـم تكـن وليمـة شـيخ العـرب خاليـة مـن المفاجـآت، فعـلى الرغـم مـن حرصـه عـلى تكـرار الولائـم مـن حـين إلى آخـر، تـارة بـلا ضيـوف مـن خـارج المدينـة، وأخـرى عـلى صدرهـا ضيـف مـا، فـإن ضيـف هـذه الوليمـة عقـدت الوليمـة مـن أجلـه، لـم

تكن صلة القربى بينه وبين شيخ العرب هي الداعي، ولكن لأنه جاء يحمل نبأً من رئاسة الجمهورية يحمله بصفته وزيرًا وليس بصفته الشخصية.

خصص شيخ العرب قطية ١٦ ذراعًا للضيف والشخصيات البارزة، وبقية الضيوف من معلمين وصغار الموظفين في القطيتين الأخريين. على أن يلتقي الجميع لشرب الشاي في الحوش عندما يدخل زمن العصرية. توسط شيخ العرب المجلس وعن يمينه الوزير الضيف، وعن يساره كبير ضباط مجلس المدينة، وتوزع بقية الحضور من أطباء ومهندسين وعقيد من القوات النظامية وكبار التجار بينهم ود الطيب في ما تبقى من المقاعد في القطية الرئيسية.

كان الحديث يسير بطريقة أقرب إلى الفوضى المنظمة، فكل مجموعة تداول شأنًا ما، كرة، فن، اجتماعيات... إلخ.

ود الطيب كثيرًا ما يعمد إلى إثارة مواضيع تدفع الناس بعيدًا عن التجارة والزراعة، خوفًا من أن تردد الألسن والقلوب نجاحاته، حتى إن تظاهرت الألسن بأنها تتحدث بشكل عام عن مواسم الأمطار، لذلك لفت انتباه الجميع بسؤاله للضيف: سمعنا إنك من أولاد الشواطرة؟

ردَّ الضيف بتثاقل وتكلف تمليهما عليه ضرورات المنصب: نعم.

وهنا تدخل شيخ العرب مجليًا الأمر قليلًا: يا ود الطيب

السـيد الوزيـر عديلـك.

- عشـان كـدا يـا شـيخ أنـا سـألتو أنـت مـن أولاد الشـواطرة، لكـن الظاهـر الأسـتاذ مـا انتبـه لسـؤالي.

هنا خرج الوزير من عباءة المنصب ملقيًا قسمًا بالطلاق:

- عـليَّ الطـلاق بالثلاثـة أنـا عـارف إنـو لي عديـل في القضـارف، لكـن لأن الجماعـة بينـادوك بـود الطيـب دي شـوية شـتت تركـيزي، لأن الأهـل في البلـد هنـاك عندهـم ليـك اسـم ثـاني.

الجميع طالب الوزير بالله: يا سعادة الوزير قول اللقب.

صاح ود الطيـب: يـا أخوانـا مـا تنسـوا الراجـل عديـلي يعـني مـا في طريقـة يقيـف معاكـم.

محمـد أحمـد صديـق ود الطيـب اللـدود خبـير بـكل هواجسـه، تعمَّـد أن يسـأل ود الطيـب أمـام المـلأ: أنـت يـا ود الطيـب أبونـا آدم؟!

كل أجهـزة الاستشـعار في بـدن ود الطيـب تنبهـت لخطـورة اتجـاه الحديـث، تقصـد شـنو يـا محمـد أحمـد؟!

- مـا في ضيـف مـن المسـؤولين جـاء هنـا وإلا تربطـك بـه صلـة قـربى؟

- قل ما شاء الله، الله أكبر عليك.

هنـا قطـع عليهـم الحديـث أحـد الشـباب منبهًـا إياهـم أن الشـاي والإخـوان جاهـزون.

أخـذ الحضـور مجلسـه، وابتـدر الحديـث رئيـس المجلـس.. بعـد أن ذكـر اسـم الله وحمـده كثـيرًا:

- أرحـب نيابـة عـن شـيخ العـرب بالضيـف الكريـم السـيد الوزيـر، وأشـكركم عـلى تلبيـة الدعـوة والحضـور.

نعلـم جميعـا أننـا بالحديـث لا نسـتطيع إيفـاء شـيخ العـرب ابـن الأكرمـين حقـه.. ولكـن نحمـد الله أن ثـورة مايـو المجيـدة الـتي جـاءت لعـزة الإنسـان لـن يغيـب عنهـا أن تكـرم رجـالات المجتمـع، لذلـك دعـوني أقـدم السـيد الوزيـر ليبلغكـم رسـالة الرئاسـة فليتفضـل مشـكورًا.

لـم يكـن الحضـور في حاجـة إلى مكـبرات الصـوت، فالعـدد لا يتجـاوز الأربعـين، وتسـيطر عليهـم الرغبـة والفضـول أن لا تفلـت مـن آذانهـم كلمـة تخـرج مـن أفـواه المتحدثـين، فمـن صمتهـم وحسـن إصغائهـم تسـمع في أرجـاء الحـوش أصـوات العابريـن في الطرقـات، ونهيـق الحمـير النائيـة.

أخـذ الوزيـر هيئـة في الجلـوس تمكـن الحضـور مـن مشـاهدته، ذكـر اسـم الله، وحمـده كثـيرًا، وشـكر للجميـع حسـن الوفـادة: قبـل الآن لـم أكـن أعلـم أنكـم على تلـك الدرجـة مـن التواصل، بـل كنـت أظـن أن العمـل في الأقاليـم بـه مشـقة كبـيرة، وأعـترف أنـني كنـت مخطئًـا، فالتئامكـم اليـوم يجعلـني أعلـن عـلى

رؤوس الأشهاد أنكم تقدمون الأنموذج الوطني الذي تنشده البلاد، لذلك رأت رئاسة الجمهورية أن تكرمكم بدعوة شيخ العرب إلى حضور الاحتفال الرسمي لأعياد الثورة المجيدة في العاصمة.

صفَّق الحضور وتهامسوا فرحًا بإشادة الوزير.

- لن أطيل عليكم وأوصيكم بهذا الترابط، فالأعداء لا يريدون لبلادنا خيرًا.. والسلام عليكم ورحمة الله.

توالت الخطب؛ شيخ العرب، تلاه رئيس اتحاد الرعاة، ثم رئيس اتحاد المزارعين، وكذلك أصحاب الحرف ونقابة التاكسي. كان آخرهم حسن سيد أحمد المراسل الإعلامي للمدينة.

أكد للجميع أن إشادات السيد الوزير وهذا النبأ العظيم الذي أتى به من العاصمة سيكون خبرًا رئيسيًّا في كل وسائل الإعلام، وبهذه المناسبة سنسجِّل سهرة إذاعية وأخرى تليفزيونية لتُبثَّا في أعياد الثورة في المحطة القومية.. وختم حديثه وهمَّ الجميع بالذهاب إلى المسجد المجاور لأداء صلاة المغرب.

فصل

عندما أستيقظ في الصباح أضع يدي على رأسي، أستغرق في التفكير مستخدمًا أطرافي، بل الأصوب أنني لا أعي كيف يتحرك جسدي عندما أكون غارقًا في شأن. وكل الشؤون التي نفكر فيها عادة لا نصل إلى تسوية لها، بل الاستغراق في التفكير أصبح سمة عامة لنا، جميعنا مستغرقون في التفكير. حتى أمي غارقة في شأن ما، أبي المقعد أحسب أنه يتساءل هل تغير الواقع خارج سور المنزل؟ فمنذ أن توقفت رجلاه عن الحركة نسي الشارع ووجوه الناس إلا من يأتي لزيارتنا. يتساءل دومًا هل أمي تركت عاداتها التي كانت تزعجه، هل ما زالت تسعى بين الناس بالإفك، كان يتفقدها بالنداء: يا أم أحمد.. يا أم أحمد، فعندما لا تجيب ينتظر قليلًا ويعيد الكرَّة، ولكن بوتيرة مختلفة تظهر من خلال تغيره لكنيتها ويناديها يا ولت أب نواي؛ أي يا بنت صاحب الماشية، وعندما لا تجيب ويستبد به الغضب يلجأ إلى لقب التصق بها منذ طفولتها؛ حنقل شيطان أي رأس الشيطان.

سمعت صوت أبي وهو يناديها، وقبل أن يصل إلى اللحظة

الغاضبـة في نداءاتـه، أجبتـه نيابـة عنهـا:

رد عليَّ وكأنه يريد أن يذكرني باسمي: أحمد أمك وين؟

سـؤال يُطـرَح عـليَّ كلمـا غابـت أمـي عـن المـنزل، وأنـا لا أملـك غـير الإجابـة الصحيحـة: مـا عـارف يـا أبـوي.

- جهزت الحمار يا ولد؟

عـادة أبي عندمـا يسـأل لا ينتظـر إجابـات، فهـو يحتـاج إلى الشـعور بأنـه متفاعـل معنـا ومـا زال يحتفـظ بحقوقـه الأساسـية كـرب لتلـك الأسرة. أمـي لا تفطـن كثـيرًا لاحتياجاتـه النفسـية. ففـي بيتنـا لـكل امـرئ شـأن يغنيـه. تتجاهـل إخطـاره بأنهـا خارجـة لقضـاء أمـر مـا، علمًـا بأنهـا لا تفـارق الحـي فقـط أنهـا شـغوفة بمتابعـة أخبـار النـاس، ولعلهـا تعتـبر أحـد المصـادر الهامـة في معرفـة أخبـار الحـي. وأراهـا تترصـد دومًـا إبراهيـم وسـميرة، فهـي تعتقـد أن مـا دامـت سـميرة تتجنبـني واختـارت إبراهيـم دون العالمـين فـلا بـدَّ مـن إعطائهـا درسًـا. وأمـي بارعـة في ذلـك.

كنـت أنتظـر الشـباب حـتى نذهـب إلى محطـة القطـار، أزمـة ميـاه الـشرب الـتي بلغـت مرحلـة الانعـدام في المدينـة، لدرجـة أن الحكومـة قـررت جلـب ميـاه مـن خـزان سـنار بالقطـارات بعـد أن تـم تركيـب ناقـلات عـلى هيـاكل عرباتهـا، وأصبحـت كالقطـارات الـتي تنقـل المـواد البترولية.

أشيع أن القطارات تحركت في الرابعة صباحًا من مدينة سنار، ومن المأمول أن تصل المدينة عقب صلاة الظهر، أزمة المياه دفعت الأسر إلى امتلاك عربات خاصة لجلب المياه، وهي برميلان مفتوحان على بعضهما بعضًا، ملتحمين ليكونا برميلًا واحدًا بطول اثنين. مثبتان على إطارين ويجرهما حمار.

تأهبت وأعددت عربتي، ووقفت في الشارع التالي لمنزلنا منتظرًا الشباب. كان أول القادمين سليم الذي يقطن في نهاية الشارع المؤدي إلى الساحة الرئيسية في الحي، يختلف لون وطول وارتفاع حماره عن حماري، فحماره من النوع المكادي، بلون أبيض، فهو أغلى ثمنًا ويفضله بائعو اللبن، ولكن يشاع بأن قدرته على الأعمال الشاقة ضعيفة. لون حماري أسود، أنثى، وكثيرًا ما أتجنب حمار سليم خشية أن ينفرد بحمارتي وتُنجِب لنا هجينًا لا يصلح لقضاء حوائجنا، ثم إننا لا نرغب في أن تنشغل عنا حمارتنا بالحمل والمدينة تعاني شحَّ المياه.

حركة الناس باتجاه السكة الحديد من كل حدب وصوب، كأنهم ذاهبون لأداء نسك، لا وقت لديهم لتبادل التحايا، الكل يفكر في الثياب التي تراكمت وهي متسخة، أغلبهم لم تصافح الماء بشرته منذ مدة طويلة، رغم سخونة الجو، وانهمار العرق، بل البعض بات يخشى انقطاع العرق، فمن أين يأتي به إذا لم يشرب قدرًا كافيًا من الماء!

التـأم جمعنـا، كنـا نسـير كقافلـة، إبراهيـم في المقدمـة، وأنـا آثـرت مؤخـرة الركـب، وعمـار وسـليم يتوسـطان الركـب. سرنـا باتجـاه المنطقـة الصناعيـة، فـلا حاجـة لنـا بالسـير ناحيـة السـوق، فبإمكاننـا أن نسـلك طريقًـا مختـصرًا عـبر المنطقـة الصناعيـة، ثـم نعـرج ناحيـة البنـك الزراعـي، ومـن خلـف المستشـفى نـوازي حـي الموظفـين حـتى البنـك المركـزي، ثـم مـرورًا بمكاتـب الاتحـاد الاشـتراكي بجـوار المجلـس البلـدي، ثـم يسـارًا مـن أمـام المستشـفى إلى محطـة القطـار.

أحتـاج إلى رفـع عقـيرتي وأنـا أغـني ليبلـغ صـوتي إبراهيـم في المقدمـة، فأنـا عـادة أحتـال عـلى الشـباب في إخـراج قـدر معقـول مـن التطريـب في صـوتي، وهـذا لا يتـأتى لي إلا إذا كان أدائي بصـوت منخفـض، فأنـا لا أصلـح للغنـاء إذا زاد العـدد عـلى خمسـة أشـخاص وعـلى بعـد مترين مـني. ثـم إن حركـة النـاس في الشـوارع، مسرعـين أفـرادًا وجماعـات يسـكنهم الظمـأ، ومهمومـين بجلـب المـاء قـد تجعـل مـن فكـرة الغنـاء عمـلًا غبيًّـا.

جـال في خاطـري فجـأة سـؤال: هـل إبراهيـم سيقسـم المـاء بين أهلـه وسـميرة، أم إنـه سـيكتفي بمنحهـم مـا يطفـئ الظمـأ؛ أي صفيحـة أو اثنتـين في الزيـر للـشرب. وحتمًـا سـيحظى بنظـرة في جسـدها الـذي يرتسـم عـلى فسـتانها، كنـت أتمـنى أن تأتيـني حـتى لـو (كبنـت إبليـس) في المنـام، ليتـني أعلـم كيـف للمـرء أن يختـار مـن تأتيـه في اسـتحلامه، لـم أحـظَ منهـا بـأي اعتبـار..

دائمًا شغوفة بإبراهيم.

بلغنا المحطة قبل وصول القطار، مشهد الناس أشبه بيوم الموكب، عندما يزور الرئيس المدينة، فقط الفرق اليوم هو أن تلاميذ المدارس لا يرتدون الزي المدرسي، الكل متسخ، ورائحة العرق تجعل التنفس صعبًا، نساء وأطفال، شباب وكهول، منزوعو الرأفة ببعضهم بعضًا، فالأمر خرج عن سيطرة الجميع، لا فضل زاد يجودون به، فالكل سواسية، العطش ساوى بين الجميع، يتدافعون والقطار لم يصل بعد. أناس من قبائل الفلاتة، قبائل دارفور، أبناء كردفان، قبائل البجا، شكرية، ضباينة، بوادرة، قبائل الجعليين، الشايقية دناقلة. العطش والازدحام مشهد من مشاهد يوم القيامة، عاشه أهل المدينة قبل النفخ في الصور.

بوليس السواري بأحصنتهم يمنعون الجموع العطشى من الالتحام برصيف القطار، صوت فتاة تصرخ؛ تحرش بها أحدهم، شاهدت بأم عيني أحدهم ملتصقًا بامرأة لم أفهم هل هي منسجمة معه أم إنها لا تشعر بوجوده؟! لم تبدِ تذمرًا. توقفنا ولا ندري من أي المنافذ يمكننا الولوج، أشار إلينا إبراهيم بالبقاء في أماكننا حتى يستجلي الأمر، غرق إبراهيم في الجموع العطشى، عاد إلينا بعد خمس عشرة دقيقة تسبقه رائحة العرق تصدر منه رائحة خميرة، تمنيت معها أن ترسل سميرة أنفها لتعلم أن إبراهيم إنسان لا يتفوق على الآخرين، فإنه يتغوط ويعرق وتكون رائحته

نتنـة. لعلهـا تخفـف مـن غُلوِّهـا في التباهـي بإبراهيـم.

بادرته مناديًا: يا أبو خليل خير.. الخطة شنو؟

رد علينا جميعا قائلًا:

- لا أعتقـد أننـا قـادرون عـلى السـير معًـا، لذلـك مـن الأسـهل أن نقسـم أنفسـنا إلى مجموعتـين أنـا وأحمـد - هكـذا اختـارني معـه - وسـليم وعمـار، حـتى إذا احتـاج أحدنـا إلى العـون يطلبـه مـن أخيـه.

كنـت أتمـنى أن أرافـق عمـار أو سـليم، لأحـرض أحدهـم بالسـؤال عـن كيـف سـيتصرف إبراهيـم في المـاء، هـل سيقتسـمه مـع سـميرة وأهلهـا؟

لا أدري مـا هـو سر انصياعنـا لإبراهيـم، دومًـا يقبـل الشـباب مقترحاتـه، لدرجـة أنهـم أحيانًـا لا يفكـرون، ينشـدونه في أمـور كثـيرة، حـتى أنـا، وإن كنـت أجاهـد نفـسي كي أسـتقل عنـه، إلا أنـه يباغتـني بأنـه فكـر في الأمـر وكـوَّن صـورة كاملـة لـه.

يحتـاج المـرء في هـذا الحشـد إلى قـدرات إضافيـة، مـا إن أُعلِـن وصـول القطـار بعـد ثلـث سـاعة، فقـد تحـرك فعـلًا مـن محطـة أبـو النجـا مقطـع الشريـط، وهـي تختلـف عـن أبـو النجـا الأخرى الـتي لا أعـرف أيـن هـي بالضبـط.

لا يمكـن وصـف الجمـوع بالتدافـع، ربمـا تطاحـن، قـد تكـون أصـدق. عندمـا توقـف القطـار تمامًـا في المحطـة، لـم يكـن

هنـاك قطـار، اختفـى تمامًـا عـن الأنظـار. تحولـت الحشـود إلى قـوارض بأحجـام كبـيرة، ترتـدي خرقًـا باليـة لهـا رائحـة كريهـة تجمعـت فـوق بعضهـا بعضًـا في خـط مسـتقيم يبلـغ طولـه ثمانمائـة مـتر، وارتفاعـه ثمانيـة أمتـار عـلى طـول الرصيـف. اللحظـة الوحيـدة الـتي غابـت فيهـا القبليـة لصالـح الفرديـة، إنـه الظمـأ. مـن حسـن حـظ الجميـع كانـت الناقـلات المثبتـة في هيـكل القطـار محكمـة الإغـلاق، ومـن خـلال مكـبر الصـوت المثبـت في الأشـجار جاءنـا صـوت ينـادي:

- نرجـو الانتبـاه.. نرجـو الانتبـاه يـا جماعـة.. النظـام يـا جماعة.. الميـاه جـاءت لكـم.. كل إنسـان بياخـذ نصيبه.

فجأة تغير الصوت.. أطلق جملًا بسيطة، قال:

- أي واحـد المسـافة بينـه وبـين القطـار أقـل مـن مائـة مـتر سـيُلقى عليـه القبـض.

ثـوانٍ وامتـلأت المحطـة بقـوات مكافحـة الشـغب.. سُـيطِر عـلى الموقـف؛ وقـف الجميـع في خطـوط منتظمـة، الذيـن يحملـون الصفائـح الحديديـة لهـم صـف يشـاركونهم أصحـاب الأوعيـة البلاسـتيكية. أمـا الذيـن معهـم عربـات الـكارو بالحمـير فلهـم خـط. غـير مسـموح بعربـات الـكارو الـتي تجرهـا الأحصنـة؛ لكـبر سـعة صهريجهـا ولسـمتها التجاريـة، إلا إذا أثبـت صاحبهـا أن لـه شركاء؛ أي يقتسـم المـاء مـع آخريـن. المدخـل الـذي يجـاور مكتـب ناظـر المحطـة لأصحـاب الاسـتثناءات لـذا يمنـع

الاقـتراب منـه نهائيًـا.

أخذنـا أماكننـا في صـف الحمـير، جـاءني إبراهيـم مسرعًـا، قـدَّم لي أحـد الأشـخاص بلقبـه.

- دا أخونا أبو تلاتة.. ودا أخونا أحمد.

قـال موجهًـا حديثـه إليَّ: أخونـا أبـو تلاتـة سـيحل مـكاني وكأنـه صاحـب العربـة، وسـألتقيكم عنـد الجامـع بعـد التعبئـة.

أجبتـه: لا بـأس، ولكننـا لسـنا بعيديـن مـن التعبئـة فأرجـو ألا تتأخـر.

أسرع وهو يشير إليَّ بيده علامة اتفاق.

لا أعتقـد أنـني أملـك لغـة للتواصـل مـع أخونـا أبـو تلاتـة، بـل كل الدلائـل تؤكـد أن أبـو تلاتـة زاهـد في الحديـث مـع شـخصي، فهـو واضـح أنـه مـن قبيلـة تختلـف عـن زي القبيلـة الـذي يرتديـه. ولقـد ذهـب مباشرة ليداعـب الحمـار. أخـرج الجلبـاب الأفريقـي الـذي كان يرتديـه، فظهـر أنـه كان يلبـس تحتـه سروالًا بجاويًّـا ويغطـي صـدره بفانلـة حمـراء، وعـلى ذراعـه تعويـذة مغلفـة بجلـد، إذا انحـنى يظهـر عـلى منطقـة الحـزام خيـط سـميك مـليء بالتعاويـذ، كأنـه أحـد جنـود المهـدي يتأهـب لمعركـة كـرري.

لـديَّ مـا هـو أهـم مـن متابعـة شـخص ثلاثيـني يغـوص في عالمـه، تلـك فرصـتي لاسـتدراج عمـار وسـليم لمعرفـة كيـف

سيعالج إبراهيم ظمأ سميرة ووالدتها، هل سيقاسمهم الماء؟! توقُّعي أنه سيطلب من الإخوة أن يجودوا ببعض مائهم. إذا جاد عمار بصفيحتين ومثله سليم وإبراهيم صفيحتي ماء تكون حصة سميرة عربة كارو كاملة، ويرتفع رصيد حبيبنا عندها.

سليم لا أعتقد من السهل استدراجه، وربما أسمع سيلًا من الإرشادات والوعظ الديني، أما عمار فهو رجل يشتهي النميمة وإن كان لا يمارسها، لا ينقل خبرًا، ولكنه يهوى الاستماع لتفاصيل الآخرين، الطريقة الوحيدة لإخراج المعلومة منه هي أن تذكر معلومة خطأ ليملك هو الصحيحة.

هأنا أقترب من عمار:

- يا عمار ألم تجد لحمارك علفًا أفضل من الذرة؟

- وماذا بها الذرة؟

- لا شيء، ولكن إبراهيم دومًا يكرر أن الذرة تصيب الحيوانات بالإسهال.

- ربما يقصد إبراهيم البقر.. ولا أعتقد أنه خبير بتغذية الحيوانات، حتى يفتي.

- هل تريدني يا عمار أن أوصل الماء إلى بيتكم، بدلًا من أن ترهق الحمار ذهابًا حتى منزل سميرة مع إبراهيم وينتظرك واقفًا وعليه الحمولة.

- ومـن الـذي قـال لـك بأنـني وإبراهيـم بيننـا اتفـاق عـلى الذهـاب إلى مـنزل سـميرة؟

- لا أحد.. ولكني تصورت أن الأمر يحتاج إلى مساعدتي.

- هيـا الآن الـدور التـالي في التعبئـة لنـا، ولا تنـسَ أن إبراهيـم ينتظرنـا جـوار الجامـع، لـم يكـن هنـاك داعٍ إلى أن ينـصرف عنَّـا ويكلـف أحـد الأشـخاص بمتابعـة عربتـه والتعبئـة باسـمه.

أكـون فشـلت جزئيًّـا، ولكـن مـن الواضـح أن إبراهيـم لـم يتفـق معهـم عـلى شيء، وأنـا عـلى يقـين مـن أنـه لـن ينـسى حـظ سـميرة وأهلهـا مـن المـاء.

إنـني أخـشى عـلى حمـاري مـن التباطـؤ، فهـو يدَّعـي المـرض عندمـا أهـم بعمـل مـا، آمـل أن لا يخذلـني اليـوم، فـلا سـبيل أمامـه إلا أن يتعـاون معـي. فوالـدتي لـن تغفـر لي إن لـم أجلـب المـاء اليـوم. فالأمـر أشـبه برحلـة صيـد؛ مـن لـم يـأتِ بصيـده لـن يجـدي نفعًـا التـذرع بالازدحـام عـدم التكافـؤ في التوزيـع، وربمـا أول مـرة حرصـت الحكومـة عـلى أن تمنـع ثـورة العطـاش مـن القيـام، لذلـك سـارت العمليـة بشـكل سـلس.

هـا هـم الشـباب تجمعـوا أمـام الجامـع عـدا إبراهيـم وأبـو تلاتـة.

- أين إبراهيم يا عمار؟

- لقد كان مضطرًّا إلى الذهاب.. ولكن لماذا تأخرت أنت؟

- إنه حماري.

- حمـارك لا يعيبـه شيء، ولكـن الطريقـة الـتي وضعـت بهـا الحمولـة تضغـط عـلى ظهـره، ثـم إن حـزام البطـن يعيـق حركـة أقدامـه.. لحظـة أنـا قـادم.

لـم يكلفـني عمـار بعمـل، بـل أحـضر معـه عـودًا أسـند إليـه عارضـة العربـة، فأصبـح العـود حاملًا لهـا بـدلًا مـن الحمـار، وأعـاد تسريـج الحمـار بعـد أن عـدل مـن وضـع المسـاند واللبـاد، فأصبـح الجـزء الخشـبي أعـلى مـن ظهـر الحمـار منعًـا للاحتـكاك. وأعـاد ربـط الحـزام في المنطقـة الوسـطى.

انطلقنـا ناحيـة الحـي وكان الوقـت قبـل صـلاة المغـرب بنحـو السـاعة، فاقترحـت عـلى الشـباب أن نأخـذ طريـق السـجن المركـزي ثـم نسـير بطريـق النـص.

لقـد أسـدى عمـار لي معروفًـا بإعانتـه لي في وضـع الـسرج كمـا ينبغـي، وإلا لأسـمعتني أمـي مـوالًا شـجيًّا. لـن أغـني لعمـار وسـليم في رحلـة العـودة مـا دام إبراهيـم غائبًـا، فالغنـاء بحـضرة إبراهيـم لـه مـذاق سـميرة.

تـرى مـا هـي خطـة إبراهيـم؟! هـؤلاء الخبثـاء يكتمـون عـني أمـرًا يعلمونـه جيـدًا. لا يمكـن لإبراهيـم أن يغـادر دون أن يذكـر لهـم وجهتـه.

- يا عمار أين أبو تلاتة الذي كان شاغلًا مكان إبراهيم؟

- لقـد ذهـب إلى شـأنه. أجـاب عمـار، وإبراهيـم لحـق بالرجـل صاحـب الـكارو التجـاري، فلديـه نصيـب مـن مـاء الـكارو.

- انتبه لحمارك يا عمار حتى لا يسقط في الحفرة.

الآن فهمت...

إذن هنيئًا لسميرة وأهلها الماء وهنيئًا لإبراهيم بجسدها.

فصل

الرقيب بالقوات المسلحة صالح، رجل خمسيني، فارع الطول، ذو شارب، أكسبته العسكرية وجهًا ذا ملامح تميل إلى الصرامة والجدية والأناة والصبر. منذ أن جاء من مناطق العمليات الحربية بجنوب السودان لحضور زواج أخيه سعيد، يعقد مجلسًا يوميًّا مع أهله من الحي وخارجه، يجلسون في الحوش على ثلاثة أسرَّة مغطاة بملاءة بيضاء مطرزة بخيوط بلون سماوي. تنظم على شكل هندسي من ثلاثة أضلاع، ويترك الضلع الرابع لإضافة كراسي من البلاستيك المعقود على مواسير، مع ترك جزء للمرور إلى دائرة المجلس عند تقديم الجبنة أو الشاي.

يأتون إلى المجلس كل يحمل شكواه، فالبعض يودُّ أن يسأل عن يوميات المعارك في الجنوب، وهل المتمردون يحققون انتصارات أم إن الحكومة صادقة في أنها دحرتهم. وتطوف أسئلة أخرى عن الخيرات الزراعية التي ينعم بها الجنوب، وأسئلة عن الحيوانات المفترسة التي تنتشر فيه، وهل هناك جيش إسرائيلي يساند المتمردين؟ وهل الكثير

مـن الجنوبيـين مـا زالـوا يعيشـون حيـاة الإنسـان الأول؟ حفـاة عـراة، غـير مستأنسـين. سـقف التوقعـات العـالي والعشـم الزائـد في قـدرات صالـح مـن الجميـع لا يصيبـه بضجـر، بـل يجـد في نفسـه بعـض الحـرج مـن أنـه لا يسـتطيع أن يوقـف سـيل تسـاؤلاتهم بإجابـات جذريـة. ظـل إبراهيـم وأصدقـاؤه يـترددون عـلى مجلـس صالـح رغبـة في الجلـوس معـه، وصالـح يعلـم أن الشـباب يفضلـون الجلـوس معـه بمعـزل عـن كبـار السـن، اتفـق صالـح مـع إبراهيـم عـلى الحضـور بعـد صـلاة العشـاء.

في اليـوم الأول مـن الأسـبوع الأخـير مـن إجازتـه التـأم اجتمـاع صالـح بالشـباب الذيـن بلـغ عددهـم ثمانيـة، إضافـة إلى إدريس ابـن عـم صالـح حـل ضيفًـا عليهـم في طريقـه مـن مدينـة كسـلا قاصـدًا الخرطـوم. جلـس الجميـع يتوسـطهم صالـح يحـاول أن يسـأل كل منهـم عـلى حـدة عـن أحوالـه وأحـوال أسرتـه، حـتى يضمـن أن الجميـع يشـعر باهتمامـه بهـم.

أخـذت الجلسـة وقتًـا في المجامـلات تبحـث عـن مبـادر يشـق الطريـق للحضـور، ويزيـح عـن كاهـل الجميـع وطـأة التكلـف، أحمـد بجسـده النحيـف اتخـذ مكانًـا قصيًّـا يرسـل النظـرات في أوجـه الحضـور وهـو أكثرهـم ضيقًـا مـن الجلسـة، جـاء وهـو لا يحمـل في جعبتـه أي نـوع مـن الأسـئلة، ونظرتـه إلى صالـح لا تتجـاوز حـدود القرابـة الاجتماعيـة، فـكل همومـه وقضايـا مسـتقبله ينظـر إليهـا ضمـن همـوم الرابطـة الشـبابية للحـزب

الـذي يعمـل في الظـلام، فأعـين نظـام مايـو مفتوحـة ترصـد دبيـب النمـل عـلى سـطح الصخـور الملسـاء، لذلـك كان يشـير إلى إبراهيـم بـين الفينـة والأخـرى بـأن يبـادر ويخرجهـم مـن هـذا الوضـع.

جهـر إبراهيـم بصـوت يبلـغ مسـامع الحضـور شـاكرًا صالـح ومعتـذرًا إليـه بأنـه لـم ينـاده بالعـم، حـتى لا تكـون المسـافة بعيـدة بينـه وبـين الحضـور. ومضيفًـا أنهـم يعلمـون أن عامـل الوقـت قـد لا يسـمح بالكثـير لذلـك - واتجـه هنـا حديثـه إلى صالـح - في كل عـام يجلـس عـدد منا لامتحـان الشـهادة الثانوية، ورغـم الدرجـات العاليـة الـتي كثـيرًا مـا يحرزهـا الشـباب، فـإن إيجـاد مقعـد دراسي في الجامعـة بـات حلمًـا صعـب المنـال، إضافـة إلى أن البعـض منـا لا يتمكـن مـن اسـتخراج الجنسـية نتيجـة للعراقيـل الـتي نعلمهـا جميعًـا.

أخـذ الشـاب سـليم دون اسـتئذان في الحديـث ليؤكـد مـا ذهـب إليـه إبراهيـم مضيفًـا أن: المتحـري في مكتـب اسـتخراج الجنسـيات يعمـل بـلا مرجعيـة واضحـة، فمعلوماتـه عـن القبائـل هـي الفيصـل، فـإذا كان سـمع بالقبيلـة مـن قبـل فأنـت محظـوظ، أمـا إذا كان حديـث عهـد بـشرق السـودان فلـن تجـد منـه غـير الإلغـاء. وبعضهـم يدفعـك دفعًـا إلى التعامـل معـه مـن خـلال شـخصيات بعينهـا تفـرض عليـك أتعابًـا إضافيـة لإقناعـه. وهـذا يدفـع البعـض إلى الجلـوس للامتحانـات ببطاقـة لاجـئ إريـتري، بـل أن تكـون لاجئًـا أفضـل، فهـذا يريحـك مـن

عنـاءات كثـيرة.

أكمـل إبراهيـم الحديـث: نحـن لا نـود أن نثقـل عليـك، ونعلـم أنـك قضيـت وقتًـا كافيًـا بـين النـاس، ولكـن هـذا الأمـر بـات يـؤرق الأجيـال، وتسـبب في وجـود ظواهـر عـدة أهمهـا الفاقـد التربـوي مـن مراحـل دراسـية مبكـرة، إذ الـكل بـات ينظـر إلى التعليـم الـذي ينتهـي عنـد محطـة امتحـان الثانويـة مضيعـة للوقـت، فيغـادرون مقاعـد الدراسـة ويمـدون سـوق العمـل بعمالـة بـلا قيمـة حقيقيـة. فنحـن نريـد مخرجًـا مـن تلـك الدوامـة.

صمـت الجميـع في انتظـار صالـح أن يعلـق عـلى مـا سـمع، لكنـه كان ينتظـر فـراغ أحـد صغـار الأسرة الـذي جـاء حامـلًا شـايًا للحضـور تفـوح منـه رائحـة القرنفـل، فبـدأ مـن يمـين المجلـس يـوزع كـؤوس الشـاي وهـو يتلقـى الثنـاء والإطـراء.

أخـذ صالـح رشـفة مـن الشـاي وأعـاد الكـوب إلى المنضـدة الصغـيرة الـتي كانـت أمامـه. شـكر الجميـع عـلى شـعورهم العـالي بالمسـؤولية تجـاه مجتمعهـم، وأكمـل قائـلًا: أرى أن الحديـث الـذي سـمعت يناقـش مشـكلتين، الأولى عامـة، وهـي المتعلقـة بوجـود مقاعـد في الجامعـة، فمـن المعـروف أن كل المـدن تعـاني نظـرًا إلى عـدم التناسـب بـين عـدد الجامعـات في السـودان وعـدد الطـلاب الذيـن يجلسـون للامتحانـات.. وأظـن أننـا لا نسـتطيع أن ننظـر إليهـا كمشـكلة خاصـة أو أننـا كقبائـل مسـتهدفين.

أما الجزء المتصل بالإجراءات في المكاتب، وعلى وجه التحديد المتعلق بالعمل في مكاتب الشرطة والجوازات، وبوصفي رجلًا أنتمي إلى القوات النظامية، أؤكد أنه ليس صحيحًا بالمطلق أن جهاز البوليس يعمل به أناس غير أكفَاء، قد يكون هناك بعض الأخطاء، ولكن التعميم خطأ أكبر. ولا ننسى أيضًا أن البعض من أهلنا جعل الأمر مشروعًا استثماريًّا، فيأخذ من الأهالي مبالغ موهمًا إياهم بأن المتحري لن يسهل أمر المعاملة دون إعطائه مبلغًا على سبيل الرشوة. وإذا ذهبنا غدًا إلى مكتب الجوازات سنجد أناسًا من أهلنا نحسبهم محترمين ولكنهم سماسرة.

في تقديري يا شباب - وهنا أتى على كوب الشاي الذي بات أشبه بعصيرِ شايٍ فقد سخونته - عليكم بالعمل بمحاربة ضعاف النفوس بيننا أولًا، ثم نعالج المشكلات المزمنة التي تواجهنا.. وأنا شخصيًّا أدعوكم إلى الإيمان بالمستقبل.

هنا طلب الحديث الضيف إدريس، وهو قصير القامة، مفتول الذرعين، أعسر، كان يجلس في أحد الكراسي مقابلًا محمود، وعلى يمينه ويساره يجلس الشباب. وهو أحد كوادر تنظيم الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا.

ابتدر حديثه قائلًا: أنا يا شباب اسمي إدريس، ربما لا تعلمون أنني تربطني بكم صلة قربى مباشرة ببعضكم وغير مباشرة بالبعض - كان يتحدث ويده اليسرى تتحرك في الهواء - ويؤسفني حقًّا أنكم ما زلتم تعيشون قضايا حسمت

تاريخيًّا - يصمت ويجرد الحضور بنظرة استنكارية - ولم يحسمها أناس غرباء، بل أجدادكم وأعمامكم من الرعيل الأول للثورة الإريترية، لم يكونوا على استعداد أن يعيشوا منقوصي الكرامة، سواء كان في السودان أم في إريتريا، فامتلكوا خيارهم وانحازوا إلى خيار الثورة الإريترية، وكان بمقدورهم أن يعيشوا في السودان، وهم مثلكم يدركون حقوقهم التاريخية في السودان، لكن الأمر كان بالنسبة إليهم ليس بقيمة ما يعرفون من معلومات عن حقهم التاريخي، بل أين بإمكانهم أن يعيشوا بكرامة.

استطرد قائلًا: الأغلال التي تكبلكم في السودان قضى عليها جدكم إبراهيم سلطان بثورته الاجتماعية التي حطمت كل أوثان السلطة، فلا وسطاء بين الثورة والمجتمع، أنتم أبناء المجتمع ومستقبلكم في إريتريا، أما إذا كان خياركم أن تعيشوا تحت رحمة حمد حفون فهذا شأنكم، ولكن الثورة الإريترية هي لتحرير الإنسان قبل الأرض.

كان صالح مأخوذًا وهو يستمع لضيفه وهو يلقي خطبته الثورية، وهنا أراد أحد الشباب أن يتكلم، إلا أن يد صالح بإشارة منه كانت حاسمة. وكان واضحًا أن صدره يعلو ويهبط من شدة الغيظ، لكنه اجتهد ما وسعه الأمر ألا يقع فريسة لغضبه.

بدأ حديثه وهو يتكئ براحتيه على السرير، حتى كادت أكتافه أن تلتصق بأذنيه: رُوِيَ أن أحد الملوك كان صديقًا

لأحـد الخطبـاء المعروفـين، وكان نديمـه في مجالسـه الخاصـة جـدًّا حيـث الطـرب والحسـان والأنخـاب. اتفـق أن الملـك حـضر خطبـة في المسـجد لصديقـه الـذي ألهـب الشـعور وأبـكى الجمـوع بتذكيرهـم بأهـوال القيامـة وعـذاب القـبر، فامتـلأت الحناجـر بالبـكاء، والصـدور بالنشـيج. فبعـد أن فـرغ الخطيـب مـن أدائـه اقـترب مـن الملـك، فقـال لـه الملـك لـولا صداقتنـا وأمسـياتنا لبكيـت لخطبتـك العظيمـة.

مـن يسـتمع لكلامـك يـا إدريـس ولا يعـرف الحقائـق يعتقـد أن تنظيـم الأحبـاش الـذي تنشـط فيـه يؤمـن بمـا تقـول، مـن الـذي أدخـل الجبهـة إلى السـودان ولمـاذا؟ مـن الـذي يصفـي جسـديًّا قيـادات عسـكرية مـن الرعيـل الأول ولمـاذا؟

- نحن لم نفعل ذلك.

- أنـت لا تسـتطيع.. أنـت مأخـوذ بالشـعارات وتنظيمـك لـم يوجـده الحمـاس الثـوري.

ردَّ إدريـس بغضـب: جبهـة التحريـر أدخلتهـا القبليـة الـتي تأكلكـم هنـا في السـودان، والـتي سـتظل كاللعنـة تطاردكـم جيـلًا بعـد جيـل.

- ولكـن الآن تنظـرون إلينـا كمتطرفـين دينيـين أيضًـا فأيهمـا نحـن، أليـس فصيـل الشـعبية المسـيحي هـو الـذي اسـتحوذ عـلى الثـورة؟

وهنـا تدخـل سـليم: تنظيمكـم يغتصـب بنـات المسـلمين ويدفـع بهـنَّ إلى الحـرب.

- يـا ابـني لا يوجـد في إريتريـا إنـاث وذكـور ولا مسـلمون ومسـيحيون، بـل هنـاك ثـوار.

علـق صالـح عـلى كلام إدريـس بلسـان التقـري قائـلًا: (سـنيت مـن صبابحـه)؛ أي الأشـياء الجيـدة تعـرف مـن بداياتهـا، واسـتمر الحديـث بلسـان التقـري وغـاص وجـاس في شـعب كثـيرة، تـاه الشـباب وضاعـت ملامـح الحديـث ولـم يجد بـدًّا من المغـادرة.

عـلى بعـد أمتـار مـن عتبـة البـاب الخارجـي للمـنزل وقـف الشـباب وكان أول المتحدثـين أحمـد:

- أنـا شـخصيًّا لـم آتِ وفي نفـسي رغبـة أن تحـل لي قضيـة هنـا، فالأمـر عنـدي كأن شـيئًا لـم يحـدث. وأضـاف عمـار: الأسـبوع القـادم أنـا بـإذن الله في السـفارة العراقيـة بالخرطـوم.

تفـرق الشـباب وكل منهـم ملـك خيـاره بالمغـادرة إلى جهـة مـا، عـدا إبراهيـم الـذي لا يملـك غـير البقـاء في القضـارف نظـرة إلى ميـسرة.

جلـس إبراهيـم صامتًـا أمـام عمـه سـليمان الـذي كان كعادتـه منهمكًا في تقليـب صفحـات الكتـب كمـن أضـاع سـطرًا أو جملـة لا يعلـم أيـن اسـتقرت، هـل هـي قصيـدة أضاعتهـا السـنون، أو معلومـة، حكمـة صينيـة. إبراهيـم بـدأ يتسـاءل: مـا جـدوى

التعليم الجامعي وما بعد الجامعي إذا كانت النهاية كتلك التي يعيشها عمه، هل المطلوب أن نعلم المزيد من المصطلحات والمفاهيم لنبدل وعينا، ولكن الواقع لا يتبدل منذ جدي، فالأمر سيَّان بالتعليم أو دونه الواقع لا يتغير.. ثابت، البقر والأقلام ليست هي التي تأتي بالفرق، الحياة أكثر غموضا. رحل حكم نميري ونعيش الآن حقبة تقدمتها شعارات ملأت الدنيا ضجيجًا، والضجر لم يغادرنا، من هاجر في حقبة مايو سيجد ألف مبرر الآن للرحيل، أن يحكم السودان فرد أو تحكمه جماعات تزعم أنها البديل الأفضل لا تتبدل النظرة إلى أهلنا وواقعنا ثابت.

لماذا نحن؟ ما هو الشيء الذي يدفع الإثيوبيين إلى ملاحقة أهلنا في إريتريا، ولماذا يضيق بنا السودان الفسيح، أهلنا يرددون أن أرضنا تنتهي في مدينة سنار في وسط السودان وتغطي مساحات شاسعة من غرب البحر الأحمر، لنا مدينة سواكن التاريخية ومصوع في إريتريا ولنا... ولنا... ولا نملك من ذلك سوى قصص الأهل.. لسنا مدونين في كتب التاريخ المدرسي.

حتى تلك الجبهة التي قالوا إنها من صنع أهلنا في إريتريا، سرقت لأنها رجعية ومتخلفة، والآن (القوى الوطنية) التي تقود الثورة الإريترية التي نسمع أنها تقاتل إثيوبيا، وأن معظم قياداتها من الأحباش كالأثيوبيين ويعتدون على قرى أهلنا وفتياتهم وبقرهم. يبدو أن البقر تجلب اللعنات

والمس والخذلان، وإلا ما معنى أن بقرنا تنفق في السودان وأطفالنا أيضًا وذات الأمر في إريتريا.

باغته سليمان هامسًا: يا أبو خليل أراك تشاركني الليل ألا تود أن تنام؟!

- ما هي قصتنا يا عمي؟

- لم أفهم سؤالك!

- لا أريد أن أفهم نحن وحمد حفون، ولكن ألم يترك أهلنا فرصهم في السودان وأسهموا في الثورة الإريترية، بل جازفوا بإدخال السلاح ومنهم من حصدته آلة الحرب الإثيوبية؟

- نعم، وأكثر من ذلك.

- ما دام نعم وأكثر من ذلك.. ما الذي جعل الجبهة تخرج من الساحة الإريترية، لدرجة أن بعض الجنود فضلوا الانتحار بدلًا من تسليم السلاح للقوات المسلحة السودانية؟

ترك سليمان ما يحمل في يده من أوراق كان يقلبها واعتدل في جلسته، وهو يعلم أن ابن أخيه يلقي من الأسئلة ما ضاق بها صدره الصغير.

- ما بالك اليوم تحمِّل نفسك ما لا تطيق؟ لا تلاحق الأسئلة.

- لم أذهب إلى الأسئلة، بل الحياة هي التي تمدنا بها صباحًا

مساءً، بدليل أنني لم أعلم بموضوع الجنود الذين انتحروا إلا الآن، وتلك حادثة مضى عليها زمن وعلق بها تراب الأيام. الذي أريد معرفته سيل أهلنا من إريتريا يتدفق ملاحقين من إثيوبيا، والآن من تنظيم الجبهة الشعبية، وهناك أنباء أنها تقتل القيادات في كسلا وعلى مرأى من الأمن الوطني في كسلا، فما ذنب أهلينا ليواجهوا كل ذلك؟!

استمر إبراهيم في الحديث وبدأ يروي ما سمعه من قصص إلى أن قال: يُقال إن الثوار الإريتريين جاءوا ذات مرة بوفد طبي من أوروبا، وتزامن قدومهم عبر السودان مع اشتداد المعارك قرب الحدود، فمكثوا غير بعيدين من ريف مدينة كسلا ريثما تهدأ المعارك، فامتد وجودهم زمنًا، كانوا يتجولون في هذا الريف البائس، فلاحظوا أن إحدى القرى بها أكثر من ثلاثين أسرة، ونساءها معظمهنَّ لم يبلغن سن الأربعين، وأن عدد الأطفال بها محدود جدًّا مقارنة بعدد الأسر.

فتقدمت طبيبة أوروبية كانت مع الوفد بتدوين ملاحظاتها، وأخذت معها الممرضة المكلفة بمرافقتها وذهبتا إلى البئر التي يردن منها الماء لترى وتسأل كيف يعيش هؤلاء الناس، ظنًّا منها أن المنطقة موبوءة بأمراض الطفولة، ولكن هالها ما اكتشفت.

- ماذا اكتشفت؟!

- أن الرجـال في هـذا الريـف يرتـادون مدينـة كسـلا لـشراء احتياجاتهـم، ويمكثـون هنـاك بعـض أيـام يرتـادون فيهـا بيوت العاهـرات ويصابـون بالأمـراض الـتي تصيـب الجهـاز التناسـلي وينقلـون العـدوى إلى نسـائهم، الأمـر الـذي أدى إلى انتشـار العقـم في القريـة، بـل قيـل إن رائحـة الصديـد الـذي مـلأ فـروج النسـاء جعلتهـنَّ كمـن يحمـل جيفـة بـين فخذيـه.

قـل لي يـا عمـي مـا هـو الفرق بـين هـؤلاء النسـوة أو أخواتهـن في القـرى الإريتريـة الـلائي تحصدهـنَّ إثيوبيـا أو تلاحقهـنَّ الجبهـة الشـعبية تنظيـم الأحبـاش، وبـين البقـر الـتي نفقـت ومـا زالـت؟

يبحـث سـليمان عـن مدخـل آمـن يعينـه عـلى جلـب الطمأنينـة إلى ابـن أخيـه، إذ ليـس الأمـر متصـلًا بإعطـاء إجابـات تفـسر الكـون بقـدر مـا تهـدِّئ خواطـره.. عـلى الأقـل الآن.

شـعر سـليمان أنـه في حاجـة إلى طـرح سـؤال مغايـر أو إثـارة أي موضـوع ليغلـق مؤقتًـا تلـك النوافـذ. أول مـرة يشـعر بأنـه لا يرغـب في التحـدث إلى ابـن أخيـه الـذي تحـول إلى مـادة قلويـة إذا لامسـت سـطح أي جلـد تصيبـه بحـروق.

- إيه أخبار سميرة؟

- سـأراها غـدًا. كنـت طامعًـا أن أفهـم بعضًـا مـن تلـك الأجـواء الديمقراطيـة الـتي نعيشـها، وأهـم سـؤال لـديَّ هـل آل الميرغني بجـا؟ وهـل نحـن كمـا قـال لي الأسـتاذ مـرة لدينـا مشـكلة هويـة؟

رد سـليمان قائـلًا: أكيـد ليسـت لدينـا مشـكلة هويـة، لأننـا نعـرف أنفسـنا مـن نحـن تاريخيًّـا. مـن لديـه أزمـة في التاريـخ ودومًـا يـود أن يعـرف مـن أنـت هـو الـذي يعـاني.

رد إبراهيـم: لمـاذا كلمـا أود معرفـة معلومـة دينيـة أو سياسـية عـن أهلنـا تجـد ذكـر آل الميرغـني، سـواء كان في السـودان أم إريتريـا؟ فقـط الحقبـة الوحيـدة الـتي لـم يشـاركوا فيهـا كانـت الثـورة الإريتريـة، عـلى الرغـم مـن أنهـم شـهدوا مـا يعـرف بمرحلـة تقريـر المصـير، والآن هنـا لاحظـت أنهـم يسـعون للتحـدث باسـمنا وكأننـا مـن موروثاتهـم!! البعـض مـن أهلنـا في الديمقراطيـة يمتثلـون لأوامرهـم، لذلـك تصـورت أنهـم تربطنـا بهـم صلـة قـربى أو مـا شـابه ذلـك.

- أتفـق معـك تمامًـا يـا إبراهيـم أن هنـاك أسـئلة تمـلأ الحيـاة، ربمـا أنـت مـا زلـت في العوالـم الأولى لتلـك الأسـئلة، لذلـك تشـعر أنـك في حاجـة إلى جسـد إضـافي ليسـتوعب تلـك الأسـئلة الجارحـة الحارقـة، ولأنـك تتسـاءل؛ اتـرك مسـاحة للزمـن لعلـه يأتيـك بالأنبـاء، وأعتقـد أن خيارنـا الوحيـد أن نتكيـف مـع الواقـع.

- إذا كان الخيـار وحيـدًا فإنـه لا يسـتحق أن نطلـق عليـه خيـارًا، بـل هـو أمـر قـسري، مفـروض علينـا.

- إذا كنـت سـترى سـميرة غـدًا لا تنـسَ أن تأخـذ معـك الكتـب الـتي طلبتهـا.

فصل

الأمسيات لدى ود بال عاي تتعدد وتتلون حسب الأغراض، ولكل أمسية طقس يمارسه، فليالي الأنس يزينها حسب الأهداف المضمرة. أن يجلس في داره بعد صلاة العشاء ويحتسي (العرقي) بمقدار يتناسب مع نواياه وخططه الليلية، فهو يزن العرقي بالكباية، فإن أراد قضاء الليلة مع زوجته احتسى كبايتين، وإن احتسى كباية واحدة ويرافقه فيها الراديو متنقلًا بين الأغنيات والبرامج التثقيفية فذلك يعني أنه لا ينوي أكثر من الاستماع للموسيقى. وكثيرًا ما يتباهى بأنه من القلائل في تلك المدينة الذين يستمعون لأغنيات من المشرق العربي ومصر.

يحفظ مقاطع من أغنيات أم كلثوم، ويعتقد أن الشاعر السوداني الهادي آدم صاحب أغنية أغدًا ألقاك يا خوف فؤادي من غدٍ، التي تغنت بها أم كلثوم هو أفضل المتعلمين في السودان، لأنه أنتج قصيدة اخترقت الفضاء العربي من خلال أفضل الأصوات، أما بقية المتعلمين

فيتظلمـون مـن الإهمـال العـربي لهـم. فتلـك بكائيـة، وهـو رجـل يعتقـد أنـه صاحـب برنامـج، وأن البكائيـات لغـة الفقـراء الأغبيـاء، وإذا تعلمـوا يـزدادون فقـرًا وغبـاءً أو غـنًى وغبـاءً. فهـو خُلِـقَ ليعيـش الحيـاة لا أن يطـارد هواجـس لا يعلـم مـن أيـن جـاءت. شـنفت أذنيـه أول مـرة فـيروز مـن إحـدى الإذاعـات وهـي تغـني زهـرة المدائـن. وعندمـا رددت:

عيوننا إليك ترحل كل يوم

تطوف في أروقة المعابد

تعانق الكنائس القديمة

وتمسح الحزن عن المساجد

ظـل يلـح عـلى كل المغتربـين أن يأتـوه بشريـط عليـه زهـرة المدائـن، ومـا إن امتلكـه حـتى حفظهـا وجعلهـا دليـلًا عـلى صحـة برنامجـه. ففـي الأمسـيات الفخمـة الـتي يؤمهـا كبـار المسـؤولين، سـواء كانـت في روضتـه أم خارجهـا يسـتعرض بالقـول إن تلـك الفنانـة تقـول معابـد، كنائـس، مسـاجد كلهـا أديـان وهـي تحـب كل الأديـان، فكذلـك هنـا كلكـم قبائـل فلاتـة بجـا نوبـة عـرب عيشـوا الحيـاة خلقتـم لتعيشـوا.

ود بالعـاي مسـتمع مـن طـراز رفيـع يكـره القـراءة، يحفـظ الكثـير مـن الأشـعار والأمثـال عـبر الإذاعـات وكبـار السـن، وتلـك هـي أدواتـه الـتي يتصـدر بهـا مجالـس الكبـار. ويغلـف

نقـده بالدعابـات والقفشـات. فتعـرف لـه المجالـس الكثـير مـن ذلـك. فعـلى سـبيل المثـال معـروف أن المدينـة لديهـا أزمـة مزمنـة في شـح يصـل إلى درجـة الانعـدام في ميـاه الـشرب، وأن أحـد أحيـاء حمـد حفـون يقـع بعـد حـي أولاد عـد مـن ناحيـة مركـز المدينـة، ولقـد رُبِـطَ حـي حمـد حفـون بخـط ناقـل لميـاه الـشرب مـن خـزان كبـير يقـع خـارج المدينـة، ليصـبَّ في خـزان شُـيِّدَ خصوصًـا في تـل عُـرِفَ لاحقًـا بجبـل الخـزان، ويمـر الخـط أمـام بيـوت (أولاد عـد)، وبحكـم أنـه ينتمـي إليهـم اجتماعيًّـا سـمع منهـم الكثـير مـن التقريـع واللـوم، وظلـوا يـرددون عـلى سـمعه أن الرسـول ﷺ رُوِيَ عنـه أنـه قـال: (النـاس شركاء في ثـلاث: المـاء والـكلأ والنـار)، وأنـه عليـه السـلام لـم يفـرق بـين النـاس عـلى أي أسـاس، حـتى الكافـر شريـك إلا إذا كان في حالـة حـرب. بحكـم علاقاتـه حـاول أن يسـتفسر مـن المسـؤولين عـن هـذا الأمـر، وكان الـرد أن حمـد حفـون أوصلـوا الخـط المـائي بأموالهـم الخاصـة والحكومـة لا دخـل لهـا بالأمـر.

أُفتتِـح الخـزان مـن قبـل محافـظ المديريـة، وكان هـو أول مـن طبـق الشريعـة الإسـلامية في السـودان في محافظتـه الـتي أغلـق حاناتهـا ولاحـق أصحـاب الخمـور البلديـة. ود بـال عـاي كان ضمـن الذيـن وُجِّهَـتْ لهـم الدعـوة لحضـور الافتتـاح الـذي خاطبـه المحافـظ وقـصَّ الشريـط إيذانًـا بتدفـق المـاء لحـي حمـد حفـون. وأيضًـا حـضر المأدبـة المقامـة عـلى شرف المحافـظ.

وفي أثناء المأدبة اقترب ود بال عاي من المحافظ وقال له بصوت قصد أن يُسمِعه لبعض الحضور:

- البجا عايزين صهريج حليب.

رد المحافظ وعلت وجهه الدهشة: كيف؟!

- تطبيق الشريعة عمل رائع ويرضي الله.

رد المحافظ وهو مأخوذ: الحمد لله.

- إغلاق البارات وسكب الخمور في مواقع النفايات يحفظ شباب البلد.

والمحافظ يردد: الفضل لله.

- أوصلت المياه.

المحافظ يردد: نعمة من الله.

- طيب ما تعمل للبجا صهريج حليب.

أجاب المحافظ: لم أفهمك يا أخي ولكن...

بدأ المحافظ يروي لود بالعاي والحضور عن التجربة الهولندية في الاستفادة من منتجات البقر كأحد الموارد الهامة للاقتصاد الهولندي، ناصحًا الجميع بالمبادرات المبتكرة لدفع عجلة الاقتصاد الوطني إلى الأمام.

فطن ود بال عاي أن رسالته لم تجد حظها من الاهتمام أو لم تصل وضلت طريقها فعلَّق: يا سعادة المحافظ نحن بنبني بيوتنا من روث البقر ودي الهولنديين لسه ما وصلوها.

يتفاخر ود بال عاي لندمائه بمغامراته النسائية، ويشبه الجنس بالشعر، ويقول للمرأة دور أساسي في الإلهام به وأن اللحظة الجنسية تستمد قوتها من خيال المرأة، وأنها علاقة جنية بين الإنس كما الشعر صوت الجن بلسان الإنس.

كان الوقت مساء الخميس، ارتدى ود بال عاي جلبابًا أبيض وحذاءً إيطاليًّا كان قد اشتراه من أسواق مدينة جدة في أثناء عمرته، ولم ينسَ أن يتعطر كعادته، تحرك بعربته قاصدًا النادي، لا بدَّ أن يعبر السوق لبلوغ النادي، في أثناء مروره بجوار سينما الخواجة رأى طابور البشر يلتف حول السينما كثعبان طوق فريسته، نظر إلى ساعته، ما زال الوقت مبكرًا على بدء العرض؛ خمَّن أن يكون الفيلم هنديًّا. فحظ الهنود من المشاهدة في هذه المدينة وافر تليهم أفلام رعاة البقر الأمريكية فالأفلام العربية.

انعطف يمينًا ناحية مركز الإطفاء ثم توقف أمام محل للتصوير، كان يود الاستفسار عن المدة التي يحتاج إليها فيلم من ثلاثة وثلاثين لقطة، اعتذر له صاحب المحل لعدم وجود تلك الخدمة. نقاط ضعف المدينة هدف بحد ذاته لود بالعاي، ليس بالضرورة استفساره عن تحميض فيلم أن يكون لديه فيلم، لكنها معلومة قد يستخدمها في

المجالـس ليؤكـد أن المدينـة حُرِمَـتْ مـن هوايـة التصويـر.

مـع خروجـه مـن مـكان التصويـر صـادف مـرور إبراهيـم الـذي ألقـى عليـه التحيـة وبـدا لـه مسرعًـا.

- تعالى يا ولد.. هكذا ينادي ود بال عاي الشباب.

عاد إبراهيم: نعم يا عم ود بال عاي.

- نعـم يـا عـم ود بـال عـاي طويلـة، ليـه مـا تناديـني يـا عـم الأمـين؟

أجاب بأدب: آسف يا عم الأمين.

- أخبـار أبـوك كيـف مـع الغربـة. ولـم ينتظـر منـه جوابًـا، أردف: عـلى ويـن العـزم.. طبعًـا لصـف الفيلـم الهندي.

ردَّ إبراهيـم وهـو ينظـر إلى سـاعته وشـعر أن ود بـال عـاي يريـد أن يزجـي وقتـه:

- يـا عـم الأمـين الصـف طويـل أشـوفك مـرة ثانيـة ونقعـد نتونـس.

رد ود بـال عـاي: إيـه رأيـك أنـا أخالـف ضميـري وأعزمـك شـاي، وجـرب يمكـن برنامجـي يكـون أفضـل مـن الصـف المعفـن بتـاع السـينما. أدعـوك إلى جـو صحـي.

- وين؟

أجاب ود بال عاي: النادي.

- يا عم ودبال عاي عليك الله ما تضيع وقتي.

- ما قلنا عم الأمين يا ولد.

- أنا آسف.. لكن أنت عاوز تودّيني لمكان ما فيهو غير حمد حفون.

ود بال عاي ساخرًا: وجمهور السينما رطانة!!

- السينما فيها كل الناس. وأنت تقول رطانة أنت ما رطاني؟

رد ود بالعاي: أنا أتشرف بأهلي لكن ما بشيل جهل الناس في رأسي.

- تقصد شنو؟

- أنت ما عاوز تمشي النادي فاكر في أسد في الباب!

- أمشي النادي عشان أصحح أخطاء وأشرح التاريخ ويتحول الموضوع إلى مشكلة!

- اسمع يا ولد، أنا ما فاضي الآن لكن في أشياء في كتب عمك سليمان غير موجودة بس ممكن تلقاها في النادي. وإذا أنت تركت أي إنسان وشعر بغيابك ممكن يخلع ملابسه ويمشي بيدينو (يديه).

إبراهيم متسائلًا: لم أفهم!

ردَّ ود بال عاي باستهزاء معيدًا لإبراهيم جملته: (لم أفهم).. نحن في مسلسل تاريخي يعني عايزني أقول ليك اغرب (عن وجهي).. امشي لفلمك الهندي عشان الأسد ما يأكلك.

تحرك ود بال عاي بعربته متجها إلى النادي تاركًا إبراهيم بجوار السينما. انعطف يمينًا ثم يسارًا متجهًا نحو ميدان الحرية وعلى يساره الجامع الكبير، ثم يسارًا أوقف عربته أمام البوابة الرئيسية للنادي، وأوصى أحد الصبيان أن يهتم بها ويغسلها.

موديلات مختلفة من السيارات محتشدة أمام النادي، ولكن يغلب عليها الدفع الرباعي، وتحديدًا ماركة لاند روفر وتويوتا لاند كروزر بيك آب، لقدرة هذا النوع على تحمل البيئة الزراعية والأوحال في المشاريع الزراعية.

دخل ود بال عاي إلى النادي وهو يعلق على ود الطيب الذي كان يتوضأ قرب الباب الخارجي:

- يا ود الطيب الزراعة ما زبطت معاك، قلت تصلي ركعتين!

قبل أن يجيب ود الطيب كان ود بانقا بالمرصاد لود بالعاي قائلًا: سمعنا إنك سهلت لود الطيب موضوع دكان إسماعيل الرطاني؟

رد ود بالعاي: يرطن فيك مدفع مكسيم، أنت إذا بتدفع

مثـل ود الطيـب كان زمـان عملـت شركـة في الخرطـوم أو أحـد أقربائـك منحـك توكيـل شركـة هنـا. ود الطيـب حالـة خاصـة هـو في ضيافتنـا مـن زمـن جـدو الكبـير حـرق إسـماعيل باشـا. أمـا الباقيـين جيتـو مترجمـين مـع الأتـراك ومـع الإنجليـز ومـع الأمطـار وبعدهـا عجبكـم الوضـع. لكـن دا جـدو فـارس، وعـلى كل حـال إكـرام الضيـف واجـب.

استمر ود بـال عـاي في الحديـث سـائلًا: في مجـال نلعـب عـشرة ورقـة؟

- أنـت يـا رطـاني مـا تحـترم القانـون وتحجـز وتنتظـر دورك في اللعـب.

ود بالعـاي سـاخرًا: احـترم القانـون عشـان أضيـع بقـرار اللجنـة. ضحـك وتـرك الجميـع يسـألونه البقـاء. رفـض وأخـذ معـه ود الطيـب ليصـلَ معـه إلى العربـة.

وقال مخاطبًا ود الطيب: سمعت إنك شغلت الدكان تمام.

- أعـوذ بـالله مـن نـاس الدنيـا، كلمـة مـا شـاء الله عندهـم معاها مشـكلة. الآن ود بانقـا علـق عـلى الـدكان الجديـد أنـت فاكـر بقصـد إنـك تشـوف ليهـو دكان؟ أبـدًا دا حاسـد عشـان كـدا مـن يـوم جـاء مـن البلـد وهـو ربي كمـا خلقتـني مسـتور بأهـل زوجتـه.

- مـا تكـون جبـان يـا ود الطيـب مـا في واحـد بيسـحرك.. عـلى

العمـوم أنـا مـاشي وأرجـو إنـك مـا تحرجنـا مـع الجماعـة الإيجار في الموعـد المحـدد.

- (أبشر يا زول). ما تهتم.

غـادر ود بـال عـاي النـادي عائـدًا إلى بيتـه.. فقـد قـرر أن يقـضي الليلـة متنقـلًا بـين الإذاعـات.

فصل

عـاد إبراهيـم مـن السـوق محملًا ببشريـات العيـد، عـلاوة عـلى إيجـار المحـل الـذي تسـلمه مـن ود الطيـب، وجـد طـردًا مـن طـرف والـده تفـوح منـه رائحـة القرنفـل والبخـور وحـب الهيـل، تدافـع نحـوه أخـواه التوأمـان الصغـيران حسـن وحسـين، ووالدتـه تعلـو وجههـا ابتسـامة. داعـب أخويـه سـائلًا إياهمـا: كيـف المدرسـة؟

أجابه حسين متظلمًا:

- إبراهيم.. إبراهيم.. إبراهيم.

- نعم يا حسين؟

- حسن ضربني في شارع المدرسة.

اتجـه وجـه إبراهيـم ناحيـة حسـن: ليـه يـا حسـن ضربـت أخـوك؟

- عشان أنا ما وقفت للمفتش وحسين وقف.

- أي مفتش؟

- المفتش بتاع الأجانب، أنا كنت فاكر حسن وقف كالسنة الماضية.

- أنا السنة الماضية وقفت عشان كان معانا أولاد أقرباءنا من إريتريا؛ ما كنا عايزين نتركهم واقفين لوحدهم .

هنا أدرك إبراهيم الأمر، إنها عادة قديمة ملأت صدور الأجيال جراحًا.

ربت إبراهيم على كتف أخويه قائلًا لهما: ما تزعلوا من بعض، في كل الأحوال إنكم غير مخطئين.

فتح الطرد وأم إبراهيم أرهيت تردد ما شاء الله وتبارك الله (إن شاء الله عرفة مكة وجدة)*. تسلم الجميع هداياهم ولم ينسَ أبو إبراهيم وصية ابنه الكبير، فسعد إبراهيم بساعة ماركة أورينت بمعصم ناعم.

صرف إبراهيم إخوته الصغار، وسلم والدته نصيبها من إيجار المحل زائدًا مبلغ هدية عيد من والده، وسألها عن جهاز التسجيل ليستمعوا إلى الرسالة المسجلة على الكاسيت، وبالطبع لم يغب عن ذهنه شراء البطارية الجافة، أو كما يسمونها حجار بطارية من ماركة إيفاريدي.

أدير الجهاز وجاء صوت والده ملقيًا عليهم التحية متمنيًا أن يكون الجميع بخير، مشددًا في طلب الاطمئنان على صحة الصغار.

أم إبراهيم.. وأخي سليمان.. والابن العزيز إبراهيم.

أولًا أنا بخير وصحة وعافية، ومبسوط جدًّا لكن مشغول بكم في الصباح والمساء.

وأنا متأكد يا أم إبراهيم الحمل تقيل، لكن ثقة بالله وبكم كلكم كبيرة.

وإن شاء الله العام القادم أشوفك في الحرم ونزور قبر الحبيب المصطفى.

جرت دمعة على خد أرهيت وهي تردد (إن شاء الله إن شاء الله إب عافيتك) أي تتمنى أن يتم ذلك وهو موفور الصحة والعافية.

أما السيد أبو خليل أنا راضي عنك يا ابني، وأحسن قرار اتخذته التحاقك بالتدريس في المراحل المتوسطة، شد حيلك وفرحنا بيك.

السيد سليمان كالعادة الكلام معاك كثير وكبير، وأحب أقول ليك تحذيرك لي من الكفيل كان صحيح، فقط التعميم وأنت سيد العارفين خطأ. على كل حال كفيلي خيب ظنك وهو رجل فاضل إنسان جدًّا، والدليل أنه يدفع لي راتبًا شهريًّا وهو لا يحتاجني إلا في السفر إلى الخارج مع أسرته، وعندما يكونون داخل البلاد أعمل بواسطة أحد أصدقائه في توزيع الصحف دون أن يؤثر هذا في راتبي الذي أتقاضاه

منـه.

سـأحكي لـك يومًـا عندمـا ذهبـت إلى لنـدن مـع أسرة الكفيـل، لقـد كنـت أود أن أزور قـبر الراجـل الألمـاني المدفـون في لنـدن، بـس الكفيـل قـال إن الرجـل يهـودي والعيـاذ بـالله، فصرفـت نظـر عـن الموضـوع. عـلى العمـوم المـرة القادمـة إذا سـافرنا القاهـرة نحـاول نجيـب ليـك في ظـلال القـرآن.

اسـتأذن إبراهيـم والدتـه بالانـصراف مذكـرًا إياهـا أن تعطـي الجهـاز إلى عمـه سـليمان عندمـا يسـتيقظ.

كادت سـميرة تنفطـر غيظًـا مـن تأخـر إبراهيـم، لـولا ظهـوره في أول الشـارع وخطـاه تنهـب الأرض نهبًـا، وقبـل أن تمتـد يـده لتصافحهـا بلغـت كلماتـه فؤادهـا متوسـلة الصفـح، وبعدهـا رمتـه بنظـرة وهـي تعـض عـلى شـفتها السـفلى علـم بهـا أنـه غُفِـرَ لـه ذنـب الـتأخير، فأخـذه غفرانهـا في التباهـي بأنـه يفخـر بسـجلٍ خـالٍ مـن التأخـير منـذ كان يتقصدهـا وهـي في مراحـل دراسـتها الأولى.

بادرهـا: كنـت أراك دومًـا عـبر نافـذة حجـرة الدراسـة وأنـا في الصـف السـادس الابتـدائي، وأنـت في الثالـث تقفزيـن كجديـة، كمـا كنـت أحـرص عـلى أن أحـضر بالقـرب مـن الحاجـة بتـول، لعلمـي أنـك يـروق لـك طعـم سـندوتش سـلطة الباذنجـان بزبـدة الفـول بالشـطة الخـضراء.

ردت سـاخرة: بـارك الله في أمـي لخشـيتها عـليَّ مـن الأعـين؛

كانـت مـن الصغـر تحـرص عـلى تحصيـني.

- دعينـا نجلـس قليـلًا في مـكان مـا قبـل أن نذهـب إلى عمـي سـليمان.

- ولكن أخشى أن أتأخر على أمي.

- فقط عشر دقائق وبعدها إلى سليمان.

- إذن خصمًـا مـن الوقـت المخصـص للجلـوس مـع سـليمان. وعـلى فكـرة الجلسـات مـع سـليمان فتحـت ذهـني إلى أشـياء مهمـة جـدًّا. وكل كتـاب أخذتـه مـن مكتبتـه أضـاف إليَّ الكثـير.

- عمـي سـليمان أيضًـا يثـني عليـك كثـيرًا، ودائمًـا يشـيد بملاحظاتـك وقدراتـك التحليليـة.

لـم يكـن في المدينـة حديقـة يلجـأ إليهـا العشـاق، وكثـيرًا مـا جلـب ذلـك التقريـع مـن بنـات وشـباب كسـلا لأندادهـم بالقضـارف، فخـضرة مدينـة كسـلا الدائمـة جعلتهـا إحـدى قِبَـلِ السياحة الداخليـة لأهـل السـودان، الـشيء الـذي أوجـب وجـود حدائـق عامـة إضافـة إلى السـواقي.

أمـا القضـارف فهـي مـن أغـنى المـدن، وأهلهـا فقـراء، موسـم الأمطـار الغزيـرة يبـدأ مـن مطلـع شـهر يونيـو، ويسـمي أهلهـا بداياتـه بالرشـاش وبـه مطـر (الطرفـة)، إذ تتقاطـر الأمطـار كسـقوط الدمـع مـن العـين، والطرفـة البكايـة تمتـد إلى سـاعات أطـول (النـترة) أي يتحـول الهطـول إلى نشـيج، إلى أن يبلـغ

الموسـم شـهر أغسـطس ويصاحـب الأمطـار صـوت الزوابـع الرعديـة والصواعـق، وذلـك وقـت الجبهـة والخرسـانة لشـدة أهوالهـا، وينتهـي الموسـم بمطـر (البخـات) أي أهـل الحـظ والبخـت، إذ تهطـل الأمطـار في حـي دون الآخـر.

الأخاديـد الـتي تخلفهـا ميـاه الأمطـار، المتدفقـة مـن التـلال الـتي تقـف شـاهدًا كقـوس مفتـوح مـن الـشرق إلى الجنـوب مـن المدينـة، فبعـد انتهـاء موسـم الأمطـار، وعـلى ضـوء القمـر، هـي الجنـان الـتي يرتادهـا العشـاق وأهـل المـزاج والفـن.

اختـار إبراهيـم وسـميرة مجلسـهما عـلى مجـرى منحـدر مـن جبـل الخـزان موازيًـا الخـط الناقـل للمـاء، وبعـد لحظـات مـن الصمـت قـال إبراهيـم:

- كان أحمـد يحـب الغنـاء عـلى تلـك الرمـال، وكانـت لـه أغنيـات محـددة لا يمـل مـن تكرارهـا، وكأنـه كان يعلـم بـأن الـزاد الوحيد الـذي يحتـاج إليـه لمنازلـة بـرد موسـكو هـو حفنـة مـن أغنيـات، وهـو الآن أحـوج مـا يكـون إلى أغنيـة عبـد الدافـع عثمـان:

مرت الأيام ... كالخيال أحلام

وانطوت آمال ... كم رواها غرام

ورائعـة عثمـان حسـين: عـشرة الأيـام ... مـا بصـح تنسـاها ... والـدرب الأخـضر.

عـادة تتجنـب سـميرة الخـوض في ذكـرى أحمـد احترامًـا لشـعور

إبراهيم ناحيته.

تعلم يا إبراهيم - وجبل الخزان أمامها غارق في ليل بلون القمر - هذا الجبل يذكرني دومًا بالفتاة التي أتاها جبل توتيل من كسلا، أشعر بحديثها مع الجبل كلما رأت عيناي هذا الخزان وكأن بينهما حبل سري.

أشعر أن الدنيا أحيانًا أعطتنا كل شيء عدا حبل الاختيار تركته ملقيًّا على الأرض، وتارة أفيق على أنها تتواطأ مع آخرين وتعينهم على حسن الاختيار.

- في زيارتي الأولى إلى عمك سليمان كانت هناك عبارتان؛ واحدة كانت عنوانًا لورقة بخط اليد وهي «شجرة الخوف»، وأخرى منسوبة إلى أبي حيان التوحيدي وهي: «الإنسان أشكل عليه الإنسان». ورقة شجرة الخوف أوحت إليَّ أن في داخلي شجرة من الخوف، جذورها ضاربة في أعماقي، وجذعها يفصل بين رئتي، ممتدة إلى عنقي، وفروعها وأوراقها متسللة تحاصر عقلي، وأن الآخر يسهر ليغذي في هذا الخوف، وهو رعديد يتخفَّى خلف الوطن، الدين، اللغة.

قاطعها إبراهيم: قال لي مرة عمي سليمان إنه يخاف صلاة الجمعة لأن الإمام، يأمر الناس بأشياء لا يستطيع أن يفعلها، الذي لا يقوى على الخشوع في الحياة يصعب عليه في الصلاة، كأنه أراد أن يقول الصلوات الخمس هي للتواصل مع الحياة لتكون الحلقة واحدة. وأن خطبة الجمعة يجب

أن تكـون لرفـع الوعـي الاجتماعـي، فالنـاس يأتـون إليهـا برغبـة، ولكنهـا تُهـدَر في محاربـة الوعـي. وكثـيرًا مـا أربـط حديثـه بحرماننـا مـن المـاء مـن الخـزان.

أكملـت سـميرة: أنـا أشـعر أن أهـلي يزحفـون خـارج ذواتهـم، الدنيـا تطلـب منهـم أكـثر مـن أن تعطيهـم. والبعـض منـا ليُرضي الآخـر أصبح كالقصائـد المترجمـة الـتي تُنسَـب لشـاعرها الأصـلي ظلمًـا وبهتانًـا. وهـي مـن نظـم المترجـم.

- دومًـا عندمـا تذكريـن قصـة الفتـاة والجبـل أتذكـر الأسرة الـتي قضـت الليـل معنـا وتـوفي طفلهـم في المستشـفى اليـوم التـالي. تـرى كيـف حـال تلـك الأسرة، هـل الأم تكيفـت مـع فقدهـا طفلهـا.

بـدأت سـميرة تقلـق عـلى أن الزمـن قـد يتسرب مـن بـين أيديهما، فتأهبـت للذهـاب وهـي تحـث إبراهيـم: دعنـا نذهـب فعمـك سـليمان بانتظارنا.

أخـرج إبراهيـم يـده مـن جيبـه وأخـذ طـرف طرحتهـا وعقـد بهـا مـا تيـسر لـه من مـال قائـلًا لهـا: لسـت جيـدًا في شراء مسـتلزمات النسـاء، فكمـا تعلمـين المرأتـان في حيـاتي أنـت وأمـي، وأحببـت أن أشـتري لـك هديـة عيـد فليتـك تفعلـين نيابـة عـني.

ردت بحيـاء: لا مانـع إذا وافقـت أن تذهـب معـي إلى السـوق حـتى تتعلـم.

أجاب منشرحًا: إن شاء الله.

تحركا بصمت ناحية منزل إبراهيم، وقبل المنعطف الأخير الذي يبعد مائة متر عن الباب الخارجي قالت سميرة: لن أتأخر معكم كثيرًا، فلقد تركت الوالدة وهي تشتكي من صداع فربما تحتاج إليَّ.

- لا بأس عليها.

لم يكن إبراهيم في حاجة إلى طرق الباب، فعمه سليمان يتوقع حضورهما لذلك ترك الباب مواربًا، ذهب إبراهيم ناحية الخلوة وسميرة ناحية البيت الداخلي لتلقي التحية على والدة إبراهيم التي كانت منهمكة في رعاية طفليها التوأم، تعد لهما العشاء وتحثهما على أداء صلاة العشاء. لم تمكث معها كثيرًا؛ غادرتها إلى حيث سليمان وإبراهيم ينتظرانها.

دخلت سميرة إلى الخلوة وجلست قرب الطاولة التي يضع عليها سليمان أوراقه، حيث اعتادت أن تلتقط بعينيها آخر ما كتب أو قرأ.

تحدث سليمان ووجهه ناحية سميرة وهو جالس في منتصف السرير: سلامة الوالدة.

- الله يسلمك دا شوية صداع.

- ما دمت لن تبقي معنا كثيرًا أنا أقترح أن أحدثكما في ما

جاء في شريط إسماعيل أبو إبراهيم، ولكم أيضًا أن تختاروا موضوعًا آخر.

وافق الجميع على الاقتراح وطلبت سميرة أن يكون الجزء الثاني من الحديث لها.

- تحدث إسماعيل في رسالته المسجلة عن أوضاع الجالية السودانية في الخارج، وقال إنها تشبه أوضاع القضارف.

كيف؟ كلمة واحدة خرجت من فم إبراهيم وسميرة في ذات الثانية والاندهاش.

- الجالية كتجمع له إدارة، ويمثل حلقة وصل بين مجتمع السودانيين ومجتمع الدولة المضيفة، وكذلك مع الجاليات الأخرى. ومع جهاز شؤون المغتربين في السودان.

ملاحظات إسماعيل أن مجتمع حمد حفون محتكر مجتمع الجالية.

ردت سميرة: طبيعي.

- ولكن ترتب على ذلك أمور أن المكونات السودانية الأخرى أو كما يحلو لك يا سميرة أن تسميهم مجتمعات بلاد السودان كونت جزرًا خاصة بها، أشبه بأحياء القضارف، كل مجموعة متمركزة في حي بعينه، ولعل ذلك يجعلنا نتساءل هل تلك من صفات المدن.

علـق إبراهيـم قائـلًا: الوالـد لـو كان معانـا هنـا كان حيكـون إضافـة للجلسـات.

ردت سـميرة: لكننـا كنـا سـنفقد مـن يخبرنـا أن الأزمـة في الشـخصية وليسـت الجغرافيـا. وأن هنـاك مشـكلة بالتعريـف بالسـودان.

علـق إبراهيـم: يعـني جهـاز شـؤون المغتربـين وإذاعـة أم درمان عندهم المشـكلة نفسـها.

سـميرة سـاخرة: في السـودان وأنـت موجـود تمثلـك فرقـة الفنـون الشـعبية وفي الخـارج الجهاز.

وأردف سـليمان: وأيضًـا علـم مـن الذيـن سـبقوه أن مدير شـؤون جهـاز المغتربـين، وهـو عـلى رأس عملـه منـذ مـدة طويلـة جـدًّا، وسـماه رئيـس دولـة المغتربـين. وأن الجاليـات العربيـة الحـروب بينهـا مسـتمرة؛ الـكل يسـعى لكسـب ود الكفيـل، وفي سـبيل ذلـك يدمـر كل القيـم.

نظـرت سـميرة إلى سـاعتها فـأدرك سـليمان أن الوقـت قـد يمـضي، وهنـا وجـه حديثـه إلى سـميرة: مـاذا لديـكِ؟

تحدثـت سـميرة قائلـة: كنـت أتسـاءل هـذا الصبـاح وأنـا أسـتمع للإذاعـة ولكـن ملاحظـات العـم إسـماعيل في الغربـة وشـؤون الجاليـة جعلـت سـؤالي بـلا معـنى.

حثَّها إبراهيم أن تطرح السؤال ربما يكون ما زال صالحًا.

- كنت أتساءل ونحن في مناخ ديمقراطي وكل الأحزاب دينية وهذا البلد به تناحر قبلي... من الذي سيطبق الدين؟ ألا يحتاج الدين إلى رجال معافين من الأمراض الاجتماعية. ثم إنه كيف نتحدث عن أحزاب وهي ظل للمجتمع الحاكم، يعني بالبلدي كدا الأحزاب برضو بتاعت ناس (حمد حفون) والإعلام في زمن العسكر أو الديمقراطية. يبدو أني أثير مواضيع لا أملك لها وقتًا اليوم.

وقفت سميرة معتذرة: أنا عارفة دي مواضيع تحتاج إلى عمر إنسان كامل وصدق من قال لا يستقيم الظل والعود أعوج.

ودَّعها سليمان وهو يشد على ما ذهبت إليه، واتفق الجميع على أن تكون جلستهم القادمة محددة العنوان.

فصل

أهميـة المـشروب السـاخن في الظهـيرة السـاخنة!! نسـتمرئ ارتشـاف الشـاي والقهـوة كلمـا اصطلينـا بلهيـب الشـمس. رمضـان الـتركي بعـد أن ظننـت أنـه غـادر السـودان وتركـني بحمولـة جديـدة مـن الأسـئلة، في جلسـة خطـط لهـا القـدر بمعـزل عـني. أبـرق إليَّ مـن الخرطـوم يعلمـني أنـه عائـد إلى القضـارف. الحافلـة تجـاوزت وقـت وصولهـا المحـدد الواحـدة ظهـرًا بربـع سـاعة، وأنـا أرتشـف شـايًا يزيـد مـن تبلـلي بالعـرق حـتى أشـعر بـأن جسـمي يتنفـس، ورياح السـموم لا تجـدني سـطحًا جافًـا وتزيـدني حريقًـا، العـرق يخفـف مـن قسـوة الحـر. هكـذا نتصـارع مـع الطبيعـة. نظريـة تلطيـف البـدن بالعـرق.

سـائقو التاكسي لا يتدافعـون حـول مكتـب حجـز التذاكـر إلا إذا باتـوا متأكديـن مـن أن الحافلـة عـلى بعـد زمـني لا يتجـاوز عـشرة دقائـق، هـا هـم يتخـذون أماكنهـم في السـاحة الصغـيرة يلقـون بالتحايـا عـلى الحمَّالـين ويتـوددون إليهـم حـتى يخصوهـم براكـب، ويـا حبـذا لـو كان مغتربًـا قادمًـا مـن خـارج السـودان.

كان مطلوبًا مني أن أختار أحدهم متفاديًا النوع الذي يحمل خزان الوقود داخل العربة، وهو جالون به وصلة تعبر من تحت أقدام السائق لتصل إلى الماكينة، ضيفي التركي شروط السلامة أحد هواجسه، وربما من المحاسن أننا لدينا في المنزل مرحاض، وهو بئر مغطاة بالطوب والأسمنت، وبها فتحة وبجوارها مساحة صغيرة للاستحمام بالسطل، مسقوفة بالزنك وإلا لكان مصيره أن يقضي حاجته في العراء ليلًا.

وصلت الحافلة، رمضان التركي يسير نحوي. اخترت أفضل عربة أجرة في المدينة. تحرك بنا السائق الذي أخبرته سالفًا عن مقصدنا. وكان سؤالي الذي ظل ملتصقًا على لساني طوال مدة انتظاري إياه: ظنتك عدت إلى تركيا.. هل كنت في السودان طيلة هذه المدة؟ أجابني: نعم، ويبدو أنني دخلت في أمور لم أكن أعلم أنها ستأخذ مني كل هذا الوقت. أتمنى أن تكون خيرًا. أجابني وهو يهز رأسه بما يوحي أنه راضٍ عنها. لم أرغب أن أجبره على أن يروي لي شيئًا إلا برغبته، ألجمت لساني. وعلمت منه أنه هنا مدة ربما أقل من أسبوع.

عمي سليمان يعلم بقدوم الضيف التركي، فأكد أنه سيستيقظ بعد الظهيرة. بلغنا المنزل والعم سليمان فرغ للتو من الاستحمام، وجاهز لاستقبال الضيف. سميرة أيضًا جاءت لمساعدة أمي في الطبخ. وهي تتحرق شوقًا لترى

الرجـل الـذي وقـع مدفوعًـا مـن السـماء.. هكـذا علقـت عندمـا أخبرتهـا بأمـره.

وجبـة الغـداء عـلى الأرض، ليـس لدينـا في البيـت غرفـة أو طاولة مخصصـة للطعـام، لا مـكان غـير الظـل، الـذي لـن يـأتي إلا بـإرادة الشـمس وحركتهـا. لدينـا ملاعـق صغـيرة لتحريـك السـكر في الشـاي أو القهـوة، وأخـرى أكـبر حجمـا للشـوربة إذا كان في الأسرة شـخص مريـض. ليـس لدينـا سـكين أو شـوكة لتنـاول الطعـام، والأهـم مـن ذلـك أن مائدتنـا ليـس فيهـا مـا يسـتدعي تلـك الأدوات.. باميـة مطبوخـة، سـلطة أسـود (باذنجـان)، سـلطة خـضراء، صحـن كبـير عليـه كـسرة وإنـاء مغطـى بـه ويكـة (طبخـة بالباميـة الجافـة)، ومحـشي طماطـم وبطاطـس.

جلسـنا عـلى سـجادة مـن السـعف في الظـل الـذي بـدأ يمتـد أمـام بـاب الخلـوة. ليـس بمقدورنـا منـع الذبـاب الـذي بـدأ يتوافـد علينـا، ولكـن لدينـا مـن الخـبرة في التعامـل معـه مـا يمنـع سـقوطه في الطعـام.

الضيـف الـتركي لـم يسـتخدم الملعقـة الـتي أحضرناهـا لـه وبـدأ يـأكل بيـده مثلمـا نفعـل.. ولكـن جـاءت المفاجـأة أنـه كان يـأكل بيـده اليمـنى بينمـا يـده اليـسرى تقـرع الأواني، وتلـك هـي إحدى وأهـم مهـارات منـع سـقوط الذبـاب في الطعـام؛ فالطـرق عـلى الأواني يصـدر ضجيجًـا كافيًـا لطـرد الذبـاب. ابتسـمنا أنـا وعمـي سـليمان مـا أثـار دهشـة الضيـف. علقـت قائـلًا: يبـدو أن بقـاءك في السـودان علمـك الكثـير: نعـم ولا أبالـغ إن قلـت لكـم أن في

هـذا البلـد تفاصيـل مدهشـة. هنـا علـق عمـي سـليمان: لذلـك يوجـد قـول منسـوب لأحـد الإداريـين الإنجلـيز أن السـودان لا يتجـرأ عـلى حكمـه إلا معتـوه أو نـبي مدعـوم مـن السـماء. ربمـا هـذا القـول لكـثرة التفاصيـل.

أعـرف أن عمـي أراد ممارسـة هوايته المفضلة لسـحب النقاش إلى الدائـرة الـتي يريـد. قـال الـتركي: مـا عـدا أبنـاء جنـوب السـودان، أعتقـد أن في هـذا البلـد ثلاثـة عنـاصر بشريـة.. ولكـن قبـل أن يأخذنـا الحديـث بعيـدًا ألاحـظ أن طعـم الأكل في الخرطـوم وهنـا بهمـا اختـلاف. لـم يكـن صعبًـا عـليَّ أن أدرك الفـرق الـذي يعنيـه لاعتيـادي سـماع هـذا النـوع مـن التعليـق. فأجبتـه: لأننـا في بلـد معـروف بوفـرة السمسـم فنسـتخدم زيتـه في الطبـخ، عـلى عكـس الآخريـن فيسـتخدمون الزيـوت المسـتخلصة مـن نباتـات أخـرى. وستشـعر بهـذا الفـرق أكـثر عندمـا تـأكل وجبـة فـول بزيـت السمسـم. أضـاف عمـي سـليمان سـؤالًا للحديـث: هـل وجـدت فرقًـا في المحـشي، لأنـه أحـد عنـاصر المائـدة التركيـة الـتي تأثـر بهـا السـودانيون. ردَّ الـتركي: لـم أجـد فرقًـا كبـيرًا، ولكـن أيضًـا تركنـا لكـم الباميـة المطبوخـة الـتي أمامنـا الآن حيـث كنتـم تأكلونهـا بعـد التجفيـف مثلمـا هـي أمامنـا الآن، وأشـار بيـده ناحيـة طبـق الويكـة. وأردف وكأنـه أراد أن يخفـف عنـا: الطبيعـة الرعويـة لمعظـم الجماعـات في السـودان آنـذاك أملـت ضرورة تجفيـف الباميـة لقدرتهـا عـلى البقـاء مـدة طويلـة.

أضاف سليمان: هذا صحيح، وتأمينًا لما قلت كان الناس يجففون أيضا اللحوم بعد أن تدهن بالزيت والملح ويطلقون عليها اسم شرموط لطبخ الويكة به. خالجني شعور أن التركي قد يفهم عمي خطأً ويعتقد أنه يستهزأ به عندما ذكر له فكرة لحم الشرموط، ولكن ما أراح صدري ابتسامة ارتسمت على وجه التركي كانت كافية لطمأنتي أنها لم تأخذه إلى منحى آخر، مع يقيني أن الأمر يدعو إلى الاندهاش والتساؤل حال كل الأشياء في السودان، لماذا اختار الناس قديمًا هذا الاسم لإطلاقه على اللحم الجاف؟ ما هي العلاقة بين العهر واللحم الجاف.. هل أرادوا تبخيس لحم المرأة العاهر والقول إنه جاف بلا إحساس، لأنه عُرِضَ للبيع والشراء. أنا لا أملك غير أسئلة اعتدت أن تضعها الحياة في فمي، طوال عمري كانت الأسئلة محلية، أما منذ التقيت التركي تبين لي أنه توجد أسئلة لم تطرح بعد، وأن مصدر أسئلتي في هذا البلد أيضًا لديه أسئلة، يود أن يطرحها ولكن ليس على شخص مثلي، لأنه لا ينتظر مني إجابة وهو يريد من يجيب عن أسئلته.

سميرة كثيرًا ما تردد أن التاريخ في السودان يتعرض إلى غزو وعبث مكثف من سلوكات الحاضر، فمن أراد أن يعزز أمرًا أدخل يده في جب التاريخ واستخرج منه مادة خام ليشكل منها متكأً للحاضر الذي يريده، لذلك معظم التاريخ

وبكامـل زيـه وتفاصيلـه عـاد إلينـا مشـوهًا.

قـضى الـتركي رمضـان معنـا أيامًـا أقـل وصـف يمكـن أن أقولـه عنهـا كأن تعيـش وقتًـا مـع شـخص لا يمـل مـن أن يحدثـك عـن نفسـك وأنـت لا تشـعر بحـرج وأنـت تسـأله عنـك. إن مـررت بحـي الملـك يـروي لـك أن أهلـه هـم العائـدون مـن الحبشـة مـن عشـيرة الملـك نمـر الـتي قدمـت مـن شـندي تجمعـوا هنـا بعـد أن قامـت مدينـة القضـارف إبـان حقبـة الإنجلـيز. وأن الفلاتـة جـاءوا ابتـداءً مـن المهديـة، ولكـن أعدادهـم تزايـدت بعـد مـشروع الجزيـرة والشـكرية نالـت الأرض مـن حـكام الفونـج. كيـف؟ ومـن المالـك الحقيقـي كعـادتي لا أعلـم.

روى لي أنـه كان يـتردد عـلى بعـض المـدن، ومـن ثَـمَّ يعـود إلى الخرطـوم العاصمـة، زار مدينـة بورتسـودان وكسـلا وعـاد إلى الخرطـوم، يقـول مـن القضـارف إلى بورتسـودان لاحـظ أن البجـا بـكل تعددهـم اللغـوي، إلا أن القاسـم المشـترك بينهـم الملامـح الهنديـة في ثنايـا تراثهـم ابتـداءً مـن الـزي الرجـالي السـماديت الـذي يشـبه الـزي الباكسـتاني، والسـاري الهنـدي لـدى النسـاء ويسـمونه فوطـة، طقـوس العشـل في الـزواج. فقـط يشـبهون نسـخة هنديـة قديمـة باليـة.

تأثـر برنامـج عمـي سـليمان في النـوم، ولكنـه كان مسـتمتعًا بالنقاشـات الـتي كان يجريهـا مـع الـتركي، وكنـت أجلـس دومًـا بينهمـا متلفتًـا، تـارة أنظـر إلى عمـي وأخـرى إلى الضيـف، كان الضيـف ودودًا ولكنـه نهـم عـلى اسـتعداد أن يأكل مـا دام يوجد

طعـام، شـاركنا حواراتنـا الليليـة، كان مبهـورًا بتعليقـات سـميرة، أذكـر مـرة كان الحديـث عـن التاريـخ فقيـل يومهـا حديـث منمـق وسـلس، ولكـني احتجـت إلى معاونتهـا لإدراكـه قالـت لي وكنـا جلوسًـا مـع الضيـف الـتركي: أن نجلـس مـع الـتركي في غيـاب حمد حفـون لـم يكـن ذلـك ممكنًـا قديمًـا لعوامـل كثـيرة، غيـاب تلـك العوامـل جعـل إمكانيـة اللقـاء بـه ممكنـة، فهـذا دليـل عـلى أن الزمـن ليـس جامـدًا إلا في العقـول الموصـدة.

أبـدى رمضـان الـتركي أيضًـا ملاحظـة أن النـاس في الخرطـوم ظاهريًّـا يتشـابهون في أشـياء كثـيرة، ولكـن في التفاصيـل تلحـظ توتـرات بينهـم، حـاول أن يفهـم ذلـك لكنـه لـم يسـتطع، وأثـار موضـوع الحلـبي، وهـو الإنسـان ذو سـمات مشرقيـة عربيـة، وينتظـم اجتماعيًّـا في سـياق عائـلي، إذ ليسـت لـه قبيلـة في السـودان، وإنـه معـزول لبيـاض بشرتـه. وكأنـه يـرى أن فرضيـة العنصريـة ثابتـه عـلى أسـاس محـدد ليسـت دقيقـة، ولكـن الواضـح أن جماعـة رسـالية أوكلـت إلى نفسـها مهامًـا محـددة، وأذكـر أنـه ذكـر اسـمًا مـرة أعتقـد أنـه روسي، لأنـه ينتهـي بحرفين شـائعين بينهـم (وف)، نسـب إلى هـذا الكاتـب عبـارة الاتـكاء على الإثنيـة، ولكـن سـميرة أسـمتها الظـل الاجتماعـي. كان الحديـث أشـبه بحديـث عمـي سـليمان عـن العقيـدة الاجتماعيـة، عرفـت يومهـا أن الثقافـة كائـن حـي يسـتخدم أجسـادنا ليعـبر عـن أشـيائه. ويشـعرنا بأننـا مركـز الأشـياء، حـتى الأشـياء الـتي في الأصـل مشـتركة بـين النـاس بحكـم أنهـم بـشر. أذكـر أنـني مـرة وقعـت في هـذا النـوع مـن المركزيـة إزاء آخـر أعتقـد لـه

معاناته معي، إذ كان يروي لي عن محبوبته بأوصاف ضبطت نفسي مندهشًا إزاءها، لأن نظرتي إلى مجموعته تستبعد الجمال فيها، واحتفظت بمعيار الجمال والحب لنفسي. النقاش الذي دار مع التركي والظل الاجتماعي هو الذي جعلني أفسر ذلك الحدث البعيد، ولولاهم ربما حافظت على دهشتي إلى يومنا هذا. لم أكن أنا الذي فعل ذلك، بل الكائن الثقافي الذي يتلبسني. كنت وضيفي التركي نسير في الأسواق، كان يدقق في أشياء كثيرة أراها في المدينة منذ أن ولدت، ولكني لم أرَ أنها شيء، وعند عودتنا إلى المنزل، وكان هذا يومه الأخير في المدينة، احتفينا به في جلساتنا في ليالي عمي سليمان، وكانت سميرة دومًا تكرر عبارتها عنه أنه رجل سقط من السماء مدفوعًا، لأن عودته إلى مدينة لا تملك غير عدد قليل من ظلال الأشجار والعطش والمطر لا يحضرها إلا من جاء مدفوعًا من السماء. سألته وأنا أودعه عند محطة الحافلات المسافرة إلى الخرطوم: لماذا أتيت إلى القضارف ولماذا كل المدة في السودان؟

- زيارتي السودان وسَّعت مشروع دراستي، فبدلًا من أن كان حصرًا على الآثار العمرانية للإمبراطورية العثمانية، اتسعت لتشمل آثارها الثقافية وما أحدثته في البنية الاجتماعية. وختم مبتسمًا: حتى نحدد إن كنا استعمارًا أم إمبراطورية إسلامية.

فصل

كانت سميرة في البيت تؤدي واجباتها المنزلية المعتادة من كنس الأوساخ وطهو الطعام، وكانت تتوقع قدوم إبراهيم ليخبرها عن تعليق سليمان مكتوبًا على قراءتها مادةً تاريخيةً، وكعادته معها سيراوغها في الحديث قبل أن يسلمها الملاحظات. لذلك ما إن انتهت من يومياتها المنزلية حتى تفرغت للإعداد لاستقباله.

عبأت السطل بالماء من البرميل، وأخذت طشت الحمام وصابونة زيتية بلا عطور تستخدم لغسيل الملابس أو الأواني، دون أن تنسى الليفة. وأدخلتهم إلى داخل القطية، وتأكدت من أن الشبابيك مغلقة، وطلبت من والدتها أن تتابع القدر الذي تركته على النار في الراكوبة.

أدارت يدها اليسرى إلى أعلى ظهرها وفكَّت عقدة صغيرة مربوطة في أعلى الفستان، وتلتها بأخرى، ثم تالية، إلى منتصف ظهرها. أخرجت ذراعيها من الفستان، تجمع الجزء

الأعلى منه في خصرها. أعادت كلتا يديها إلى ظهرها وفكَّت علاقة صدرها، ألقت بها على كرسي وضعته بمقربة منها. بدأت بسحب الفستان إلى قدميها وتبعته بما تلا من قطع صغيرة، بدت كأمثولة حواء التي أبدعها الخيال الإنساني وهي تقف بجوار الشجرة المحرمة.

خالجها زهو بجسدها، تأملت نهديها البارزين، وشعرها الفاحم المنسدل حول نهدها الأيسر. ولون بشرتها الذي رغم انعدام ضوء الشمس في القطية كان مضيئًا، بدت كمهرة عربية، تذكرت تعليقًا نقله لها إبراهيم عن عمه سليمان (أجساد عربية وألسنة من غرب البحر). تناولت كيسًا من النايلون جمعت شعرها إلى أعلى وغطته بالكيس كأنها تنوي الدخول إلى غرفة جراحية.

خطت نحو الطشت، وضعت قدمها اليمنى بحذر ثم تلتها باليسرى، مالت إلى سطل الماء بكوب، غرفت منه، سكبت على جسدها، حبيبات الماء على نهديها كبرتقالة دانية بللها المطر. وبصوت خافت بدأت تدندن لحنًا بجاويًّا، على لسان محب يروي رحلته الطويلة وهو على ظهر الدابة هائمًا:

لا يطفئ ظمئي ماء النيل

لا يخيفني صوت البحر

سأطرق كل الوديان

أتسلق الجبال

لن أعود، فأنا لم آتِ

أنا في كل الأماكن

منذ الأزل

فقط أريد وجهًا مليحًا

قد توارى في الرمال

تسامق كالجبال

نام في كف السحاب.

فرغت من الحمام، لفَّت جسدها وهي تدندن بثوب، حملت الأدوات إلى خلف القطية، أودعتهم في الزقاق الضيق الذي يفصل القطية عما جاورها من حاجز بين منزلهم والمنزل المجاور. عادت مسرعة وشرعت في ارتداء فستان قطني بلون وردي طويل يغطي ركبتيها، يصل إلى منتصف الساق، بذراعين لا يبلغان المعصم، وعليه فتحة في الصدر، عليها أزرار زرقاء.

سمعت طرقًا على الباب الخارجي وهي تمشط شعرها، دهنته بزيت واكتفت بتمرير المشط عليه، تكرر الطرق، قذفت بالمشط على المنضدة وأسرعت، وهي تردد: لحظة يا شفقان.

فتحت الباب وكادت تمازح الطارق الذي ظنت أنه إبراهيم. كانت الطارقة إحدى النساء من معارف أمها وبصحبتها رجال غرباء، ركضت مسرعة وتناولت طرحتها، غطت شعرها وعادت معتذرة ترحب بالضيوف، صحبت الرجلين إلى الخلوة، وذهبت المرأة إلى حيث ترقد والدة سميرة.

كان المنظر مربكًا بالنسبة إلى سميرة، فالمرأة ليست مقربة إلى أمها، لا تعرف اسمها، والرجلان يبدو أنهما غريبان. تظاهرت سميرة بأنها تعد شيئًا للضيوف وأرخت سمعها للهمس الذي يدور بين أمها والزائرة. كل الذي بلغ أذنها أن الرجلين من حمد حفون أحدهما يدعى السماني والآخر صديقه.

أخذت ماءً من الزير في جك من الألمونيوم وكوب زجاجي، ذهبت إلى الخلوة حيث يجلس الرجلان. كانت الخلوة تحتوي على عدد ثلاثة أسرَّة، عليهم ملاءة من البوليستر، بلون أصفر فاقع وتتوسط الخلوة طاولة عليها زهور صناعية وحولها طاولات من الحجم الصغير.

دخلت سميرة حاملة الماء ملقية التحية من جديد على الضيفين، كانا يجلسان على السرير الذي يسار الباب. صبت لهما الماء وسقتهما، وأخذت إحدى الطاولات الصغيرة ووضعتها أمامهما ووضعت عليها الجك والكوب لمن أراد منهما أن يستزيد. جلست في السرير الذي يقابلهما واضعة يديها على مخدة أخذتها من السرير الذي تجلس عليه. نظرت إليهما وهي لا تصدق عينيها، إذ لم يخطر على بالها

أن يزورهما أو تزور أحد من حمد حفون في بيتهما. عدا صديقة واحدة، بدا الأمر إليها أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة، ترى ما الذي أتى بهما ما الأمر؟

قطع حبل تفكيرها صوت قائلًا:

- أنا السماني وهذا صديقي جبارة، أنت سميرة مش كدا؟

ما إن سمعته ينطق اسمها حتى كادت تخرج من فمها صرخة لولا أنها تمالكت وردَّت بتماسك كاذب لا يعكس حيرتها:

- نعم أنا.. إن شاء الله خير!

رد عليها جبارة: أكيد خير، وأعتقد أن السماني ما كذب لما قال عنك تشبهي الأسطورة تاجوج.. نحن مستأجرين بيت أنا عندي واحدة والسماني اختارك أنت!!

جاء حديثه صفعة على وجهها لم تجد نفسها بعدها إلا وهي في الراكوبة تسأل المرأة الضيفة:

- من هؤلاء الرجال؟ وماذا يريدون؟

ردت عليها والدتها وعلى وجهها ابتسامة:

- خالتك جابت ليك عريس حمد حفون.

غرقت سميرة في صمت، شعرت أن لسانها أضحى بلا إحساس، لا تشعر بوجوده في فمها، لم يعد أكثر من

مضغـة مبهمـة بـلا وظيفـة، عقلهـا تجمـد.

دخلـت سـميرة القطيـة المجـاورة للراكوبـة، جلسـت تسـتجمع اللحظـات السـابقة، تحـاول أن تجعـل منهـا أمـرًا قابـلًا للتصديـق، صعـب عـلى عقلهـا أن يسـتوعب رجـلان مـن حمـد حفـون في منزلهـا والأكـثر صعوبـة يقصدانهـا للـزواج، لا بـدَّ أنهـا مزحـة أرادت تلـك المـرأة أن تداعـب بهـا يومنـا، أمـي تعلـم ذلـك، مـن أيـن لهـم معرفـة اسـمي! يبـدو أن أمـي مثـلي باغتهـا الأمـر، وأنهـم حقيقـة، أنـا لا أحلـم قطعًـا أنـني كنـت معهمـا الآن بالخلـوة، ونادياني باسـمي، وقـال عـني أحدهمـا إنـني أشـبه تاجـوج أسـطورة الجمـال الـتي حـكى عنهـا تاريـخ شرق السـودان، إنهـم حقيقـة بدليـل أسـلوبهم في استسـهال الآخريـن.

خرجـت في هـدوء، اسـتجمعت كل ثباتهـا، اتجهـت صـوب الخلـوة، تمنـت لـو أن المسـافة بـين الراكوبـة والخلـوة مائـة ميل علهـا تجـد وقتًـا كافيًـا أن تسـتوعب تلـك اللحظـة، أحسـت أن أقدامهـا تـسرع في الخطـى وكأنهـا متواطئـة مع تفاصيل المشـهد. الخلـوة تقـترب وكأنهـا تسـير ناحيتهـا، مـن الـذي يتحرك: الأشـياء أم أنـا؟ اقتربـت مـن بـاب الخلـوة، وقبـل أن تطـأ قدمهـا عتبـة البـاب، سـمعت طرقًـا، توقفـت، أرخـت سـمعها، هـل شيء يطـرق بداخلهـا؟ لا إنـه البـاب الخارجـي. غـيرت اتجاهها ناحيـة الصـوت، كانـت تسـير بـلا إرادة، تتوقـف إذا توقـف الصـوت، تبـدأ السـير إذا عـاود الطـرق، بلغـت البـاب الخارجـي، مصـدر الصـوت، لـم تسـأل مـن الطـارق، جذبـت إليهـا البـاب. كان

إبراهيم واقفًا على بعد خطوتين من الباب، ودَّت أن تفتعل ترحابًا يليق به، ولكن كل قدراتها الذهنية كانت تعمل بكل طاقتها لتتكيف مع ما يجري.

أمسكت بالباب مفتوحًا، باتت كمن داهمه الموت وهو يحاول أن ينطق بالشهادة وهي تراوغ بين حلقه وشفتيه.

تقدم إبراهيم وهو ينظر إليها وكأن التي أمامه لا علاقة لها بسميرة، لم يرَ ما ارتسم على وجهها من شعور من قبل، لم يفهم إن كانت غاضبة أو حزينة.

اتجه ناحية الراكوبة حيث والدتها، منعته وأشارت له أن يتجه ناحية القطية الثانية.

اندهش من صدها قائلًا: عاوز أسلم على خالتي!

ردت بحسم: بعدين.. بعدين، وأردفت: في ضيوف في الخلوة.. الزم الهدوء وبعدين نتفاهم.

دخلت إلى الخلوة بعدما أودعت إبراهيم في القطية الثانية. جلست سميرة حيث جلست في المرة الأولى.

تحدث جبارة موجهًا حديثه لسميرة: دا ابن عمك؟ قاصدًا إبراهيم.

تجاهلت سميرة السؤال وصاحبه وخاطبت السماني بصوت لا يحمل أي معنى، فارغ تمام من أي نبرات تحدد طبيعة

انفعالها وشعورها.

- الأخ السماني من وين أنت؟

أخرج السماني من جيبه كيس تمباك ووضع منه قطعة تحت شفته العليا، وقال مجيبًا: نحن جدنا الشيخ أبو الأيادي أولاد قبائل معروفين، والوالدة من ناس الشيخ ود المراح أصحاب كرامات معروفين.

وأردف: وإن شاء الله يبقى بيننا خير، وأهلنا من زمان يحبوا الحبش.

احتقن وجه سميرة وكادت أعصابها تتلف من فرط الاستفزاز الذي تشعر به.

وهنا تحدث جبارة قائلًا: بعدين نحن وأنتو واحد وأنا عندي عمي متزوج حبشية من أهلكم.

كان ذلك كافيًا لسميرة لكي تعلم أنها أمام امتحان نتائجه تعرض يوم القيامة، إنها ليست أمام رجل في حاجة إلى زوجة، بل أمام رجال شارفوا سن الأربعين وأتت بهم الأقدار والزراعة إلى القضارف ويبحثون عن خليلة تحت أي بند، لا فرق إذا كانت زوجة أو غيره.

صمتت وهي تحدث نفسها هل أشرح لهم التركيبة الاجتماعية للقرن الأفريقي حتى يميزوا بين الأجناس؟ أم أفيدهم بأن الناس أيضًا قبائل وأن الزواج له أصول يجب أن تراعى. هل

أنـا الآن أمـام جنـاة أم ضحايـا؟ مـن الـذي يتحمـل مسـؤولية هـؤلاء أبنـاء شـيوخ وقبائـل وأصحـاب كرامـات. ويستسـهلون الآخريـن. أنـا مهمـا حاولـت معهـم لا أعتقد سـأغير مـن حالهم.

خطـر عـلى بالهـا سـؤال لكنهـا صرفـت عنـه النظـر؛ كادت تسـأله عـن مسـتواه التعليمـي، لكنهـا تراجعـت مـرددة مـع نفسـها: التعليـم هـو السـبب؛ صامـت عمَّـا ينفـع النـاس، وهـل مـا يجـري في السـودان مـن كـوارث التعليـم بـريء منهـا؟ كيـف يكـون بريئًـا منهـا وهـو مشـغول بصناعـة تاريـخ لا يعـبر إلا عـن فئـة والإذاعـة مشـغولة بالطـرب.

خرجـت دون أن تسـتأذنهم، ومـا إن بلغـت منتصـف الحـوش حـتى انفجـرت ضاحكـة، حاولـت أن تكتـم ضحكتهـا، فشـلت، ركضـت إلى القطيـة كادت تبتلـع المخـدة وهـي تحـاول كتـم ضحكتهـا، ذرفـت دمعًـا غزيـرًا وهـي تضحـك، سـال الكحـل عـلى خديهـا. كلمـا تتخيـل أنهـا خليلـة السـماني وهـو يخـرج مـن جيبـه كيـس التمبـاك زادت رغبتهـا في الضحـك.

لـم تفـق إلا عـلى صـوت أمهـا وهـي تقـف أمامهـا وفي يدهـا كـوب مـن المـاء:

- أعـوذ بـالله يـا بـت جنيـتي.. عيـب كـدا.. ديـل ضيـوف في بيتـك.. امـشي قـول ليهـم العـاوزة تقـولي بـس بـأدب.. في النهايـة هـم دخلـوا بالبـاب.

علقت على حديث أمها ويدها ممدودة لأخذ الكوب:

- ديل كسروا الباب.. يا أمي.

شربت قليلًا من الماء، وغسلت وجهها بما تبقى، تناولت منشفة كانت بجوارها ومرآة يدوية، جففت البلل، تأكدت من أن بقايا الكحل والدموع قد زالت. رمقت إبراهيم بنظرة قبل أن تعود إليهم.

عادت إليهم، وجدتهم في صمت إلا من صوت الأحذية وهي تطرق على أرضية الخلوة المفروشة بتراب الجبل، لم تغير مكان جلوسها السابق.. شاركتهم الصمت وكأنهم في دار عزاء.

تحدثت باقتضاب:

- شكرًا لزيارتكم.. يا أخ السماني.. وأحب أقول ليكم أنتو في المكان الخطأ...

قاطعها جبارة: كيف يعني؟!لم تهتم بالرد على سؤاله. خرجت إلى الراكوبة وخاطبت المرأة:

- لو سمحت ضيوفك بانتظارك وشكرًا مع السلامة.

أسرعت المرأة ناحية الخلوة منادية: السماني يا جبارة.

خرج الرجلان وخرج إبراهيم الذي ظل مندهشًا وهو يراقب ما تيسر له من المشهد.

عاد إبراهيم إلى داخل الراكوبة، وأخذ يتبادل أطراف الحديث

مـع أم سـميرة، وكانـت سـميرة تعـد أدوات الجبنـة وتعيـد إلى المـنزل روحـه الـتي تـوارت خلـف اللحظـات الفائتـة.

النهـار انتصـف والشـمس عموديـة، فخشـيت سـميرة أن تزيـد نـار القهـوة الجـو سـخونة فاقترحـت أن يذهـب إبراهيـم وأمهـا إلى داخـل القطيـة ريثمـا تعـد الراكوبـة بعـد أن ترشـها بالمـاء.

في داخل القطية روت أم سميرة لإبراهيم ما جرى.

بعـد عـشر دقائـق كانـت أرضيـة الراكوبـة المغطـاة برمـل ناعـم يغلـب عليـه اللونـان الرصـاصي والأسـود مشـبعة بالمـاء، وتحـت نافذتهـا سريـر خشـبي صغـير عليـه مسـندة، ومقعـد عنـد مدخـل الراكوبـة محـاط بطاولـة الجبنـة المزينـة بلـون ذهـبي عـلى حوافهـا عليـه نقـاط سـوداء. واضعـة الموقـد عـلى يسـارها خـارج الراكوبـة. ووضعـت كرسـيًّا بـين موقـع جلوسـها والسريـر.

- يلا تعالوا الراكوبة جاهزة.

جلسـت أم سـميرة عـلى السريـر الخشـبي.. وجلـس إبراهيـم عـلى الكـرسي.

حاولـت سـميرة أن تبتـدر الحديـث إلا أن انقباضًـا في نفسـها تجـاه نظـرات إبراهيـم الشـاردة منعهـا.. انتظـرت قليـلًا لعلـه يعلـق مازحًـا عـلى مـا جـرى، إلا أنـه آثـر الصمـت. بـدا صـوت الـبن وهـو عـلى القـلاي (محمصـة بلديـة) هـو المتحـدث الوحيـد.. تمسـك سـميرة بالمقبـط وتضـع مقدمتـه عـلى النـار،

وهـو إنـاء مسـتدير مـن الزنـك بـذراع تمتـد إلى خـارج الموقـد ملفوفـة بخرقـة تقـي مـن الحـرارة. ترفعـه عـن النـار، تحـرك حبـات البـن، تصـدر صوتًـا كلعـب الأطفـال وهـم عـلى المهـد، تعيـده إلى النـار، تعيـد الكـرة تلـو الأخـرى، حـتى عمـت المـكان رائحـة البـن.

بـدا لـون البـن يميـل إلى البـني الداكـن.. مـدت القـلاي ناحيـة أمهـا لتستنشـق الرائحـة وتدعـو.. كان الدخـان يتصاعـد مـن القـلاي كجـني يخـرج مـن قمقمـه ليلـبي طلبـات السـائلين.. مالـت أم سـميرة بصدرهـا عـلى القـلاي الممـدود بيـد ابنتهـا ودفعـت الدخـان بيدهـا ناحيـة صدرهـا كمـن يستنشـق بخـورًا وهـي تـردد عبـارات بالتقـري.

اسـتدارت سـميرة ناحيـة إبراهيـم ليحـذو حـذو أمهـا، تباطـأ في حركتـه حـتى كاد الدخـان يتـلاشى، وبحركـة متثاقلـة اكتفـى بحركـة واحـدة وعـاد بظهـره إلى الكـرسي.

تظاهـرت أم سـميرة بأنهـا مشـغولة بجـدل خصـلات شـعرها.. كانـت تغمـس أصبعهـا في فنجـان بـه زيـت وتمسـك بخصلتهـا اليمـنى، تبللهـا بالزيـت وتجـدل، وكلمـا فرغـت مـن جـزء شرعـت في التـالي.

قالـت موجهـة حديثهـا إلى إبراهيـم: إن حماتـك بتحبـك لقـد حـضرت بـن الأربعـاء.

رد إبراهيم مبتسمًا: شكرًا يا خالتي.

لـم تكـن سـميرة في حاجـة إلى مـن يـشرح لهـا الموقـف. إبراهيـم يجلـس عـلى موقـد عقلـه، إلا أنهـا لا تعـرف تمامًـا مـا يـدور في تفكـيره، ظلـت منهمكـة في إعـداد الـبن وهـي ترقب توسـلات أمها لإبراهيـم مـن خـلال مبادراتهـا المسـتمرة في إثـارة المواضيـع. وهـو يكتفـي بابتسـامة متكلفـة أو تعليـق يغلـق الأبـواب أمـام أي اسـتطراد. كادت تقـول لأمهـا اصمتي، لـولا يقينهـا أن والدتها لا تكـرم إبراهيـم إلا لأنهـا تـراه بعـين الرضـا.

أعـدت سـميرة الـبن وقبـل أن تسـكبها في الفناجـين سـألت والدتهـا: أمـي.. أيـن لبـان البخـور (الجـاولي)؟ وهـي تعلـم أن إبراهيـم يحبـذ العـدني، ولكنهـا كانـت تحـاول أن تذيـب جبـال الجليـد الـتي مـلأت الراكوبـة، لـم تفلـح محاولتهـا، مالـت أمهـا إلى (الصريـف) وهـو حائـط مـن القصـب، وأخرجـت مـن بـين ثنايـاه ظرفًـا عليـه لبـان عـدني، وناولتـه ابنتهـا.

تعمـد إبراهيـم أن يقسـو عـلى سـميرة؛ اختـار لحظـة حاسـمة في طقـوس الجبنـة، مـا إن وضعـت النـار عـلى المبخـر وألقـت عليـه بعضًـا مـن اللبـان العـدني وشرعـت في صـب القهـوة عـلى الفناجـين حـتى وقـف إبراهيـم مسـتأذنًا أن لديـه بعـض الأمـور الهامـة، لـذا لا بـدَّ أن يغـادر. لـم يذعـن لصـوت أم سـميرة وهـي تسـتجديه أن يغـادر بعـد الفنجـان الأول، وهـي تـردد بتوسـل أنهـا بـن الأربعـاء.

ظلـت شـفاه سـميرة مطبقـة وهـي تقـول مـا نـوع هـذا اليـوم الـذي مـا يهـدأ إلا ويتوتـر مـن جديـد، وبطـرق غـير مألوفـة.

اتجـه إبراهيـم ناحيـة البـاب الخارجـي وسـميرة تحـاول أن تجـاري خطواتـه المسرعـة. فتـح البـاب وأراد أن يغـادر قبـل أن يلتفـت إلى الخلـف، لـولا صـوت سـميرة يسـأله:

- مـا كلمتـني عـن ملاحظـات عمـك سـليمان.. أظنـك جيـت عشـان كـدا؟!

لـم يسـتدر بجسـمه كامـلًا، بـل اكتفـي بعبـارة دخلـت قلـب سـميرة كنصـل مسـموم.. التفـت بوجهـه فقـط قائـلًا.. وعـلى فمـه نصـف ابتسـامة سـاخرة.. وطـرف شـفته العليـا يرتجـف: بعـد مسرحيـة السـماني.. لا أعتقـد أنـك محتاجـة تعـرفي حاجـة.

ردَّدت وحاجباهـا تجمعـا بـين عينيهـا: مسرحيـة السـماني!! مـا فهمـت!!

لم يرد.. تركها حائرة.

الأرض اهـتزت مـن تحـت قدميهـا.. لـم تصـدق أن الـذي كان يتحـدث إليهـا إبراهيـم.. تركـت البـاب مفتوحًـا حاولـت أن تجتـاز عتبتـه إلى الخـارج.. تلحـق بـه.. ليـشرح لهـا مـاذا يعـني؟ تراجعـت ونادتـه: إبراهيـم.

لـم يجـب. وقفـت لـم تركـض خلفـه.. ولـم يغادرهـا فحسـب، بـل أهانهـا ووالدتهـا. أغلقـت البـاب في هـدوء وكأن اليـوم بـدأ الآن.

عـادت إلى الراكوبـة وجـدت والدتهـا جالسـة في مـكان إعـداد

البن.. لم تعطِ ابنتها مجالًا للمناقشة:

- أنا لو تابعتكم حاتخربو شراب البن.. اقعدي وجاملِيني.

ظلت جامدة بلا شعور تيبست جوارحها، كانت تسمع دقات قلبها، نظرت إلى السماء كأنها تبحث عن الله ليثبِّت عقلها، أحالت بصرها إلى الأرض لعلها تلتقط منها الحكمة.

لم تشعر سميرة بنفسها إلا وهي تنكب على تقبيل أمها على رأسها، وأمها تبادلها القبلات وتضمها إليها ومحياها غارق في تبسم ودموع.

- تعرفي يا أمي أنا بنت محظوظة.

- كيف أنت محظوظة؟

- لأنك أنت أمي.. ولأن أبوي الله يرحمه نوراي.

الدهشة والزهو.. جعلا وجه أم سميرة قمرًا مستديرًا.

وقفت سميرة في قلب الراكوبة... وبصوت حرصت أن يكون خفيضًا ومشبعًا بالاعتداد بنفسها:

- أنا بت نوراي.. وبنت زهرة، أكثر من كدا ما عايزة.

- أبوك يا بنتي وهو عايش كان يقول لي ما تخافي معك سميرة، عشان كدا أنا واثقة إنك ما بتعملي غير الصحيح، وأنت عارفة لو ما كلمتيني أنت أنا ما باحب أسألك، بس عايزة أعرف إبراهيم مالو؟

- إبراهيـم يـا أمـي افتكـر إن الحصـل هنـا في بيتنـا كان حركـة عملناهـا نحـن.

تردد الأم عبارة ابنتها: حركة.. كيف؟

- عشان... صمتت.

- كيف يا بنت؟!

- ما عارفة يا أمي.. قال نحن.. ناس عيبة نسوي العيب.

صرخـت الأم بصـوت عـال: (أكجـه.. أكجـه... أكجـه عـبي)؛ أي عيـب.. عيـب.. عيـب كبـير.

رددت: إبراهيـم يـا أمـي قـال نحـن نـاس عيبـة.. أكيـد يـا أمـي الدنيـا دي خربـت أو هـي أصـلًا خربانـة ونحـن سـارحين. ومـا عندنـا خـبر.

تطلـق سـميرة ضحكـة مكتومـة تنـم عـن تعجـب وهـي تعقـد مقارنـة بـين السـماني وإبراهيـم.

- السـماني يـأتي بصديقـه وبرفقتهمـا امـرأة تخطئ أمي في اسـمها.. أسـأله مـن أيـن أنـت.. يعـدد أجـداده الأحيـاء منهـم والأمـوات وقبائلهـم مـن جهـة الأب والأم، ويعـتز بذلـك ولا يخطـر عـلى بالـه أنـني أنتمـي إلى مجتمـع وهنـاك أصـول يجـب أن تراعـى، وأكيـد مـا دام هـو ود قبائـل كمـا يزعـم عـارف الأصـول.

هـل يعقـل إنسـان يجـي عايـز عـروس ويقـوم جبـارة يتغـزل

فيها.. على الأقل لا يحترم أنهم هنا لغرض زواج.. وحري بهم إظهار بعض الحصافة، أسوأ الناس يتزين بالأخلاق في تلك اللحظات. لا أعتقد أنهم على علم بأنهم.. داخلين بيت أسرة.. يعني أنا لو كنت بالمصادفة عاملة سن دهب كان مشكلة كبيرة. وكمان الحامض في الكلام هم فاكرين أنا حبشية.. يعني عشان أنا أشرح ليهم لازم أسيء للحبش.

قلنا ناس حمد حفون هم كدا ودا نصيبهم من الفهم للناس، وهم شايفين روحهم أسياد الناس، يعني جبارة والسماني ومحمد أحمد كلهم واحد.

إبراهيم ود أهلي!! سلوك شخصي، السماني ممكن يقضي أمره مع أي واحدة واحتمال قبل ما يجي عندنا كان في مكان ثاني وربما لسه حايم.. وما يعرفني.

إبراهيم بيعرف سميرة ويسيء لأم سميرة وأهلها.

مهما ادعت سميرة أنها قادرة على استيعاب ما حدث بينها وبين إبراهيم، لن تحيط به من جوانبه كافة. أعادت ذاكرتها منذ أن دخلها إبراهيم أول مرة في عمرها أي شيء يعينها لتفهم. تتساءل هل هناك فرق بين الإنسان وذاته؟ هل هناك أكثر من إبراهيم في داخل إبراهيم؟ إبراهيم ابن المجتمع الواعي، وإبراهيم الرجل الذي يريد أن يمتلك النساء؟ لماذا أعتقد أنني أفعل.. لماذا حاصرني بالصواب والخطأ؟ كيف يتصور أني أفعل الصواب من أجله؟ أبي

أجـزل لي في العطـاء وأكرمـني وبـشر أمـي بي. ربمـا لعلمـه بوجـود السـماني وإبراهيـم كل لـه طريقتـه.

لجـأت إلى كثـير مـن الحيـل لتمـلأ سـاعات الأيـام الـتي بـدت تتشـابه، اقترحـت عـلى والدتهـا إضافـة إلى بيـع الفطـور لطـلاب المدرسـة المجـاورة الذيـن كانـت أعدادهـم في ازديـاد، أن تتفـق مـع إدارة المدرسـة باسـتئجار البوفيـه وإشـغال عامـل عليـه مقابـل وجبـة إفطـار للمعلمـين بقيمـة رمزيـة، عـلى أن يكـون البوفيـه أيضًـا يبيـع الفـول لسـكان الحـي كطلبـات خارجيـة في أثنـاء الـدوام الـدراسي ويسـتقبل الجمهـور ليـلًا.

فصل

فقـد إبراهيـم الاسـتمتاع بمهنـة التدريـس بعدمـا ظـن أنهـا ملهمـة وتجعلـه يشـعر بقيمتـه كإنسـان، لمـا فيهـا مـن عظـم الـدور الرسـالي، عـلى الرغـم مـن ضعـف العائـد المـادي الـذي هـو أقـرب إلى العـدم والعـوز. أخرجتـه المهنـة مـن حالـة الـدوران والركـض في دائـرة وهـو ينتظـر أن يبلـغ خـط النهايـة، يمـر بالمشـاهد نفسـها، النقـاط تتكـرر، والدائـرة تخـرج لـه لسـانها سـاخرة مـن حرصـه أنـه يريـد نقطـة النهايـة أو حـتى النقطـة الـتي بـدأت منهـا مسـيرة الانطـلاق.

انضـم إبراهيـم إلى دائـرة المدخنـين، يخـرج مـن البيـت في السـابعة صباحًـا يـوازي قـرص الشـمس الـذي يرسـل أشـعته عـلى خـده الأيمـن، تسـير الشـمس عـلى يمينـه كأنهـا تراقبـه وتحـصي خطواتـه. يقسِّـم الرحلـة من البيـت إلى المدرسـة بطول سـيجارتين، لـم يعـد يـدرك حركـة الزمـن، يشـعل الأولى عند أول

منعطـف بعـد خروجـه مـن البيـت، يسـتمر في نفـث دخانهـا، فعندمـا يطفئهـا بقدمـه يعـني أنـه قطـع ثلـث المسـافة، يسـير مسـتغرقًا في التفكـير حـتى يبلـغ المنحـدر الـذي يـؤدي إلى الخور ليعلـم أنـه قطـع الثلـث الثـاني مـن الرحلـة فيشـعل السـيجارة الثانيـة، ليبلـغ بهـا بـاب المدرسـة قبـل الثامنـة إلا ربـع موعـد نشـيد العلـم.

أحـب إبراهيـم مـادة التاريـخ الـتي يُدرِّسـها، كان يُـدرِّس التلاميـذ الحيـل اللازمـة للنجـاح في الامتحـان، ويخصـص وقتًـا في كل درس ليحدثهـم عـن الحيـل في تزويـر التاريـخ. كان يؤمـن بأنهـم لا يعلمـون شـيئًا عـن تاريـخ الجماعـات المشـكِّلة للسـودان، لا يعلمـون تاريـخ بعضهـم بعضًـا، يتصـور أحيانًـا أن الـتركي الـذي التقـاه مصادفـة قـد يـأتي أحـد أبنائـه، أليـس مـن العيـب أن يحدثهـم عـن أشـيائهم و تبـدو لهـم غريبـة، فبـدلًا مـن أن نتهـم الغريـب بأنـه يـدس السـم في التاريـخ، لمـاذا لا نـدرس التاريـخ كمـا حـدث بـدلًا مـن أن ننتقـي منـه أحداثًـا جميلـة وبطـولات فقـط.

ذابـت في لسـان إبراهيـم تلـك المتعـة، وتلاشـت، ولـم تـترك غـير طعـم عالـق بالحلـق لا يقـوى عـلى ابتلاعـه، لا ينتمـي طعمـه إلى المتعـة الـتي ذابـت، لـم يعـد قـادرًا عـلى التحمـل، يضغـط عـلى أسـنانه السـفلى بالعليـا حـتى يثبـت أقدامـه عـلى الأرض، منـذ أن جـرى مـا حـدث بينـه وسـميرة.

اليـوم الأخـير في المدرسـة، في شـهر مـارس، لـم يبـقَ غـير

طلاب السنة الثالثة في المدرسة المتوسطة، الذين يستعدون للانتقال إلى مركز الامتحانات، دخل إبراهيم غرفة الدرس، وقف التلاميذ تحية له، أشار إليهم بالجلوس، أخذ قطعة طباشير بيضاء وأخرى زرقاء، كتب بالبيضاء في وسط اللوحة الأعلى الثقافة، وضع تحتها خطين بلون أزرق.

التفت ناحية التلاميذ الذين يناهز عددهم السبعين، سار بينهم حتى وصل إلى آخر الصف، بدأ همس التلاميذ في الاختفاء، عاد إلى واجهة الصف، وبصوت جلي واضح، بدأ حديثه قائلًا:

- لو كان لدي طباشير أحمر لوضعت الخطين اللذين تحت الكلمة التي بالسبورة به، ولكن لم يرغمني على استخدام الأزرق إلا العدم.

كتبت تلك الكلمة وأنا أعلم أنكم تعرفون لها معنا شاذًّا، ما إن ترد إلا ويتبادر إلى الأذهان أنها تعني لكم الحصول على معلومات، أي إذا وقف إنسان أمامكم وردَّد معلومات كالببغاء ليس من الدقة أن نصف ما يخرج من فيه ثقافة، فهذا دور آلي بالإمكان أن نوفره عن طريق تسجيل ما نريد من معلومات في شريط تسجيلي ونستمع له.

إذن ما هي الثقافة؟

انتظر هنيهة من الوقت لم يبادر أي من التلاميذ بالإجابة، بدا لهم الحديث أشبه بالطلاسم، إذا حرك أحدهم مقعده

بـلا قصـد التفـت الجميـع ناحيـة الصـوت لـيروا مـن هـذا الـذي يملـك الإجابة.

قطـع صمـت الجميـع بصوتـه مجـددًا: لـم أكـن أتوقـع إجابـة، ولا أنـوي أن أشرح لكـم المعـنى لأنهـا تعـرف بالـدال إليهـا، وهـذا يشـق عـلى عقولكـم البضَّـة. ولكـن أريدكـم أن تعلمـوا أنكـم مسـتهدفون مـن قبـل المسـتفيدين مـن عـدم قدرتكـم عـلى معرفـة الثقافـة.. وكيـف يمكـن أن يتحكـم بهـا المتسـلط عـلى رقـاب النـاس... الإنسـان كائـن ثقـافي.

هـؤلاء الذيـن ألزمونـا أن نهـدر الوقـت في ترديـد مواقـع حربيـة محـددة لا تقبـل المراجعـة ولا التغـير، أولئـك الذيـن جعلـوا مـن مـادة التاريـخ وأسـتاذها حكوانيًّـا فاشـلًا. يـروي لكـم عـن سـيوف خشـبية قطعـت أوصـال الحديـد، عـن خـوارق. وتركونـا نجهـل بعضنـا بعضًـا، نهاجـر آلاف الأميـال، بأخيلتنـا ونعجـز عـن إدراك جوارنـا. جعلـوا الحيـاة رحلـة شـاقة لنكتشـف أنفسـنا، وبعضنـا يخفـق ويعتقـد أنـه أصـاب. نحـن نخـترع كل يـوم كذبـة لنعيـش عليهـا.

انغمـس الأسـتاذ إبراهيـم في ذاتـه حـتى لـم يعـد يشـعر بالتلاميـذ وهـم يتهامسـون ويطلقـون القفشـات، بـل غـادر بعضهـم حجـرة الـدرس. ختـم إبراهيـم حديثـه للعـشرة تلاميـذ الذيـن تبقـوا بـأن شـكرهم عـلى حسـن الإصغـاء متمنيًـا لهـم النجـاح.

لـم يـترك إبراهيـم بابًـا إلا وطرقـه ليجـد فرصـة للتحـدث إلى سـميرة، لـم يكلـف أحـدًا لينقـل لهـا أسـفه البالـغ عـن الـذي بـدر منـه إلا جـاءه معتـذرًا، غـادر التلاميـذ المدرسـة ولـم يبـق سـوى إبراهيـم والحـارس، لـم يكـن إبراهيـم راغبًـا في العـودة إلى الحـي في هـذا الوقـت؛ يريـد أن يشـغل وقتـه بـأي شيء، فاليـوم محاولتـه الهامـة، فبعـد جهـد أقنـع عمـه سـليمان أن يخـرج مـن عزلتـه ويذهـب في طلـب ودهـا. مـن أجـل ابـن أخيـه.

يعـز عـلى العـم أن يـرى إبراهيـم في تبـدل مسـتمر دون أن يبـذل في سـبيله. وإبراهيـم لا يملـك سـوى الانتظـار إلى الليـل حـتى يبـدأ عمـه نهـاره. طلـب إبراهيـم مـن حـارس المدرسـة أن يسـمح لـه بمسـاعدته، اعتـذر الحـارس، لـم يعـد هنـاك عمـل، كل حجـرات الدراسـة أُغلِقـت ومكاتـب المدرسـين أيضًـا، عـدا السـيد الناظـر مـا زال بمكتبـه. آخـر شيء يتمـنى إبراهيـم أن يراه حـضرة الناظـر، الـذي يلـح عـلى إبراهيـم بالأسـئلة السـخيفة، فهـو في نظـر إبراهيـم رجـل سـطحي ومقـرف، لا يفهـم في التربيـة غـير الكربـاج وإحضـار أوليـاء الأمـور ليلقنهـم دروسًـا في الاهتمـام بالأبنـاء، مـا يقولـه للفقـير يـردده للغـني، وللمتعلـم، والأمـي، يعتقـد أنـه يقيـم العـدل بينهـم لذلـك يتوقـع منهـم التطابـق في فهمـه، الناظـر في نظـر إبراهيـم تلميـذ تقـدم في السـن وبقـي عقلـه حبيـس المقـرر الـدراسي، لـم يجتهـد مـرة أن يطـل مـن نافـذة حياتـه لـيرى الحيـاة في سـياق غـير الـذي يحرسـه بكرباجـه.

غـادر إبراهيـم المدرسـة قاصـدًا أشـجار محطـة السـكة الحديد، مـن غيرهـا يعطـي لشـهر مـارس ظـلًّا، هـل يدعـو المـرء سرًّا للاسـتعمار البريطـاني وجهـرًا عليـه. تركـوا محطـة للقطـار، عـلى رصيفهـا المفتـوح للجميـع وسـادة خـضراء، مـن شـجر النيـم الهنـدي، قـرر إبراهيـم أن يتقاسـمها مـع المشردين بأعصابهـم البـاردة وهدوئهـم الأصيـل، لا هـمَّ لهـم، سـكنوا مـسرح الحيـاة، يراقبـون النـص المـوازي الركيـك.

تمـدد عـلى الكنبـة الصخريـة، وهـو يقلـب صحـف الأمـس، رئيـس مجلـس السـيادة يفتتـح مـا يغلـق وعـي النـاس، رئيـس الـوزراء يخطـب يوميًّـا لا يتعـب أعانـه الله، الوزراء يرثـون الأرض والفقـراء يدخلـون الجنـة.

يخـرج مـن جيبـه علبـة السـجائر، ماركـة ناشـونال، يشـعل واحـدة، يقـترب منـه شـخص يجلـس عنـد قدميـه، الكنبـة تسـع الجميـع أكـثر مـن الوطـن، يخـرج سـيجارة خاصـة صنعهـا بيـده تشـبه الطباشـير، يخـرج عـود ثقـاب يشـعل أعـوادًا عطريـة، يضعهـا بيمينـه يذهـب ريحهـا للمـارة، يشـعل لفافتـه، يتلـذذ بنفـث الدخـان، يفقـد الشـعور بإبراهيـم. يدنـدن بصـوت خـاص:

الحب ليس قضيتي

لكن عيون الناس

في موطني أخشى على قلبي

من الإحساس.

ظـل إبراهيـم يحـاور نفسـه الملولـة السـئمة كعادتـه: تـرى إن فعلـت كـذا أنسـب لي أم إنـني مـليء بفـراغ ونواقـص وبمـا لا يشـغل النـاس، ومـن هـم النـاس؟

ومن أنا؟

هل أنا مجرد غاوٍ لعوب جاهل شغوف بالقهوة والتدخين؟

يمـتزج جسـدي برائحـة التبـغ والأوراق مدعيًـا الغـرق في أرفـف عمـي سـليمان، كتـب لا تسـمن ولا تغـني مـن جـوع، بـل تصنـع الفقـر وتلهـي عـن المتعـة.

لماذا لم يبتكر الإنسان فرشاة لتنظيف الذاكرة؟

إن شـاء أن ينظِّفهـا قبـل النـوم أو عنـد الظهـيرة، تـرى سـيكون بيننـا مـن يهمـل ذاكرتـه ولا يعتـني بهـا وتنتـج روائـح كريهـة كالأقـواه.

ولكـن كيـف تكـون رائحـة الذاكـرة؟ مـا هـي رائحـة خطـئي في ذاكـرة سـميرة؟

هـل الكبـار الذيـن نشـأوا في أجـواء الحـروب الأهليـة يمتلكـون ذاكـرة حاقـدة، انتقاميـة، أم وجلـة تخـاف مـن أن تعيـد شريـط المـوت والنـار والدمـار؟ هـل التنـازل لمنـع الحـروب أبقـى قيمـة مـن الحـق الضائـع؟ ولكـن الهـوان أيضًـا يخلـق ذاكـرة متحفـزة

للمـوت وتـرى في المـوت حيـاة جديـدة يدفـع بهـا الشـهداء إلى ورثتهـم.

وهـؤلاء الذيـن نشـأوا يأكلـون مـن بيـت المـال العـام تمتـد ذاكرتهـم إلى أردافهـم وكروشـهم، ويورثـون أبناءهـم ذل المسـتقبل، يخالطـون النـاس بـرؤوس مطئطئـة وذاكـرة يدافـع عنهـا عقـل تبريـري، يزيـن القبـح، كامـرأة قضـت عمرهـا تفاخـر بالإثـم ولـم تجـد في شـيخوختها مـا تعـتز بـه، لا يعلمـون أن سـلطة الكـذب تـزور لصاحبهـا التاريـخ وتجعـل ذريتـه أقزامًـا في المسـتقبل.

أمـا أولئـك الذيـن تربـوا عـلى أصـوات رجـال يختلـون بأمهاتهـم مـلأ بالشـك والريبـة، ويكرهـون الفضائـل، يـرون الحيـاة بذاكـرة ليليـة وأخـرى للنهـار.

تذكـر أقـوال عمـه عـن والدتـه (جـدة إبراهيـم): كانـت والدتـه عندمـا تهـز ذاكرتهـا تسـاقط منهـا صـورًا زاهيـة لمدينـة شـاهقة تسـكن عـلى مسـتوى عـالٍ فـوق سـطح البحـر، تتحـدث عـن شـوارعها الـتي تغتسـل بالمـاء وعـن رائحـة الأشـجار وعـن الضبـاب الـذى يكـون قريبًـا مـن هامـات البـشر.

تفعـل ذلـك لتحـارب وتواجـه بؤسـها وفقرهـا، والجفـاف الـذي يتشـكل في ذاكـرة أبنائهـا، تحقـن خيالاتهـم بفضـاءات لا يملكـون لهـا خيـالًا إلا مـن شاشـة التلفـاز عندمـا يتكدسـون أمامـه لمشـاهدة الدرامـا المصريـة، ومتابعـة الأفـلام الهنديـة، وصـور

المجلات التي يجلبها أصحاب دكاكين الزنك والصفيح ليلفوا بها للزبائن.

هو يعلم أنه غائم ولا تحدد ذاكرته رائحة، وكلما يقرر السير عليها ليقتفي أثر نفسه ويحصي أيام عمره يعجز أمام تراكم الأحلام، كلما يرى في نهايات ذاكرته كوة مضيئة يعتقد بأنها البوابة التي خرج منها من الزمن المطلق إلى الحياة.

يخشي من فكرة أن يحلم، فقد جرب ذلك، كلما تنضج أفكاره، ويتخلَّق لديه التوق إلى التعبير عنها، ويبدأ بالحلم، يكتشف أن شروطًا تعيش خارجه تمنع حلمه من التحقق. فيمكث مع حلمه طويلًا يسامره يناجيه، يحمله في تلافيف روحه وفي حقائبه، يراه في لحظات الوضوء للصلاة يقف دونه والخشوع، يهجر الصلاة زمنًا، يضاعف شغفه بالقهوة والتبغ. وقبل البت في أمر الحلم تلوح في نفسه ملامح حلم جديد، جاء من محبسه في الأفق، بعيدًا ينتظر انقضاء أمر الحلم الذي سبقه، مل الحلم الانتظار وقرر القدوم.

يخبئ حلمه الأول في ذاكرته أملًا في العودة إليه، يستقبل حلمه الجديد، تكتمل دورته دون أن يتحقق، يلوح حلم جديد في الأفق، يخبئ الذي بين عقله وقلبه في ذاكرته، يستقبل الذي لاح يمكث معه يسليه، يداعبه في الأسواق وفي المواصلات. تظهر ملامح حلم جديد، يسرع إلى ذاكرته ليخبئ حلمه، يجد أحلامه عطشى جوعى، كثيرًا منها نفق كالسايبة تعفنت،

تقـذف بهـا الأيـام في مـدارات تفكـيره وينتـج بهـا حلمًـا. ويـرى في آخـر ذاكرتـه كـوة بيضـاء مضيئـة يعـرف أنهـا بوابـة خروجـه مـن الزمـن الإلهـي المطلـق إلى حـيز الحيـاة. إنهـا بوابـة إلى ذاكرتـه الـتي لا يمتلكهـا.

كان خيـال إبراهيـم وهـو يسـتدعي الحيـاة يسـتحضر أحمـد صديقـه الـذي غـادر إلى موسـكو، وهـو يـراوده ليصـف صـور سـميرة وحديثهـا وهـو يسـتقبله دومًـا بمطلـع أغنيـة قديمـة يرمـز بهـا:

يا سمير بنظرتك أوفي الميعاد

العيون الشافتك ما أسعدا

من هواك أنا جسمي دايمًا في ارتعاد

أما نومي الفر ما منظور يعاد..

إلى أن يصل إلى:

طرفي ساهر يتلو آيات الوداد

الشجر أقلام جميع

والنيل مداد

يا سمير.

يتلبس الأبيات ويصيح بها كدرويش شده الطار وأخذه الجذب الإلهي إلى حيث تنقطع الصلة بالمادة. كان إبراهيم لا يملك إلا أن يسقيه من خياله عن سميرة؛ انفعالاتها ضحكتها الصافية انسيابها وتمنعها.

أوجاع الرجاء، وصوت الأمل بالجلوس في حضرة سميرة بلغت مداها، والنهار توقف والشمس لاحقت إبراهيم حيثما ولى وجهه، غادر إلى البيت ولا أمل له أن النهار سينقضي، ليذهب عمه سليمان ويجعل الحياة ممكنة.

في وقت الأصيل نفد صبر إبراهيم، دخل الخلوة ليوقظ عمه سليمان، كان سليمان يودع الوسن الأخير من عينيه، شعر بدخول إبراهيم، خاطبه قائلًا:

- أهلنا بيقولوا (شافق عور ولد) أي المستعجل ينجب أعمى، ساعدنا بالصبر، بعد صلاة المغرب حامشي وأجيك بالخبر اليقين.

رد إبراهيم: يا عمي أنت يدك في المويه عشان كدا شايفني مستعجل، وما تنسى دي سميرة.

تحرك إبراهيم وهو ما زال يخاطب عمه: أنا أعد ليك الحمام وأكلم الوالدة تجهز ليك حاجة تاكلها.

الليل ونهايات النهار تعانقا والنجوم أطلت متباعدة تشهد تعاقبهما، معًا ظلا خروج سليمان من المنزل أول مرة

بعـد سـنوات قضاهـا في مسـاحة لا تتجـاوز أربعمائـة مـتر، كان سـليمان في حاجـة إلى رفقـة إبراهيـم لا ليدلـه عـلى منزل سـميرة، فهـو يعلـم أنـه يبعـد عنهـم مسـافة خمسـمائة مـتر، وليسـت هنـاك منعطفـات كثـيرة يخـشى عـلى نفسـه مـن أن تضللـه، فقـط يحتـاج إليـه لأن سـليمان لـم يعـد واثقًـا مـن علاقتـه بالطرقـات، أو ربمـا لا يريـد أن يفصـح عـن خشـيته مـن أن يـراه نـاس الحـي وينسـجون مـوالًا جديـدًا عـن خطواتـه في الليـل، فأهـل الحـي يمثـل سـليمان زادهـم في الثرثـرة، لا يمنعهـم عنـه إلا طغيـان حـدث عابـر، مـا إن ينتهـي حـتى يعـودوا إلى سـيرة سـليمان.

في الطريـق بـدأ إبراهيـم يذكـر عمـه كل المـبررات الـتي حفظهـا سـليمان كـضرورة سـورة الفاتحـة للصـلاة، لكنـه كان يسـتمع لهـا مـن ابـن أخيـه إشـفاقًا، فوضعـه لا يحتمـل الزجـر أو العتـاب، فهـو الآن كإنـاء مـن خـزف؛ تكـسره الكلمـات.

خطـوات تفصـل بينهمـا وبـاب مـنزل سـميرة، وقـف سـليمان أمـام ابـن أخيـه وجهًـا لوجـه وخاطبـه قائـلًا: سـأعود بعـد سـاعة، هـون عـلى نفسـك، وعـد إلى البيـت.

تـوارى إبراهيـم في الظـلام، واقـترب سـليمان مـن البـاب، طـرق البـاب بحـذر، وانتظـر هنيهـة، أعـاد الطـرق، وانتظـر ثـواني، تداخـل طرقـه في المـرة الثالثـة مـع صـوت سـميرة مـن الداخـل وهـي تسـأل: مـين؟

رد سليمان بالتحية: السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. مين؟

- مساء الخير يا سميرة.. أنا سليمان.

فتحت الباب وهي تردد: أهلًا.. أهلًا..

ومدت يدها تصافحه قبل أن يتجاوز عتبة الباب إلى الداخل ولسانها يلهج بالترحيب.. سمعت أمها صوت سليمان قامت هي الأخرى: مرحبًا.. مرحبًا... اخضر عودنا بمجيئك.

أضافت سميرة: زارتنا الملائكة.

كان في الحوش السرير الخشبي المفضل لوالدة سميرة وبجواره منضدة، وبقربهما موقد صغير عليه إناء به حليب، وعلى مسافة كانت هناك طاولة عليها بعض الكتب والأوراق وعليها فانوس وبجوارها كرسي، دخلت سميرة إلى الخلوة وأحضرت كرسيًّا وضعته أمام الخلوة وأشارت إليه بالجلوس، ووضعت أمامه منضدة وغادرت ناحية الراكوبة، وظلت والدتها واقفة على بعد ثلاثة أمتار من سليمان وهو جالس على الكرسي، وهي تسوي الأرض برجلها اليمنى، ويداها مختبئتان تحت الثوب، وتسأله عن حاله وكيف الأهل. وهو يرد عليها ويبادلها الاطمئنان على أحوالهم.

عادت سميرة وهي تحمل صينية عليها كوب من عصير الليمون وضعته أمام سليمان، وذهبت والدتها وأحضرت

كرسـيًّا ووضعتـه وأشـارت لابنتهـا بالجلـوس، وغادرتهمـا إلى حيـث الموقـد.

اتخـذت سـميرة مقعدهـا أمـام سـليمان وضـوء الفانـوس الخافـت والنجـوم الـتي تناثـرت في السـماء جعـلا الظـلام وديعًـا ومسـالمًا.

بادر سليمان: لازم نجيك عشان نشوفك؟!

أجابته: خطوتك دي جميل على رقبتنا، مع جمايلك الكثيرة.

- ما في جمايل ولا حاجة.

- كيـف مـا في جمايـل وأنـا منـذ زيـارتي الأولى ليـك وأردد عبارتـك وتقـدر تقـول عملتهـا تعويـذة.

- أي عبارة؟

- المعرفـة تحـول الإنسـان إلى حالـة عقلانيـة، وأنـا بالنسـبة لي الجلسـات معـاك كانـت أهـم مـن كل مراحـل عمـري الدراسـية. شيء غريـب أن يشـعر الإنسـان بعـد أن أكمـل المرحلـة الثانويـة يريـد أن يغتسـل معرفيًّـا ممـا لحـق بـه مـن أذى.

- جلسـاتنا مفيـدة بدليـل إنـك توقفـتِ فجـأة مـدة مـن الزمـن، مـع إنـك قدمـت ملاحظـات في التاريـخ في غايـة الأهميـة.

أدركـت سـميرة مـا وراء كلام سـليمان، ولكنهـا تظاهـرت بأنهـا لم تفهـم غـير الظاهـر منـه: لـو في أي حاجـة أنـا عملتهـا فالفضـل

لله سبحانه وتعالى ثم ليك ولمكتبتك العظيمة.

فشلت محاولة سليمان الأولى في دفع الحديث إلى حيث يريد، وهنا تعمد إدخال اسم إبراهيم قائلًا:

- دومًا أنا وإبراهيم نعيد التأمل في ملاحظتك الخاصة بالقوات البريطانية عندما جاءت من مدينة كسلا...

وهنا قالت: هل تود أن تطلع عليها في صيغتها الأخيرة؟

أجابها نعم، وهو يردد في نفسه أنها صدت محاولته الثانية ولم تقف عند اسم إبراهيم. قامت سميرة على صوت أمها وهي تناديها لتأخذ الشاي. ذهبت ولم تنسَ أن تذهب إلى داخل القطية وتجلب معها أوراقًا مكتوبًا عليهم بخط اليد تحت عنوان عريض: الأورطة الشرقية.. والهوية الإريترية، وبعنوان فرعي: تأملات خاصة.

ناولته الورقة الأولى:

(تذكر المصادر التاريخية أنه في سبتمبر ١٨٩٨ تحركت كتيبة بريطانية من كسلا، بقيادة اللفتنانت كولونيل بارسونز، وتتكون قواتها من جنود أحباش وصوماليين وإريتريين وعدد قليل من البني عامر. لمحاربة جيش المهدية الذي كان يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل، معظمهم من كردفان ودارفور، وقعت المعركة بين نهر عطبرة والقضارف، وكانت قوات المهدية بقيادة الأمير سعد الله. وترك حامية صغيرة بقيادة

النـور عنقـرة).

فـرغ منهـا ووجـد يدهـا ممـدودة إليـه بورقـة ثانيـة عـن ميـلاد المسـتعمرة الإيطاليـة إريتريـا.

رفـع وجهـه ناظـرًا إليهـا ليفهـم مـا ترمـي إليـه، لاحظـت السـؤال يغطـي ملامحـه، لـم تعـطِ إجابـة بـل طرحـت عليـه سـؤالًا: كـم مـن الوقـت نحتـاج لخلـق هويـة مشـتركة، وهـل هنـاك شروط يجـب توافرهـا لميـلاد أي هويـة؟ ومـن الأفضـل أن تحـدد لي مـا معـنى الهويـة بدايـة. ثـم مـدت إليـه ورقـة أشـبه بامتحـان مـادة الرياضيـات مكتوبًـا عليهـا:

إذا أُعلِـن قيـام المسـتعمرة الإيطاليـة إريتريـا في ١٨٩٠ هـل تكفـي ثمانيـة أعـوام لخلـق شـعب إريـتري ليـأتي ضمـن القـوات البريطانيـة مـن كسـلا لمحاربـة المهديـة؟

أجابهـا سـليمان: لا أعتقـد، بدليـل أنـه بعـد نصـف قـرن مـن هـذا الزمـان فشـلت اللجنـة الدوليـة لاسـتطلاع آراء النـاس في إريتريـا حـول المصـير الإريـتري لعـدم وجـود التجانـس. وانعـدام الهويـة المشـتركة.

تدخلـت سـميرة قائلـة: بـل إن «ج. ك. ن. ترفاسـكس» في كتابـه إريتريـا مسـتعمرة في زمـن الانتقـال (١٩٤١ - ١٩٥٢) قـال إن في إريتريـا لا شـعب إريـتري بالمعـنى المتعـارف عليـه، بـل كل الـذي يتجـلى هـو المـزاج والرغبـة الإيطاليـة.

سليمان متسائلًا: ما هو المراد من هذا السرد التاريخي؟

- ذكرت وثائق حمد حفون أن القوات البريطانية التي جاءت من كسلا بها صوماليون وأحباش وإريتريون.. كيف استطاع الموثق أن يحدد هوية الإريتريين في تلك الحملة وهي لم تتكوَّن بعد وما هي أشكالهم؟ لماذا لم يقل بجا؟ ألم يكن البجا ولدوا بعد؟ أم إنهم يجب أن يكونوا في الثورة المهدية حتى يكتمل النص التاريخي المطلوب. بل...

وهنا قاطعها سليمان: يا سميرة هذا حمل كثير عليكِ.. خففي على نفسكِ.

صمتت سميرة هنيهة: الذي كتب التاريخ يا عم سليمان أدخل الناس في دوامة.. أهدر طاقات كان يمكن أن تجتهد في أشياء كثيرة. لو كان النص التاريخي بخير كان صنعنا الإبرة، لكن لأننا مشغولون بالنفي والإثبات أو تايهين فقدنا شعورنا بقيمة الزمن.. تعرف من الذي فعل ذلك؟ ليس الاستعمار...

واستمرت في الحديث: في رواية موسم الهجرة للشمال وصف الإنجليز مصطفى سعيد بالإنجليزي الأسود، لو نظرنا إلى تركة الاستعمار البريطاني سنجد علاوة على شجر النيم ترك من ورائه الإنجليزي الأسود الذي حكم السودان من بعده، وهو أيضًا امتداد للخديوي الأسود. مع العلم الناس في السودان اللون لديهم شعور، تظهر في السلوك وليس في

البـشرة.

فجـأة ابتسـمت وهـي تنظـر إلى الأرض: كنـت أعتقـد يـا عـم سـليمان أن أهـلي في حاجـة إلى سـاحة كبـيرة تقـرع لهـم فيهـا الطبـول ليخرجـوا الحـزن الـذي تكـوم في أجسـادهم كالشـحوم. والآن أضيـف أيضًـا أن طريقـة سـؤال الجـان مثـل الـتي تجـري في بيـت الـزار، عندمـا تسـأل المـرأة مـن أنـت؟ ليخـرج الجـان مـن جسـد المريـض؟ أعتقـد السـودان بـه وعـي يجـب أن تقـرع لـه الطبـول لينطـق كالجـان في جسـد المريـض.

كانـت الأمسـية بالنسـبة إلى سـليمان إعـادة اكتشـاف لشـخصية سـميرة، هالـه أنهـا لـم تأخـذ الجلسـات في حـدود المعرفـة الفرديـة، بـل كان يـرى في عينيهـا ضـوءًا.. والتماعًـا.

ودعته عند الباب قائلة: للأسف يا سليمان السودان ضحية.

خـروج سـليمان مـن مـنزل سـميرة كان أقـسى مـن يـوم الزيـارة الـتي غـرس إبراهيـم في قلبهـا نصلـه، بكـت كمـا لـم تبـكِ مـن قبـل، أحسـت بـشيء يقتلـع مـن أحشـائها جنينًـا ظلـت ترعـاه طيلـة سـنوات عمرهـا، قـررت وأده، كانـت لحظـة اسـتئصال لعضـو حيـوي بيدهـا أصابـه التلـف، تسـبب في إهانتهـا، جعـل إبراهيـم يظـن فيهـا الظنـون.

لـم يـسرِ سـليمان في الظـلام كثـيرًا، ثلاثـون مـترًا مـن مـنزل سـميرة حـتى شـاهد شـبحًا يسـير ناحيتـه، اقـترب إبراهيـم مـن عمـه متسـائلًا: اتأخـرت يـا عمـي! أنـت مـا زلـت هنـا؟

- مشيت البيت ولكن عدت لأطمئن عليك.

لم يدرْ بينهما حديث طوال الأمتار التي تفصل بين البيتين، دلفا إلى المنزل وكل يعد نفسه إلى اللحظات القادمات، إبراهيم لا يرغب في سوى الاستماع لرغبته في أن سميرة غفرت له ما اقترف من ذنب، حتى إن جاء الغفران مشروطًا سيذعن دون إبداء أي تبرم. سليمان عاد وهو أكثر حيرة من ذي قبل، أعاد شريط الزيارة الأولى التي زارته فيها سميرة مع إبراهيم في جنح الظلام، في ليلة العرس، والحلقات التي داومت عليها وشغفها بقراءة كل ما يمتلك من كتب، وسؤال إبراهيم له عن رأيه فيها.

كان من الأجدر أن أخبره أنها تشبه (إيرات) التي ضاعت مني في تلافيف الحياة وخياراتي الخاطئة، كنت أرى أنها تكبر ابن أخي عقلًا، تفكيرها يتسع دومًا لالتهام التفاصيل، قادرة على ضخ طاقة إيجابية في روحها ومحيطها، هي من مصادر الحياة التي لا تنضب. ابن أخي شاب صادق وأمين، ولكن له مسحة تقليدية في الحياة لا تعينه على استيعابها كاملة.

باغت سليمان ابن أخيه قائلًا: أشعر بأنني أرغب في الاستماع إليك أكثر من أن أتحدث.

- ما فهمتك يا عمي!!

- حتى أنا محتاج أتكلم بدلًا من إعطاء إجابة محددة.

- ما زالت غاضبة؟

- إبراهيم.. أنت بتعرف سميرة؟

- أكيد يا عمي!

- وبتفهم شخصية سميرة؟

- نعم يا عمي.. هي زعلانة ولكن... في كلام أنا يا عمي لم أذكره لك!!

اكتفى سليمان بالنظر إلى ابن أخيه، وهو غير واثق من أي رد، بات متيقنًا من أن سميرة عالمها اتسع، وأن البائس الذي أمامه ما زال يرفل في فسحة الأمل بعود حميد.

تحدث إبراهيم:

- بعد زواج سعيد بأيام، ذهبت لأحمد في بيتهم، وما كان في البيت غير والدته، أصرت أن أبقى لأن أحمد في مشوار وسوف يحضر في أي لحظة، وبدأت تحكي عن حاجات كثيرة، ظروف البلد وماذا نفعل مع غلاء المعيشة، وكلام مكرر. فجأة قالت لي يا ولدي يا إبراهيم أنت عزيز عليَّ مثل أحمد وأنا زي أمك، وموضوعك مع سميرة يهمني وبصراحة البت الصعلوكة دي أنت تستاهل أحسن منها. واستطرد: أنا طبعًا أول مرة في حياتي أسمع إنسانًا يسيء لسميرة، فكانت بالنسبة إليَّ مفاجأة كبيرة جدًّا، قلت يا خالة أنتِ تسيئي لسميرة، ردت عليَّ قالت لي عندي الدليل...

رد سليمان دون أن يشعر صائحًا: عندها دليل؟

- أنا كمان سألتها دليل.. ماذا؟ قالت إنها يوم زواج سعيد بالنهار شافتها نازلة من عربية فيها شاب من (حمد حفون) وكانت تعبانة، كأنها كانت تعمل في شيء خطأ، وشوية تقع في الأرض لو ما شلتها وقالت لي أنا عايزة أصل بيتنا، وصلتها، ويا ولدي أنا مرأة بفهم في حاجات النسوان، وزي تعبها دا أنا بعرفو كويس. وتحدثت عن والدة سميرة بطريقة لا تليق وأنها تعلم بكل خطواتها.

أنا طبعًا ما صدقتها ولو ما هي كبيرة في السن ووالدة أحمد كان ضربتها بكفي على وجهها، غادرتها غاضبًا لأني أعرف سميرة جيدًا. لكن لم أنس الموضوع، كل فترة والثانية أسأل نفسي معقول سميرة ممثلة بارعة؟ أقول أعوذ بالله أم أحمد دي شيطان. طيب هل أم أحمد لديها مصلحة؟ إلى أن رأيت (حمد حفون) في بيتهم ما بعرف.. عقلي غاب.. وتذكرت كلام أم أحمد وقلت ما قلته.

صمت سليمان وهو ما بين مصدق أن الذي يجلس أمامه إبراهيم ابن أخيه الشاب الخلوق المحب لأهله، مدرس مادة التاريخ في المرحلة المتوسطة، أم إنه مجرد رجل ساذج يحمل بين كتفيه رأسًا بعقل خامل.

- تعرف بلغة الشارع أنت وأم أحمد قلتو شنو عن سميرة؟

أجاب إبراهيم بخيبة: نعم عارف.

- ما أظنك عارف حاجة أنت يا إبراهيم، أنت عارف إنك قلت لسميرة أنت ساقطة، كلمة زي الحنظل. وبلغة الشارع شكش وأمها معرصة.

ذرف إبراهيم دمعًا سخيًّا وهو يردد وبصوت عالٍ جدًّا: أنا غلطان.. أنا غلطان.. والله غلطان وأم أحمد شيطان بيصلي.. الله يلعن أبوها وأبو أبوها وسواسة.

قام سليمان بضم ابن أخيه برفق إلى صدره وهو يربت على كتفه قائلًا: هوِّن عليك.. نم والصباح رباح.

تمدد إبراهيم في مرقده والتحفَ الندم والأسى، وهو يبدد صمت الليل بنشيج وزفرات. وعمه سليمان قلبه يبلغ حلقومه ويعود مع شهيق وزفير ابن أخيه. مضى ثلث الليل وإبراهيم شق الأنين صدره ولم يقدر على إغماض جفنه.

فجأة قفز سليمان من مرقده وخاطب إبراهيم: اسمع يا إبراهيم.

التفت إبراهيم ناحية عمه وعيناه تيبستا من ذرف الدموع، وباتتا كالشرر.

سليمان قائلًا: لا بدَّ أن نفكر في الأمر بدلًا من أن نندب الحظ، فالذي جرى ليس بهيِّن، وأول تصرف عقلاني يجب اتخاذه أن نجد لسميرة العذر وأن تأخذ حقها كاملًا غير منقوص من الغضب، فهذا أقل شيء ربما تستحقه، فجرح

كبريـاء أي إنسـان ليـس سـهلًا، فمـا بالـك أن هـذا الإنسـان سـميرة.

هنـا بـدا عـلى وجـه إبراهيـم قليـل مـن الانفـراج ورفـع نصـف جسـده وأودع ظهـره عـلى الوسـادة وعينـاه تتوسـلان عمـه سـليمان أن يسـتمر في الحديـث.

أردف سـليمان: الزمـن كفيـل بجعـل الأمـر هينًـا، فـلا نتعجـل زوال غضبهـا سريعًـا.

إبراهيـم متسـائلًا: وهـل تعتقـد أنهـا سـتتجاوز مـا حـدث؟ هـل شـعرت مـن خـلال حديثها أنها ما زالـت تحمـل لي بعـض التقديـر؟

هنـا شـعر سـليمان أن الحـزم المغلـف باللطـف هـو اللغـة الأنسـب للتخاطـب مـع إبراهيـم، وهـو لا يريـد أن يـزرع في نفسـه الأمـل وهـو لا يملـك القـدرة عـلى سـقياه.

- لا بـدَّ أن يكـون تركـيزك في أن هـذا حقهـا ومـن الواجـب أن تتقبلـه وتتعايـش معـه إلى حـين.

وهنـا لمعـت في ذهـن سـليمان فكـرة: لمـاذا لا تسـافر إلى كسـلا يـا إبراهيـم.

صمـت إبراهيـم وأعـاد تمـدده عـلى السريـر وسـحب المـلاءة عـلى وجهـه.. وبـدأ يرسـل شـخيرًا متقطعًـا.

فصل

توسطت أرهيت أم إبراهيم مجلس النساء في راكوبة أم سميرة. على يمينها جلست فاطمة على أرضية من السعف ممددة رجليها بعد أن غطت ساقيها بثوبها وأكتافها بطرحة، متكئة بظهرها على ركبتي عائشة مستسلمة لها.

عائشة امرأة تتقن جدل شعر النساء ولا تأخذ مقابلًا غير الإطراء والمديح الذي لا يصدر من النساء بأفواههنَّ فحسب، بل بحرصهنَّ على موافقتها بالانضمام إلى مجالسهنَّ. سرعتها مدهشة في جدل الخصل والضفائر، وأفكارها تبرز وجوههن التراثية مستديرة بين خصلتين يتقاطعان على الجباه من خلال حلقة ذهبية تعلو الناصية بقليل. وإجاباتها عن أسئلتهنَّ عن أيهما أفضل لعمل الزيوت البلدية القرنفل أم الهيل.

على يسار أم إبراهيم اتخذت أم سميرة مقعدها لإعداد الجبنة والجميع يترقب وصول آمنة التي تعشق المزح بتقليد السرقايت (المنجمة على أصداف البحر ويسمى ودعًا).

جاءت آمنة كعادتها لم تطرق الباب الخارجي، بل أدخلت يدها من فتحة في الصريف وأزاحت العود الذي يسند الباب من الداخل ودلفت إلى فناء الدار بعدما تركت الباب مفتوحًا على مصراعيه خلفها وهي تعلق بلسان التقري قائلة: ما في راجل عاقل يعاكس نسوان في أعماركنَّ فلا داعي لإغلاق الباب. أسرعت أم سميرة ناحية الباب، وتسرب ضحك النساء من ثنايا القصب، متناثرًا في صمت الشارع النهاري.

دخلت آمنة إلى الراكوبة وحيتها عائشة بتعليق قائلة:

- أم إبراهيم وأم سميرة كل عام يظهرن أصغر من أبنائهنَّ وبناتهنَّ، لا بدَّ أن نخشى عليهنَّ، فهن لسن مثلنا دب في أوصالنا التعب.

غطى الخفر وجه أرهيت وعكست عيناها غرورها الذي أشبعته عبارات عائشة، ومالت بكتفها وأصابع يديها متشابكتين مخاطبة آمنة: لا تضيعي وقتنا أكثر من ذلك انتظرناكِ كثيرًا.

أجابتها آمنة: لن أبدأ إلا إذا وافقتِ أن تعيريني ثوبكِ لأذهب به مشوارًا. وأردفت قائلة: وهذا مرضاة للجماعة حتى يخبروكِ عن المستقبل بأفضل ما يخبئ لكِ.

أجابتها أرهيت: لكِ هذا، فقط أريني ما لدى جماعتك ولا أريد كلامًا عامًّا قد يحدث لأي إنسان. جلست آمنة في المكان الذي خُصِّصَ لها وبدأت في رمي الصدف على فرشة،

سبع صدفات صغار، جمعتهم وأعادت رميهم، ترادف اثنتان منهم وثالثة سقطت قرب أم سميرة، قالت: تلك بشارة يأتيك ضيف محمل بالخير. سحبت الصدف وألقت به مرة أخرى تجمع فوق بعضه عدا واحدة، قالت: تلك شورة لا تعجب الغريب البعيد.

ظلَّت على هذا الحال تلقي بالأصداف وتنجم والنسوة ينصتن.

سرق الوقت النساء بين القهوة والأصداف التي تنبئ عن المستقبل واقترب وقت الأصيل، وفجأة جاء أبناء أرهيت يركضون بعد أن التقتهم سميرة عند مدخل الباب وهي قادمة من معهد للغة الإنجليزية التحقت به لتقوية لغتها، وهمسوا في أذن والدتهما بحديث أصلحت على إثره مظهرها سريعًا وهمَّت بالمغادرة معتذرة بشدة إلى سميرة بأن مغادرتها جاءت في زمن وصولها، ولكن هناك ضيف بالبيت جاء وسليمان استيقظ ومطلوب منها الحضور. وودعتها بقبلة على خدها وهي تسرع الخطى مع توأمها حسن وحسين.

دخلت أرهيت مسرعة إلى المطبخ لتعدَّ الشاي بعد أن علمت أن الضيف شخص واحد، وفي زمن قياسي أعدت كأسين من الشاي وطلبت من أحد أبنائها أن ينادي عمه من الخلوة لأخذ الشاي. جاء سليمان ومدَّ مبلغًا من المال إلى أرهيت قائلًا:

- حمد حفون الذي يعمل بالدكان لم نخبره أن إبراهيم سافر إلى كسلا، فعندما لم يأتِ إبراهيم لأخذ الإيجار أرسله لنا مع ود بال عاي.

ردت أرهيت: إذن الذي معك بالخلوة ود بال عاي؟

أجابها: نعم ويبدو أنه على عجلة من أمره فلا داعي للتعب.. وعلى كل حال انتظري مني إشارة إذا لزم الأمر.

أخذ سليمان الشاي ودخل الخلوة معيدًا الترحاب بود بالعاي ومقدمًا له كأس الشاي.

عندما ترك ود بال عاي مقاعد الدراسة من الصف السادس كان سليمان في ذات المدرسة ولكن في الصف الثالث.

بادر سليمان قائلًا: الزمن لم يأخذ منك الكثير، ما زلت شبابًا.

رد ود بالعاي: أكيد الناس بلغوك إني خلقت لأعيش، أنا بعطي رشوة للهم حتى يفارقني وآخرين يعملون العكس. وأشار بيده إلى الكتب التي تملأ المكان.

- ما اتغيرت يا ود بالعاي.

- دي ميزتي أنا خلقت لأعيش.

وبدأ يحرك الخاتم الذهبي الذي على إصبعه. ويستمر في الحديث قائلًا: قابلت إبراهيم قبل مدة في السوق كان أكبر

مـني ومنـك شـكلًا الولـد شـايل هـم الدنيـا والآخـرة، إن شـاء الله خـير؟

- أبدًا هموم الشباب. رد سليمان.

- الحياة يا سليمان يا أخي لا تتغير بالألوان.

- كيف يعني؟!

- يعـني مـا كفايـة نغـير لـون البيـت عشـان نكـون سـعداء، أنـت قلـت إني لـم أتغـير.. يتغـير الواقـف في المـكان الخطـأ ويـرى الدنيـا مـن شـباك غـير حقيقـي. عليـه أن يغـير مـكان الوقـوف أمـا أنـا كـسرت الحائـط البيـني وبـين الدنيـا يعـني شـايفها عريانـة. عشـان كـدا النـاس لازم تعـرف إن الحافلـة المسـافرة للخرطـوم مـا بتمـشي غـير الخرطـوم، وإذا أنـت مـاشي كسـلا غـيِّر الحافلـة. وأنـا وحافلـتي متفقـين وعارفـين اتجاهنـا.

- إذا أنـا فهمـت مقصـدك كلامـك صحيـح إذن وجهـه إلى أصدقائـك حمـد حفـون مـش نحـن.

- أولًا أنـا مـا عنـدي قبائـل أصدقـاء أنـا بتعامـل مـع الحيـاة والنـاس ديـل جـزء مـن الحيـاة، ثـم أنـا لا أفضـل حمـد حفـون عـلى أهلنـا لأن الطرفـين بـدون مزايـا. وكلامـي للجميـع. نـاس حمـد حفـون مـن يـوم مـا جـاءوا إلى هنـا قبـل مائـة عـام وعندهـم كل المفاتيـح، قـل لي مـا هـي الإضافـة أو الفكـرة الجديـدة العندهـم. المحـلات في السـوق مربعـات زي الغـرف

فيها بضائع متشابهة، زيت وسكر وملابس. الزراعة حرفة قديمة. لما زاد الإنتاج بالزراعة الآلية غلبهم التسويق.

- ولكن من الظلم نحن وهم نتحمل المسؤولية نفسها، ولازم تعرف يا ود بال عاي إن الحل في إن المفاتيح المعاهم لازم تكون في يد الدولة والأخيرة تكون في منتصف الدائرة محايدة لكن الحاصل الآن هم الدولة والدولة هم.

- يعني تقصد هم والدولة ساقين في سروال واحد؟ وحتى لو افترضنا كلامك صحيح وزدنا إن الفرز بينهم وبين السودان أو الدولة زي ما أنت قلت صعب يعني ما تعرف الدولة من حمد حفون يعني أصبحت الدولة قبيلة من ناس حمد حفون. الحل أبكي وأشتري كتب وأتحول لخفاش؟!

- يا ود بال عاي الكتب دي نور للعقول تعرف جذور المشكلة من الكتاب والحل من الكتاب.

رد ودبال عاي: إذا دا صحيح لماذا لم تنور الكتب عقول حمد حفون.. تعلموا في كلية غردون.. نالوا كل فرص البعثات للخارج والنتيجة معروفة... وهو يهم بالانصراف: يعني المشكلة عملوها المتعلمين ما دامت هي في الكتاب والحل في الكتاب. إذن أنا برنامجي تمام. وأنا يا سليمان ما بفحص الماء قبل الشرب لأني لو شفت الجراثيم حاموت عطش. الكتب مرض أنا ربنا شفاني منها. وبالنسبة لي السودان فيلم سينمائي لمخرج فاشل.

- إيه رأيك في جبنة يا ود بال عاي؟

- أنت خليك من موضوع الكتب وتعال زورني في الروضة وأنا لو كنت مكانك... وصمت.

سليمان قائلًا: أكمل.

استمر قائلًا: الناس عارفين موضوعك (أنت في الصندوق وخبرك في السوق) لما كنت في الجامعة بنت من بنات حمد حفون ألحقت قلبك بقر جدك، عيش يا عمنا وامشي اتزوجها وبلاش قصة الكتب. ويا رب تكون.. من القبيلة القيل عن نسائها ما بيمشوا المزرعة عشان تحافظ على أنوثتها.

ما الفرق؟

- الفرق في الجودة.. ست بيت لزوجها وأم عيال.

إذن أنت دعاية يا ود بالعاي!

- كيف؟! أنا صاحب برنامج يا أستاذ والدعاية جزء من البرنامج، وزي ما بتقول الإذاعة هتلر اعتمد على الدعاية.

- أنت يا ود بال عاي في برنامجك ما عارف البيتزوج من القبيلة دي بالذات بينسى الناس.. تسرقك من أهلك.

- لذلك أنا قلت الفرق في الجودة والبرنامج.. الله معاك وأتمني زيارتك لي في الروضة عندنا كباية عايزين ليها راجل.

فصل

منـذ أن أتيـت إلى كسـلا وأنـا أشـعر أن الحيـاة خطـوط متوازيـة، الانتقـال مـن خـط إلى آخـر لا يتـم إلا عـبر خطـوط عـرض تلزمـك بتقاطعاتهـا، هـي الـتي تحـدد نقـاط الانتقـال مـن نقطـة إلى أخـرى، بيـت خـالي عبـد الله رغـم الصرامـة الـتي يعيشـها إلا أنـه قـدَّم لي أجـواء مختلفـة.

أربعـون يومًـا الآن وأنـا لا أرى بنـات خـالي إلا عندمـا يغـادر إلى السـوق. خـالي يظـن أنـه يحسـن تربيتهـن وهـن أشـبه بقنـدول الـذرة الشـامية يرتديـن عـشرات الخـرق درءًا للمفاسـد. ولا يعلم أنهـن مـن الهشاشـة النفسـية جـراء الكبـت والحرمـان لا يكلفـن الرجـال وقتًـا للمفسـدة. مـا إن يذهـب خـالي إلى السـوق إلا وتتبـدل أحـوال البيـت، يتحايلـن للخـروج المتكـرر إلى البقالـة المجـاورة. عـسى أن يجـدن بعـض الشـباب ويرمقوهـن بنظـرة إعجـاب أو كلمـة تجعلهـنَّ في عـداد الأحيـاء.

أخـرج كل يـوم وأنـا لا أقـوى عـلى تحديـد أي الخطـوط المتوازية سأسـلك. هـل أزيـن ناظـري بالخـضرة، الـتي تتناقـض مـع واقـع النـاس؟ أم أفكـر في القصائـد الـتي كتبـت عـن المدينـة؟ كسـلا محظيــة الشــعر. مدينــة جائعــة ورائعــة. حشــد مــن الفقــر والجمـال والأمـراض، مدينـة تصـدر الخـضر والفواكـه وتحتفـظ لنفسـها بالحميـات والتيفويـد والملاريـا.

منـذ أن صافحـت عينـاي جبـل توتيـل قبـل بلـوغ المطـار وأنـا أسـعى جاهـدًا لأسـتوعب مجيئـه ليخاطـب الفتـاة في القضـارف، وشـكواه مـن المـرض رغـم السـواقي الـتي تفـترش الأرض تحـت قدميــه. عــبرت الجــسر المــؤدي إلى داخــل المدينــة وتذكــرت مذكـرات الإداري الإنجلـيزي الـتي يحتفـظ بهـا عمـي سـليمان. الـذي جـاء للمدينـة قبـل تشـييد الكوبـري عـلى نهـر القـاش الموسـمي وكان قادمًـا مـن بورتسـودان بالقطـار، وبلـغ المدينـة في ليلـة ماطـرة والنهـر الموسـمي يـزأر قادمًـا مـن أرض البقـوس (قامـت عليهـا المسـتعمرة الإيطاليـة إريتريـا) ومحطـة القطـار في غـرب المدينـة، والرجـل الإنجلـيزي يـود مركـز المدينـة عـلى الضفـة الأخـرى.

جــاء في ترجمــة المذكــرات أنــه عندمــا بلــغ المدينــة كان في انتظـاره سـوداني وسـارا معًـا حـتى بلغـا نهـر القـاش الـذي كان ثائـرًا. وهنـاك وعـلى الضفـة الغربيـة وجـدا الحمالـين الذيـن كانـوا يقومـون مقـام الكوبـري، يحملـون النـاس عـلى حمـالات أشـبه بالـسروج وهـي مـن الخشـب. فقـال: أنـا والسـوداني حملنا

أنـاس بجاويـون إلى الضفـة الأخـرى.

أذكـر ليلتهـا عندمـا قرأنـا تلـك المذكـرات أطلقـت سـميرة ضحكة أدهشـت بهـا السـماء وظلـت تـردد: اقـرأوا قـال الرجـل في مذكراتـه (أنـا والسـوداني حملنـا أنـاس بجاويـون) البجـا جماعـة والسـودانيون جماعـة.

هكـذا سـميرة أجدهـا في كتـب التاريـخ، في نهـر القـاش بطولـه وعرضـه، في ريـح الهبـاي، وجبـل توتيـل في نـواح السـواقي وصخـور مكـرام وأويتـلا في تفاصيـل الممالـك البجاويـة الـتي غطاهـا الغبـار. وخلـف قطيـع البقـر تتمـوج عـلى ناقتهـا.

وجدتهـا في عيـون جنـود جبهـة التحريـر الإريتريـة الذيـن تحولـوا إلى عمـال بأجـور زهيـدة يتسـاءلون عـن الـذي جرفهـم خـارج سـاحة المعركـة الإريتريـة، كيـف لأرتـال الحديـد وجحافـل الجنـود تقهقـرت، ومـن الـذى خلـع منهـم رداء الثـورة عـلى حـدود كسـلا، يـروون قصـص إخوتهـم الذيـن لاذوا بالانتحـار عـن تسـليم السـلاح.

كانـت تأتيـني سـميرة في دوي الانفجـارات الـتي سُـجِّلَتْ ضـد مجهـول، ومـن الثقـوب الـتي وُجِـدَتْ في صـدور الذيـن أُصيبـوا بـداء الصـدر. ومـن كل جـرح عميـق.. وهـي تبتسـم.

لا تختلـف كسـلا كثـيرًا أو قليـلًا عـن القضـارف فالدولـة مرتهنـة والنـاس يسـيرون عـلى الرصيـف الآخـر، حمـد حفـون والدولـة خـط ونحـن بلهجاتنـا المختلفـة الخـط المـوازي يفصلنـا شـارع

مـن التاريـخ والثقافـة. ونسـير في اتجـاه معاكـس.

في ظهـيرة غطـت ريـاح الهبـاي فيهـا السـماء حـتى باتـت كلـون الأرض، وقفـت عنـد بائـع الفاكهـة، أقلـب في ثمـار المدينـة، ورأسي منحنيـة أتفحـص، امتـدت كـف بـين عيـني والفاكهـة، تسـألني مـن فضـل الله، عليهـا كل خطـوط الفـأل البائـس، أدخلـت يـدي في جيـبي، كان جنيهـا أخـضر، ناولتـه للكـف، سـمعت: شـكرًا يـا إبراهيـم. اعتدلـت رأسي واسـتدارت ناحيـة الصـوت، كانـت الأم الـتي فقـدت طفلهـا في مستشـفى القضـارف، إحـدى النسـوة الـلائي التقيتهـن في الليلـة العاصفـة، الـتي توقفـت ولكنهـا مـا زالـت تتقـاذف تلـك المسـكينة، حـتى باتـت تسـأل النـاس، أعطوهـا أو منعوهـا.

عـدت إلى بيـت خـالي وأنـا معبـأ بأرتـال مـن الأوجـاع، لـم تـزدني كسـلا إلا جراحًـا، نُبِّئـت أن عمـي سـليمان يحتـضر، ووجـدت كسـلا تحتـضر، والمـرأة تحتـضر، بـل كنـت أحتـضر فقـررت العـودة فـورًا إلى القضـارف، لـم يكـن سـهلًا أن أجـد حافلـة تقلـني إلى جهـتي، حـاول خـالي إثنـائي عـن السـفر في ذات اليـوم إلا أنـه فشـل. كنـت أفكـر طـوال رحلـة العـودة وأنـا عـلى ظهـر الشـاحنة الـتي اسـتقللتها مـن خـارج المدينـة، جالسًـا عـلى سـطح البضائـع، كيـف يرحـل عمـي بعـد أن شرعنـا في طـرح الأسـئلة؟ لمـاذا لا ينتظـر حـتى أروي لـه قصـة كسـلا. ومـا بلغـني عـن قطـط مدينـة سـواكن الـتي تخاطـب البـشر، النـاس يـروون عنهـا الكثـير. مثلمـا يـروون عـن سـباق الصبيـان للقطـارات

وهـم يطلبـون رغيفًـا. عـن مـرض السـل الـذي فتـك بأهلنـا. عـن رأس الشـيطان رمـزًا لتراكـم الأوسـاخ، وصـورة الدولـة وحمـد حفـون المتكـررة في كل المـدن البجاويـة عـن هـؤلاء الذيـن نسـوا أنفسـهم وأصـاب عقولهـم هـوس المنافـع.

ومـاذا عـني وسـميرة هـل طلـب مـني السـفر إلى كسـلا لتأخـذ سـميرة حقهـا في الغضـب وكان ينـوي الرحيـل، هـل كان يخفـي عـني أمـرًا.

عندمـا عبرنـا نهـر العنـج الـذي يسـمونه بنهـر عطـبرة، المدينـة الواقعــة عــلى نهــر النيــل وفيهــا يصــب مياهــه بعــد قرابــة الخمسـمائة كيلـو مـتر. كان في خاطـري رغبـة سـميرة في أن تكتـب تاريـخ العنـج في يـوم مـا، أهـل سـوبا مملكـة البازيـن الذيـن يقطنــون عــلى ضفــاف نهــر القــاش حاليًّــا. لتزيــل التباهــي بخرابهــم.

لا أعتقـد أن عمـي سـيرحل ويـترك الأشـياء معلقـة، تـراه يمـزح لعلـه وسـميرة قـررا عـودتي لنصـلي صـلاة الغفـران.

هــا نحــن عبرنــا غابــة الفيــل ســأصلي المغــرب بجــوار أمــي أرهيــت وعمــي ســليمان والتــوأم حســن وحســين، أرى غفــران سـميرة يلـوح عـلى رأس التـلال الـتي ظهـرت لاسـتقبالي، أرى علامـات الرضـا في سـنابل المحاصيـل. سـأروي لهـا عـن وجـه جبـل توتيـل الـذى التقـى الفتـاة، وعـن الجسـر الـذي شُـيِّدَ بـدلًا مـن البجـا الذيـن حملـوا الإنجليـزي والسـوداني عـلى أكتافهـم،

وأن الإنجليزي ذهب ولكنهم ما زالوا يحملون السوداني، فالجسر لا يحمل كل الأشياء.

نزل إبراهيم من الشاحنة عند مدخل المدينة، استأجر عربة لتأخذه مباشرة إلى الحي وبأقصر الطرق، لا يعلم أي الطرق سلك السائق لم ينتبه إلا إلى العربة وهي تتحايل على النتوءات الصخرية التي تملأ الخور، إن تجاوزت واحدة تعترضها أخرى.

تجاوزت العربة مأزقها لتُدخِل إبراهيم في لحظته التي بدأت بالسرادق المنصوب بالحي. أوقف إبراهيم السائق ترجل متأبطًا حقيبته الصغيرة وقلبه يزداد خفقانًا، الحشود تحركت صوبه.. صديقك عادل التهمته النار في جوبا، سقط صديقك أحمد من البلكونة في موسكو ولقي حتفه، وعمار رحل في حرب العراق ضد الفرس، وسليم مات ممزقًا بهوية جديدة أفغانيًّا عربيًّا. وأبو بكر بات نصف مخلوق جراء قذيفة إثيوبية بعدما عاد من سوريا التي ذهب إليها بمنحة الجبهات الإريترية، رجع إلى ميدان الثورة لأداء الخدمة معلمًا للجنود ومساعدًا لهم في الخلفيات العسكرية، جعلت منه الآلة الحربية الإثيوبية نصف مخلوق مقعد الأرجل، ثقيل اللسان، مفقوء العينين. مهرجان للموت تناثر إبراهيم في أرجائه.. وهو يصرخ: ذاكرتي.. كفوا عني.. امتلأت.. ذاكرتي.. امتلأت.. ذاكرتي.. امتلأت.. كفوا عني.. وغاب.